عبد القادر زبادية

الحضارة العربيّة والتّأثير الأوروبي

في افريقيا الغربيّة جنوب الصّحراء

دراسات ونصوص

المؤسسة الوطنية للكتاب
ENTREPRISE NATIONALE DU LIVRE

عبدالقادر زبادية

الحضارة العربيّة والتّأثير الأوروبي

في افريقيا الغربيّة جنوب الصّحراء

دراسات ونصوص

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

© رقم النشر 2005/85
المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر 1989

بسم اللـــه الرحمن الرحيم

تقديـــم :

يصنّف المقدسي البلدان العربية الى أربعة عشر إقليمــــا ، ومن بين هذه الاقاليم اقليم بلدان السودان في افريقيـــــا الغربية الى الجنوب من الصحراء الكبرى . والاقليم عنـــــد المقدسي هو منطقة قابلة للتحديد استنادا الى خصائصهـــا الذاتية من حيث الموقع الجغرافي والثقافة والطقس .

وبديهي ان الجغرافيين العرب من امثال المقدســــي والاصطخري وابن حوقل وغيرهم انما يتحدثون عن الاقاليــــم العربية بالمعنى الحضاري والثقافي عموما لهذه الكلمــــة ، وهذا ما كان يتيح لهم طبقا لمثل هذا الشعور ادراج اقليــم السودان الغربي وغيره من الاقاليم المشابهة ضمــــن مفهوم الاقاليم العربية أو يكاد ، وهذا المعنى الحضـــاري لديهم هو ما يشير اليه ايضا الرحالة الشهير ابن بطوطة في اقتناعه الشخصي على الاقل ، من انه كلما ذهب الى بلـد ووجد نفسه بين المسلمين فكأنه موجود بين افراد عائلته .

ان الاربعة عشر اقليما (العربية) لدى المؤرخيـــن والجغرافيين العرب قد نجد من بينها اليوم ستة اقاليـــم عربية بالمفهوم العربي الصرف ، اما الثمانية الباقيـــة فهي غير عربية ولكنها أصبحت في العرف عربية بالاســـلام وبانتسابها الحضاري للعــرب ، ولا ينطلق الجغرافيـــون

../..

العرب في عرفهم هذا عن هوى في خصوص اقليم السودان الغربي الذي هو موضوع الاهتمام هنا، فقد اندمج سكان هذا الاقليم كغيره من الاقاليم الاسلامية الاخرى في الحضارة العربية الاسلامية بفضل الاسلام واللغة العربية لقرون عديدة ، وشارك علماؤه ومفكروه في الاستفادة والأخذ من الثقافة العربية الاسلامية وفي المساهمة في اثرائها ايضا بكل جهودهم ، ولكن هناك تغييرات وتحويلات أفرزتها حديثا الفترة الاستعمارية الاوروبية ، لا بدّ للقارىء العربي ، في رأينا المتواضع ، وللباحث العربي وللفرد، العربي عموما من الالمام بها ومعرفة مسبباتها وضوابطها وميادينها ، وذلك اضعف الايمان !

لقد بدا للحضارة الاوروبية الحديثة تأثيرها الكبير على اقليم السودان الغربي منذ بداية القرن العشرين فقط ، واذا كان جانب المادية التقنية والعلمية في الحضارة الاوروبية المعاصرة قد أصبح شاملا في عصر تقاربت فيه الابعاد بين كل الامم والشعوب ، فان التحول الجذري في ميدان اللغة والثقافة الذي استمر خضوع السودانيين اليه خضوعا كاملا بعد انتهاء الفترة الاستعمارية وصار يشار لاقليمهم تبعا لذلك بمنطقة البلدان الفرانكوفونية في افريقيا، لا يمكن أن لا يستدعي من الباحثين في ميدان العلاقات الحضارية والثقافية بين العرب واخوانهم وجيرانهم الأفارقة الاهتمام المطلوب .

ولا يفوتنا القول هنا بأن هذه الفصول الدارسية والنصية التي جمعناها في هذا السفر لالقاء الاضواء على واقع السودان الغربي امام تلاقي الثقافتين، الثقافة العربية العريقة في المنطقة والثقافة الاوروبية الوافدة عليها حديثا ، هي بمثابة خلاصات مكثفة فقط ، فهي لا تفصل بقدر ما تفتح المجال للبحوث المطولة لمن اراد القيام بذلك من الباحثين والدارسين العرب ، وخاصة الشباب ، آملين ان يكون لعملنا هذا ما نتوخاه له من إنارة ولفت انتباه للقارئ الكريم ، ومن مساهمة ايجابية كذلك في إغناء المكتبة العربية بشيء مما يليق بمقامها الرفيع ، والله ولي التوفيق . والسلام .

المؤلف

في 1988/5/30

القسم الاول

السّودان الغربي
وممالكه الاسلامية الكبرى

نظرة عامة

1 ـ بلاد السودان

كان العرب أول من أطلق كلمة «السودان» على الأقوام التي تسكن جنوب الصحراء الكبرى، وسموا بلادهم (بلاد السودان). أما أصل هذه التسمية لديهم، فقد استوحوا فيه لون البشرة عند سكان تلك المنطقة.

وتقسم بلاد السودان الى ثلاثة أقسام، هي :

(1) السودان الغربي، وهو يشتمل حوض السنغال الآن وغمبيا وبوركينا فاصو (فلتا العليا سابقا) والنيجر الأوسط.

(2) السودان الأوسط، وهو يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد.

(3) السودان الشرقي، وهو يشمل مناطق النيل وروافده، جنوب بلاد النوبة.

وكان هذا القسم الأخير قد غلب عليه عند العرب بين القرن التاسع والثاني عشر اسم بلاد الزنج (1) إلا أن كلمة السودان، كانت تشمله أيضا.

واذا بحثنا حدود هذا المفهوم الاصلاحي لكلمة السودان، من الناحية الجغرافية عند العرب، أمكننا أن نعتبر حدوده الشمالية هي بدايات الصحراء الافريقية الكبرى. ويحده جنوبا درجة 10° شمالي خط الاستواء (2)، أما الحدود الغربية والشرقية فهي المحيط الاطلسي من الغرب والمحيط الهندي من الشرق (3).

وبعد العرب جاء الأوروبيون، فبقي بينهم تداول هذا الاصطلاح، ولكن الكلمة استعملت استعمالات جزئية، فبينما أطلقها الفرنسيون على ممتلكاتهم في غربي افريقيا، استعملها الانكليز للدلالة على ما كان يعرف لديهم بـ (السودان المصري)، وهو يشتمل حاليا كل جمهورية السودان وجزءا من أوغندا الشمالية.

---

(1) مارسيل دوفيك ـ بلاد الزنج ـ هاشيت (باريس 1883)، ص 11.
(1) موريس دولفوس ـ في دائرة المعارف الاسلامية ـ جـ 5 س ـ ز، ليد 1984 ـ ص 518.
(3) نفس المصدر، ص 519.

وبما أن موضوع هذا الكتاب خاص بمنطقة غربي افريقيا الاسلامية فتقتصر فيما يلي بالحديث عن الممالك الهامة التي قامت هناك، ثم اعتنقت الاسلام، وكانت لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بقيام مملكة سنغاي. وهي ممالك غانا ومالي وبورنو(1)

2 ـ غانا

غانا القديمة كانت تشمل جنوب موريطانيا وشرقي السنغال وجزءا من مالي وربما غينيا أيضا، فهي غير غانا الحالية، على هذا الاعتبار(2)، وهذه الحدود إنما بلغتها في أوج عزتها وقوتها، أما قبل ذلك فيذهب كثير من المؤرخين الى أنها كانت في النقطة الممتدة شمالي منحنى النيجر الأعلى ومنابع نهر السنغال، أما في أيام ضعفها في الاخير فقد بقيت حدودها هي الحدود القديمة أيضا، ولكن الولايات أصبحت أكثر استقلالا، بحيث أن التبعية أصبحت اسمية أكثر منها عملية.

ويرجح ان مملكة غانا قامت خلال القرن الثالث الميلادي، وامتد عمرها حتى القرن الثالث عشر الميلادي(3)

واسم غانا في الأصل لقب ملوكها، ثم أطلق على كل المملكة، فعرفت به(4) وقد فرضت غانا سلطانها وامتدت سلطتها على الاقاليم المجاورة، بفضل تمكن شعبها من استعمال الحديد كسلاح، قبل غيره من شعوب إفريقيا الغربية(5) أما ازدهارها الاقتصادي، فقد قام على التجارة وعلى موقعها الاستراتيجي بين مناجم الذهب في (بامبوك) و(بوري) إلى الجنوب ومناجم الملح

---

(1) مملكة الكانم — بورنو، لا تزال الأبحاث لم تنته في أصولها الأولى إلى نتائج نهائية، ويعتبر القرنان الثالث عشر والرابع عشر أزهى عصورها، وكانت لها علاقات واسعة بطرابلس ومصر حتى القرن السابع عشر، وفي القرن السادس عشر، وطدت علاقاتها مع المغرب الأقصى، ولا يعرف لها تأثير يذكر على مملكة سنغاي (المجاورة لها) سوى أنها عاصرتها، وكانت هي أضعف من سنغاي.

(قارن فيما بعد ص. 15 . Supra, P)

أديكرو وكليريسي ـ تاريخ الشعوب السوداء. (أبيجان).1963 (نقلا عن الزهري (1150).

دافيدسون، إفريقيا تحت أضواء جديدة (ترجمة م. أحمد) ص 183 بيروت 1963.

البكري، المسالك (تحقيق دي سلان) مطبعة المثنى (بغداد) 1857 ص 23.

(5) اديكرو وكليريسي ص، 20.

في الشمال (1)، فقد استطاع ملوك غانا أن يفتحوا البلاد في وجه التجارة بين شمالي الصحراء وجنوبها، منذ وقت مبكر، ونظموا استخلاص الضرائب للخزينة، فكانوا يجبون على كل حمل من الملح يدخل البلاد دينارا ذهبيا، وعلى الحمل الذي يخرج منها دينارين. وكان حمل النحاس عليه ثمن اوقية واحدة، وبقية السلع ضعف ذلك وهكذا نمت مواردهم باستمرار. ويذكر البكري أن مناجم الذهب الموجودة في غانا كانت كلها بيد الحكومة، وهي لا تسمح لأحد أن يستخرج منها شيئا، سوى بعض الذرات الصغيرة التي يعثر عليها الناس في بعض الفلزات حول المناجم. وقد علل هذا الإجراء بأنه لو سمح الملوك لمواطنيهم باستخراج الذهب من المناجم لأصبح هذا المعدن الثمين قليل القيمة في الاسواق، ولاختل بذلك نظام التعامل (2).

وبواسطة التجارة واستغلال مناجم الذهب بلغت مملكة غانا حدا ذا قيمة هامة من حيث الازدهار، فكان لها جيش دائم يبلغ تعداد أفراده أربعة آلاف، وفي أوقات الشدة، كان ملكها يستطيع أن يجند مائتي ألف محارب دون صعوبة، وفي امكانه أن يسلح أربعين ألفا من بينهم بالقسي والرماح (3).

أما عاصمتها (كمبي صالح) فقد كانت (مدينة واسعة الأرجاء ـ على حد تعبير البكري ـ ذات أسواق عديدة، تزينها أشجار النخيل الغزيرة، وأشجار الحناء تكاد تبلغ الزيتون في الطول، مليئة بالمنازل الجميلة والأبنية القوية الراسخة) (4).

وبعد أبحاث أثرية استمرت طيلة نصف قرن تقريبا، استطاع العالمان توماسي وموني سنة 1949 أن يحددا موقع كمبي صالح على بعد حوالي 205 كم إلى الشمال من مدينة باماكو الحالية، وقد قدرا عدد سكانها بثلاثين ألف نسمة، أما قصر الملك فكان يقع في قلعة تحيط بها غابة كثيفة خارج المدينة، ويعيش معه

---

(1) نفس المصدر ص 31.

(2) زار الفزاري غانا حوالي سنة 800 للميلاد، ورسم خريطة العالم على غرار خريطة بطليموس، فوضع عليها غانا (بلاد الذهب) انظر دافيدسون افريقيا ص 142 و ص 147.

البكري (ابو عبد الله) ص 24.

البكري، ص 24.

فيهـا كبار رجال الدولة ويقصد تلك القلعة في كل صباح الموظفون والمضيفون الذين كان جلهم من المسلمين، وكان لهم مسجد خاص قرب القصر الملكي، واثنا عشر مسجدا بالمدينة، وكانوا يتولون أعمال المحاسبة وتسيير الدواوين، كما ذكر ذلك البكري. (1)

وقـد وجـد المنقبـون في كمبي صالح رماحا وسكاكين، وعددا كبيرا من الحراب والمسامير، وأدوات زراعية متنوعة، ومقصا بديع الصنع (2) وأعدادا من الأوزان الزجاجية، يرجّح أنها كانت تستعمل لوزن الذهب، كما عثروا على بقايا من الفخار وعلى سبع وسبعين قطعة من الحجر المزين بالألوان، كان على ثلاث وخمسين منها آيات من القرآن كتبت بالحروف العربية (3)، وهذا ما دفع موني إلى القول: (إن حضارة غانا كانت قد بلغت مستوى رفيعا في الناحيتين الزراعية والصناعية).

ولكن الازدهار المادي غير كاف وحده للدلالة على الرقي الذي يجب أن نلاحظه أيضا في بقية الجوانب الحضارية والخلقية، لكي نقتنع بعلو كعب أمة ما وسلامة بنيانها، ولدى مملكة غانا قد يجد الباحث علامات أخرى في هذا المجال إلى جانب الازدهار المادي، فمن ذلك ما ذكره الشريف الادريسي مثلا من أن ملك غانـا كان من (أعدل الناس فيما يحكى عنه، ومن سيرته أن له جملة قواد يركبون إلى قصره في كل صباح. . فإذا اجتمع اليه قواده، ركب وسار يمشي في أزقة المدينة وسائرالبلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له، فلا يزال حاضرا بين يديه، حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع الى قصره (4) وهو يفعل ذلك مرتين، المرة الاولى قبل الظهيرة والمرة الثانية بعد الظهيرة أما القواد فيسيرون الى أعمالهم بالقصر الملكي في الصباح والطبول تضرب من حولهم، والملك لا يسير

---

(1) دافيدسون (افريقيا) ص 149.

(2) ويقول الشريف الادريسي في وصف قصر ملك غانا (1154م)، (وله قصر على ضفة النيل قد أوثق بنيانه، وأحكم اتقانه وزينت مساكنه بضروب من النقوش والادهان وشمسيات الزجاج. له في قصره لبنة من ذهب وزنها 30 رطلا من ذهب تبرة واحدة خلقها الله خلقة تامة من غير أن تسبك في نار أو تطرق بآلة، وقد نقر فيها ثقب، وهي مربطة لفرس الملك، وهي من الأشياء المغربة التي ليست عند غيره. . . وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان).

(3) دافيدسون ـ افريقيا: ص 141.

(4) الشريف الادريسي وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (وهو جزء من كتاب نزهة المشتاق) صححه ونشره هنري بيريس طبعة الجزائر 1957 ص 8.

أمام الملأ إلا في موكب حافل تمشي أمامه فيه الفيلة والزرائف وضروب من الوحوش، كما أنه لا يظهر أمام الرعية أو كبار الموظفين إلا في زيه الرسمي، حيث يوجد له (حلية حسنة وزي كامل يقدمه أمامه في أعياده) (1)

ومن هذا يتبين أن ملوك غانا إنما توصّلوا لإقامة دعائم دولتهم والتمكين لاستمرارها بعدة أمور، يمكن إجمالها فيما يلي:

أ ـ تنظيهم لمداخيل الخزينة.

ب ـ اعتمادهم على جيش دائم وآخر احتياطي.

جـ ـ سهرهم على اقتصاد البلاد.

د ـ عدلهم بين الرعية.

هـ ـ حرصهم على انتظام الابهة لما لها من أثر في إشاعة أسباب الهيبة والاحترام بين مواطنيهم.

ولا تزال أبحاث المؤرخين لم تصل بعد إلى معرفة الأسباب الحقيقية لضعف مملكة غانا في آخر أيامها، سوى هجوم المرابطين الذين هاجموا المملكة سنة 1054 واستولوا على مدينة «أودغست» سنة 1055م، ثاني مدينة هامة في مملكة غانا، أما العاصمة (كمبي صالح) فلم يستولوا عليها الا في سنة 1067 (2)، وقد نتج عن الفتح المرابطي انتشار الاسلام في غانا، وبعد هذه النتيجة انسحب المرابطون تاركين الحكم بيد الملوك القدماء، غير أن عظمة غانا وسيطرتها على الأقاليم المجاورة، لم تدم مدة طويلة بعد ذلك بل استقلت عنها تلك الأقاليم شيئا فشيئا، ثم سقطت العاصمة (كمبي صالح) في ايدي حكام قبائل (السوشو) من مملكة مالي المجاورة، وكان ذلك في سنة 1240 للميلاد.

نفس المصدر.
انظر هوبري دي شمب، إفريقيا الغربية قبل عهد الاستعمار (الأوروبي) ص 8.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مملكة مالي هي المسيطرة في المنطقة، وأصبحت غانا مجرد اسم لامع لأول إمبراطورية سوداء نمت في ظلها حضارة مشرقة، ثم أطلق الوطنيون اسمها على (ساحل الذهب) المستعمرة البريطانية، حينما استقلت عن بريطانيا سنة 1957 وذلك بالرغم من أن مملكة غانا القديمة لم يكن نفوذها يشمل أبدا أراضي ساحل الذهب التي تدعى حاليا (جمهورية غانا)، وهذا يدل على أن هذه التسمية لم تكن سوى تخليد لاسم مملكة إفريقية عظيمة، كان لها في تاريخ إفريقيا الغربية مكانتها اللائقة بها، ولا تزال انجازاتها في ميدان الحضارة الافريقية تستدعي من الافريقيين التقدير والاحترام.

3 ـ إمبراطورية مالي

امتد حكم الامبراطورية التي شكلها شعب الماندينغو المعروف بهذا الاسم على جمهورية مالي الحالية وعلى السنغال الشرقي وشمالي غينيا وشمال كل من بوركينا (فولتا العليا) والبينين (الداهومي سابقا) والجنوب الأقصى من جمهورية موريطانيا (1). وهذا ما جعل بعض المؤرخين العرب (2)، يقدرون طولها بمسير أربعة أشهر (من الغرب إلى الشرق)، وعرضها بمسير ثلاثة أشهر (من الشمال الى الجنوب).

ويتفق الباحثون حاليا، على أن جمهورية مالي، كانت في أيام عزها من أكبر الامبراطوريات اتساعا في إفريقيا الغربية.

وقد كان شعب الماندينغو من بين أوائل الشعوب في غربي إفريقيا، التي اعتنقت الاسلام، وكان في البداية يدين بالولاء لمملكة غانا، وعندما انهارت غانا أمام هجمات السوشو الوثنيين، تصدى شعب الماندينغو بقيادة زعمائه للوقوف في وجوههم، فتمكن من الانتصار عليهم بقيادة الزعيم سونديا تاكيتا في معركة كيرينا حوالي عام 1235م (3)، ولا يعتبر هذا التاريخ بداية مملكة مالي، ولكنه يعتبر بداية انتشار سلطانها على كل إفريقيا الغربية وبداية نشوء الامبراطورية المالية.

---

(1) فج (مدخل لتاريخ إفريقيا الغربية) لندن 1956 ص 30.

(2) العمري (1342 ـ 46)، أبو الفداء (1231 ـ 1273) وغيرهما.

(3) قداح، نعيم (افريقيا الغربية) مطبعة الوحدة (دمشق) 1962 ص 56.

وقد مرت إمبراطورية مالي بثلاثة أدوار بارزة هي :

(1) دور التأسيس : يمتد بين 1225 و1455 ، وفي هذا الدور امتد حكم مالي على كل مملكة غانا القديمة التي ألحقت بمالي نهائيا سنة 1240 م ، كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق وفي الفوتاجالون.

وفي هذا العهد اتخذ أمراء الماندينغو لقب منسا (أي السلطان) لأول مرة وبدأوا في تنظيم إمبراطوريتهم. ففي البداية بنيت عاصمة «قارة» للإمبراطورية هي مدينة نياني على شاطىء نهر السانكاراني (في شمال شرقي غينيا الحالية)، وهو أحد الروافد الهامة للنيجر. (1)

ثم قسمت الإمبراطورية إلى مقاطعات ولي عليها أفراد من العائلة الملكية وجعل حكمها وراثيا فيهم.

وقد اتبع ملوك مالي سياسة الصداقة والمصاهرة مع زعماء القبائل في إمبراطوريتهم فانقادت لهم (2).

أما في ميدان التنظيم الاقتصادي، فقد عمل حكام مالي على تشجيع زراعة القطن (3) ونظموا جباية الضرائب على الواردات والصادرات على غرار ما كان في مملكة غانا ولكن أسلوبهم كان أكثر إحكاما.

(2) دور الازدهار والقوة: وقد استمر طيلة القرن الرابع عشر تقريبا، فعم الأمن كل جهات الإمبراطورية وازدهر اقتصادها، وتعود عوامل ذلك الازدهار الذي رأته إمبراطورية مالي في تلك الفترة إلى :

أ ـ انتظام المؤسسات الإدارية، حيث أن الطريقة التي اتبعها حكام مالي منذ البداية كانت تعتمد على رؤساء القبائل بالدرجة الأولى، فلما فتح جيش مالي

(1) كورنو فان (تاريخ إفريقيا) ج 1، بايو (باريس) 1962 ص 248.
(2) المصدر نفسه ص 250.
(3) المصدر نفسه ص 251.

منطقة إلا وعهد بإدارتها إلى العائلات المتنفذة فيها من قبل، وكان الملوك يأخذون أبناءهم كرهائن، يبقون في قصورهم طيلة الفترة التي يكون فيها آباؤهم في الحكم، وبهذه الطريقة كانت القبائل لا تكاد تشعر، بحكم أجنبي مباشر عليها، فانعدمت الثورات والقلاقل في هذه الحقبة تقريبا.

ب ـ اجتهاد حكام مالي في إقامة الأمن، فجاب التجار أقاصي المملكة، وتوافد عليها الرأسمال الأجنبي، وخاصة من المغرب ومصر، وكانت الحكومة تجبي ضرائب منتظمة ومحددة على الواردات والصادرات، فكثر المال بيد الحكومة وامتلأت خزائنها، مما ساعدها على تكوين جيش قوي. وعلى الإنفاق على مختلف المشاريع بسخاء، فعمت شهرتها الآفاق (1).

أما جيش مالي فقد أصبح في هذه الفترة أقوى جيش في إفريقيا الغربية كلها وبعد أن فتح مناطق واسعة في الغرب حتى الاطلسي، توسع باتجاه الشرق، وفي أثناء غياب كانكان موسى وصلت حدود مملكته في الناحية الشرقية إلى مشارف بحيرة تشاد، وقبل وصوله الى العاصمة نياني وهو عائد من الحج، قدم له أمير جيشه (سقمان دير) سنة 1325 بلاد سنغاي كهدية، واستقبله أمراؤها فقدموا له فروض الطاعة، وكان ممن أخذه من ابنائهم كرهينة (علي بير) الذي سيثور على مالي فيما بعد، ويعتق سنغاي من حكمها.

وبعد أن توقفت الفتوحات، انصب اهتمام خلفاء كانكان موسى وأشهرهم بكاري الثاني على اختراق المحيط الأطلسي، ويقول العمري إن هذه المحاولة التي جرت مرتين بأمر من بكاري وتحت إشرافه كلفت الخزينة كثيرا من الأموال وأكثر من ثلاثمائة سفينة.

وفي هذه الفترة أيضا، ربطت مالي علاقات دبلوماسية نشيطة مع بلدان

---

(1) في هذه الفترة (1324) حج كانكان موسى من أعظم ملوك مالي المعروفين، ومر في طريقه الى الحج بالقاهرة، فانخفضت قيمة الذهب بأسواقها 6٪ وذلك لكثرة ما انفق في شراء الكتب والهدايا والجواري، أما في مكة فقد انفق عشرين الف قطعة من الذهب، وبلغت احمال القوافل التي تجهز الى مالي سنويا من منطقة ورجلان (ورقلة) وحدها اثني عشر الفا. وعند عودة كانكان موسى من حجه اصطحب معه الشاعر المهندس أبا إسحاق إبراهيم الساحلي، الذي يقال انه أدخل الطراز الأندلسي الى مالي ببنائه المساجد في تمبكتو ونياني فدفع له اثني عشر الف مثقال من الذهب. انظر مونتاي، إمبراطوريات مالي ص 20.

المغرب (1) ومصر، كما اتصلت لأول مرة بالبرتغاليين، (2) أما جمهوريات إيطاليا فإنها ما انفكت تطمح الى الاتصال بمالي الغنية عن طريق المغرب ولكنها، لم توفق في الوصول إلى أهدافها بشكل مباشر على ما يبدو (3).

(3) دور الضعف: دخلت مملكة مالي في طور الضعف منذ بداية القرن الخامس عشر، واستمرت تعاني من الاضطرابات التي ما فتىء المتنافسون على العرش من بين أفراد الأسرة الحاكمة يثيرونها، مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الإمبراطورية قبل ذلك، ومع بداية القرن السادس عشر، اقتطعت منها مناطق شاسعة في الشرق والشمال والجنوب فأصبحت عبارة عن مملكة صغيرة بين ممالك جديدة ناشئة في عدة جهات من أراضي الإمبراطورية قبل ذلك (4). وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، تمكنت إحدى تلك الممالك الناشئة وهي مملكة سنغاي أن تبسط نفوذها نهائيا على أراضي الإمبراطورية الشاسعة جميعها، وتقيم على أنقاضها إمبراطورية جديدة، أخذت في البداية عن مالي كثيرا من أنظمتها الإدارية والاجتماعية، ولكنها كانت أكثر منها تفتحا على الخارج، وكان ملوكها في البداية أكثر نشاطا وجرأة على استهداف التطور، فنالت من أسباب القوة والازدهار أكبر مما وصلت إليه مالي، كما سنرى في الفصول القادمة.

(1) ارسل كانكان موسى وفدا ليهنىء سلطان المغرب (ابو الحسن 1331 ـ 1351) حينما انتصر على مملكة تلمسان، وسجل لنا ابن خلدون عدة سفارات مالية قدمت على مراكش، فاستقبلت بحفاوة بالغة، وكانت تحمل معها هدايا من الزراف (ابن خلدون التاريخ جـ 5 ص 144) بيروت 67.

(2) دولافوس (أعالي السنغال) ج 1، ص 80.

(3) في هذه الحقبة قدم التاجر والرحالة الايطالي (مالفانت) بقصد الوصول الى مالي عن طريق توات، ولكنه لم يوفق، فسجل لنا في مذكراته تلهف الجمهوريات الايطالية للاتصال بمالى والتعاون معها، وذلك لما اشتهرت به من غنى وذهب كثير.

(4) يرجع شارل مونتاي (امبراطوريات مالي – ميزو ناف (باريس) (68 م ص 143) أسباب ضعف مالي وسقوطها الى العوامل التالية، ـ استيلاء الطوارق على تمبكتو وجني (وهما من أهم مراكز التجارة في البلاد). 2 ـ خروج بعض المناجم الهامة من يد الحكومة مثل مناجم النحاس في تكدة، 3 ـ التنازع على العرش الذي كلف البلاد كثيرا من المشاق، 4 ـ هجوم قبائل الموسي الوثنية من الجنوب وقبائل الألوف من الغرب وقبائل سنغاي من الشرق والطوارق من الشمال. وهذه تعليلات وجيهة لاعتمادها على الواقع بدون شك، إلا أن ما ذكره ابن بطوطة (الرحلة ـ ص 260) من تفشي سوء الاخلاق بين الموظفين الكبار وخاصة القضاة، يمكن أن يعتبر من بين الاسباب الوجيهة في الموضوع. أما انغماس الحكام في الملذات من جراء الازدهار الذي رأته الامبراطورية وتوافر الاموال بأيديهم كنتيجة لذلك، فهو سبب رئيسي أيضا، لانه أقعدهم عن الاهتمام اللازم بتسيير إمبراطوريتهم كما كان يفعل أسلافهم، وهذا ما جعل حكام الاقاليم يستقلون بنواحيهم، حين ضعفت السلطة المركزية، وبذلك تقلصت حدود الامبراطورية، وتوالت عليها عوامل الضعف حتى سقطت.

4 ـ نظرة على دولة سنغاي قبل الأسيقيين

تأسست دولة سنغاي(1) في القرن السابع الميلادي، واستمرت تقوى باستمرار وتتوسع، حتى القرن السادس عشر، حيث دخلت في طور الضعف نتيجة لانهماك الأمراء المتأخرين في المنازعات العائلية التي أعاقتهم عن الاهتمام بشؤون الدولة وخدمة البلاد، كما كلفت الخزينة مصاريف باهظة، أضعفتها، وقد رافق ذلك انقسام في الآراء والاتجاهات بين السنغائيين، نتجت مباشرة عن ذلك النزاع المستمر على الحكم بين الأساقي، فكان لكل واحد منهم أنصار وأتباع بين أهل سنغاي، فنشأت عوامل التصدع في الرأي، وكان ذلك من أبرز مظاهر الضعف الذي استمر ينخر في جسم المملكة ويسير بها نحو الهاوية، حتى نهاية القرن السادس عشر، حيث انتهى وجودها بحملة المغاربة على البلاد سنة 1591.

وقد أصبحت مدينة غاو هي العاصمة منذ القرن الحادي عشر فقط (1009 للميلاد) أما قبل ذلك فقد كانت العاصمة هي مدينة كوكيا على نهر النيجر الأدنى بين غاو الحالية وتيلا بيري، وهي لا تبعد عن غاو سوى بحوالي مائة وخمسين كيلومترا الى جهة الجنوب. وقد حكمت سنغاي في البداية عائلة ضياء، وهي عائلة يظن أنها قدمت من منطقة طرابلس الحالية وفيها كانت تتزعم قبائل لمته وهوارة، ثم انتقلت هذه القبائل وسكنت جهات النيجر في زمن قديم، ومنها انحدرت عائلة ضياء هذه وهي التي حكمت سنغاي حتى عام 1335 (2).

ثم انتقل الحكم بعدها إلى عائلة سني التي حكمت بين 1335 و1493. وعائلة سني هي فرع من عائلة ضياء الأمازيغية الطرابلسية، السابقة الذكر، وقد تولت الحكم عندما استقل بسنغاي علي كلن في عام 1335 وفصلها عن مالي، إذ أن إمبراطورية مالي في أيام توسعها كان سلطانها قد شمل بلاد سنغاي منذ سنة

(1) نسبة الى قبيلة سنغاي، وهي قبيلة كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الاستوائية في سنوات الميلاد، ثم أخذت تنتقل الى الشمال مع النيجر، وفي القرن السابع الميلادي كانت تمتد مساكنها حول النيجر بحوالي 150 كلم. وتمتهن صيد الأسماك وزراعة الدخان، وفي هذا الوقت بدأ انتظام شعبها تحت سلطة واحدة. أما الآن فان السنغائيين يبلغ تعدادهم حوالي 650000 نسمة، ويتوزعون بين جمهورية النيجر ومالي، في المناطق المحيطة بغاو، وتوجد أقليات منهم في أغدس وتمبكتو وجني وهناك أقلية ضئيلة منهم في شمال الداهومي أيضا.

(2) كورنوفان ص 204.

1325، فلما كانت سنة 1335 استقل علي كلن هذا بسنغاي عن مالي تحت اسم سني علي (1) وكان قبل ذلك يعيش في قصر إمبراطور مالي، حيث أنه كان قد أخذ كرهينة، فكان ذلك دليلا ماديا على خضوع أسرة ضياء لسلطان مالي على عاداتهم في ذلك الوقت.

وسني علي هذا الذي جاء بآل سني إلى الحكم هو ابن ضياء أسيباي آخر أمراء سنغاي قبل آل سني.

وقد حكم من أسرة سني ثمانية عشر أميرا. منهم، 1 ـ علي كلن، 2 ـ سليمان نار، 3 ـ ابراهيم كاباي، 4 ـ عثمان كانافا، 5 ـ باري كينا، 6 ـ محمد دع، 7 ـ محمد كونيجيا، 8 ـ محمد فاري، 9 ـ كاربيفو، 10 ـ مارفي كول، 11 ـ ماري هاي، 12 ـ ماردانو، 13 ـ سليمان دام، 14 ـ علي بير، 15 ـ باري دع.

ومنذ عهد علي بير (الكبير) الذي حكم البلاد بين 1465 و1492 دخلت سنغاي في طور الإمبراطورية، حيث وسع الملك حدود دولته على حساب القبائل المجاورة.

ثم اتسعت إمبراطورية سنغاي أكثر خلال عهد الأسقيا الحاج محمد الكبير الذي أنهى حكم آل سني بثورة قام بها عقب وفاة سني علي مباشرة سنة 1493.

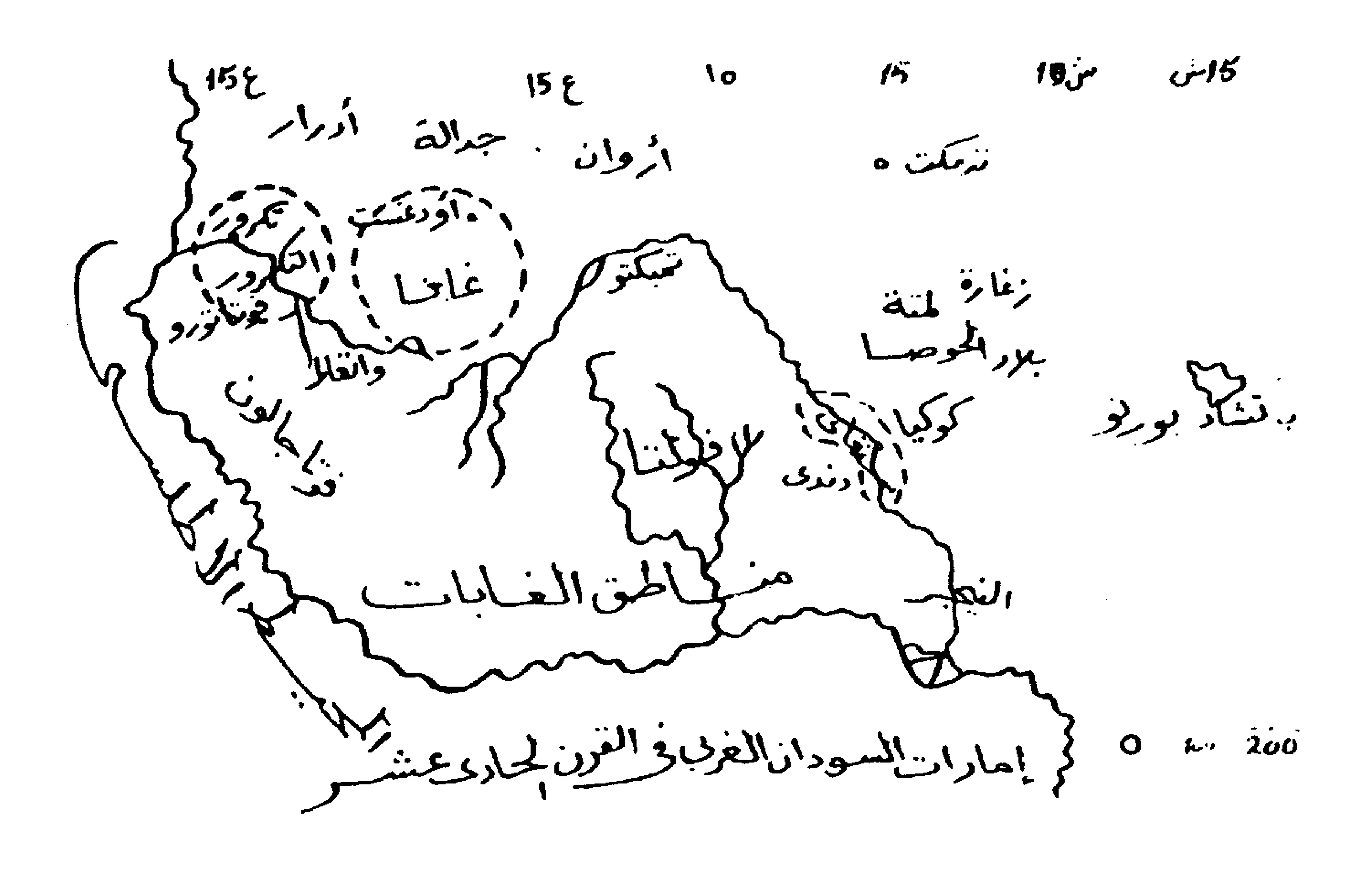
ويعتبر تسلم الأسقيا محمد عرش سنغاي بداية عهد انتظام المملكة وبداية حكم التكروريين (2) في البلاد، ولذا فقد اقترن ذلك الحادث بفرح عم غالبية سكان بلاد سنغاي.

---

(1) تدعي هذه العائلة بلسان سنغاي (أيون) أما لفظة سني فقد أطلقها عدد من المؤرخين الذين كانوا قد كتبوا بالعربية تاريخ البلاد، ثم شاع استعمالها لدى غيرهم، ولا ندري كيف جاءت هذه التسمية، اذ ان هناك فروقا بين لفظة أيون وسني، رغم امكانيات التقارب بينهما في النطق.

(2) كلمة التكرور، أصل اطلاقها كان على منطقة السنغال الشرقية حاليا، ربما من أيام المرابطين ثم عم إطلاقها ـ خارج بلاد السودان ـ على السودان الغربي كله.

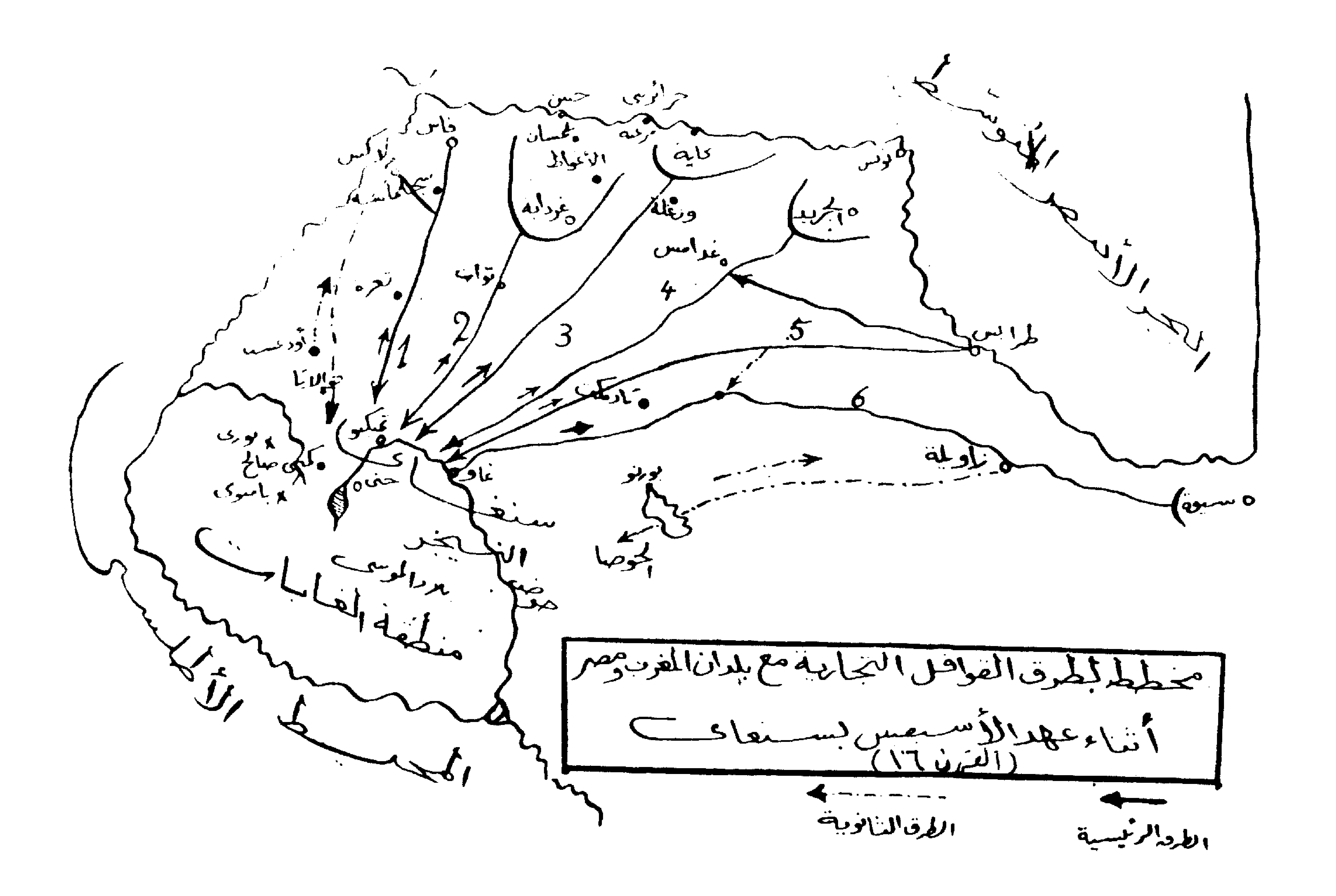
وأصل الاساقي من السراكولين الذين كانوا قد هربوا أمام الغزو المرابطي في القرن الحادي عشر من جنوب موريطانيا الحالية (منطقة الحوض). ثم تفرقوا في جهات عديدة من السودان الغربي على ان جلهم تركز حول نهر النيجر واختلط بقبائله.



جدالة
تدمكت
تكرور
أودغست
غانا
تمبكتو
زغارة
بلاد الحوصا
كوكيا
تشاد
بورنو
النيجر
مناطق الغابات
إمارات السودان الغربي في القرن الحادي عشر



أروان
تدمكة
تمبكتو
جني
تكرور
الحوصا
بورنو
تشاد
مناطق الغابات
ممالك السودان الغربي في القرن الرابع عشر
بالأميال



مخطط الطرق القوافل التجارية مع بلدان المغرب ومصر
أثناء عهد الأسقيين لسنغاي
(القرن ١٦)
الطرق الرئيسية
الطرق الثانوية
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
منطقة الغابات
النيجر
سنغاي
طرابلس
تونس
غدامس
ورقلة
توات
تمبكتو
غاو
زاوله
سيوة
1
2
3
4
5
6

لقــد حرص ملوك سنغـاي على تمكـين شعبهم من الاسـلام والثقـافـة الاسـلامية وأصبحت البلاد في عهدهم ذات ارتباطات وثيقة بالعالم الاسلامي وخـاصة بلدان المغرب ومصر والحجاز. وفي سنة 1591 غزاها سلطان المغرب مولاي أحمد الذهبي، فبدأ حكم العسكريين المغاربة المعروفين بـ(اللأرْمَا) ثم ما لبث هؤلاء أن اندمجوا في السكان وكادت تنقطع صلتهم الرسمية بالحكم المغربي وقد خلفتهم في القرن السابع عشر أسرة (الشوسو) الزنجية التي امتد حكمها على تلك البلدان، وتعتبر نهاية حكم آل سنغاي بداية مرحلة الانحطاط في كل بلدان الساحل. وفي عهدهم كان هناك عاصمتان: عاصمة إدارية هي (غاو) وعاصمة علمية هي تمبكتو التي كان لها دور كبير (كما سنرى فيها بعد) في نشر الثقافة العربية الاسلامية بالسودان.

4 ـ مملكة الكانم بورنو

في المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد ونهر الكانوري والتي تشملها اليوم جمهورية تشـاد وقسـما من شمال نيجيريا، قامت مملكة الكانم بورنو، وقد شكلها شعب (بولالا) قبل مجيء الاسلام، وقد ابتدأ وصول الاسلام الى هذه المنطقة في وقت مبكر، وفي القرن العاشر الميلادي كانت هذه المملكة قد أسلمت كليا (1)

ينسب ملوك بورنو انفسهم الى سيف بن ذي يزن اليمني، وتختلط بسكانها قبائل عربية من أهمها قبائل بني سليمان والشوا الذين نزحوا في وقت لاحق إلى هذه البلاد، كما أن قبائل الزغاوي الذين يرجع الرواة اليهم أصل تأسيس النواة الاولى لإمارة الكانم قبل اتحادها مع إمارة البورنو ربما يكونون قد هاجروا من منطقة فزان في الجمهورية الليبية حاليا (2). ويبدو أن منطقة الكانوري وبحيرة تشاد كانت من القديم ملتقى امتزاج سكاني متنوع ولذلك نتج عن هذه الوضعية في معظم العصور حروب متوالية(3) وقد دخلت مملكة الكانم بورنو فترة التوسع والقوة في أيام السلطان عبد الجليل سيما (1195 ـ 1220) الذي قام بفتوحات متوالية لإبنه روناما الاول (1221 ـ 1259) فامتد نفوذه الى كل من فزان ووضّاي.

---

(1) CF. 1 Encyclopedea of Islam, Leiden 1975, P. 540 FF.
(2) Ibid.
(3) CF.Ibid. 541

وبعد فترة من الاضطرابات نتيجة للتنافس على الحكم بين أفراد الأسرة المالكة ومناوئيهم من القبائل الأخرى، استقرت أوضاع هذه المملكة من جديد على أيام السلطان علي روناما (1472 ـ 1504) وابنه ادريس (1504 ـ 1526) ـ وكان من أشهر السلاطين الذين خاضوا معارك طاحنة في سبيل القضاء على الاضطرابات وتثبيت السلطة هو ادريس علومة (1571 ـ 1603).

ويمتاز تاريخ مملكة الكانم بورنو عن بقية الممالك الاسلامية الاخرى في الغـرب الافـريقي بالاستمـرارية فحتى نهاية القرن التاسع عشر حينما احتلها الفرنسيون ظل يتوالى على حكمها أمراء اشتهروا بالعلم وقوة الشخصية من أمثال محمـود الأمين الكانمي وأبنائه الذين اتخذوا من مدينة كوكوا عاصمة لمملكتهم وعملوا على تقـويتها حتى داهمها الاحتلال الفرنسي بعد أن اجتاح كل الممالك الاخرى في المنطقة الى الغرب.

تجارة القوافل مع العالم العربي
موادها وطرقها وفوائدها

لعبت الصحـراء الافـريقية الكبرى في تاريخ افريقيا الغربية ما لم يلعبه المحيط الاطلسي، من الأدوار الحضارية الهامة، فقد كانت مسارب الصحراء الى غربي افريقيا خلال العصر الوسيط بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتـوسط والحضارة الاسلامية بعد ذلك، الى افريقيا جنوب الصحراء عموما وافريقيا الغربية بصورة أخص، وقد استمر هذا التوارد للحضارة الى غربي افريقيا خلال فترة طويلة من العصور الحديثة أيضا وطوال هذه الفترة كانت مياه المحيط الأطلسي لا تأتي لغرب افريقيا بشيء من الحضارة، أما خلال العصور الحديثة فقد جلبت اليها العديد من النخاسين الذين أحالوا الحياة في وجه السكان على الشواطىء الى جحيم لا يطاق، وكانوا طلائع المستعمرين الذين لم يكتفوا بصيد البشر والمتاجرة بهم الى خارج افريقيا، وانما استولوا بعدهم على المنطقة كلها بما فيها من بشر وحيوانات وأرض ونباتات، واستغلوها أفضع استغلال عرفته في حياتها الطويلة.

والحقيقـة أن قبـائـل السودان الغربي قد اتصلت منذ القديم مع سكان الشمال الافريقي شمال الصحراء، ولم تكن الصحراء في يوم من الايام تشكل عائقا دون الاتصال الحضاري المثمر بينهما وكانت الأسس الأولى المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل المنتوجات والبضائع وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية

بشكل واسع . وكانت التجارة بهذه الصورة تخدم مصالح الطرفين وتشكل عاملا للتطور كاف مهمّا لكل منهما (1) .

كانت التجارة تتم عن طريق القوافل، ويقدم ابن خلدون في تاريخه أن القوافل التي كانت تمر على أيامه (أواخر القرن الرابع عشر) بالهقار كان عدد جمالها يبلغ اثني عشر ألف جمل في أحيان كثيرة وهذا يعطينا صورة عن كثرة البضائع التي كانت تنقلها هذه القوافل، وعن مقدار الربح الذي كان يحصل عليه التجار من أسفارهم الى السودان الغربي، كما يقرب من أذهاننا الصورة الحقيقية لكثرة التجار العاملين بين السودان الغربي وشمالي افريقيا (2) .

ويبدو أن هناك مدنا كثيرة نشأت على طريق القوافل بين السودان الغربي وشمالي افريقيا لخدمة التجار وبأثر من التجارة، نذكر منها على سبيل المثال سجلماسة وورقلة وغدامس وتوات وزالة وتادمكة ووالاتا وغيرها، وكان للتجار في هذه المراكز وكلاء وأدلاء وفنادق تؤوى بضائعهم وحضائر لجمالهم(3)، وبفعل هذه التجارة نشأت لدى السكان تقاليد في المعاملة ثابتة فهم يستقبلون القوافل بالترحاب وأحيانا بالدفوف فيستفيدون منها ويتعيشون من تجارتها معهم، (4) أما أهم مراكز التجارة الهامة في السودان فكانت على التوالي، والاتا ـ كمبي صالح ـ تمبكتو ـ غاو ـ وأغدس، وكل هذه المراكز كانت عبارة عن عواصم ثقافية وسياسية في نفس الوقت. ومن هنا فان ازدهار الممالك السودانية في العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة كان قائما على التجارة الى حد كبير، ويتضح لنا ذلك بشكل ملموس من أن سلطان بورنو في سنة 1440 كان قد بعث برسالة الى علماء توات، يشتكي لهم فيها من أن التجار لم يعودوا يقصدون بلاده بأعداد كثيرة، كما كانوا يفعلون في السابق، وقد كانت هذه الفترة من فترات ازدهار التجارة بين السودان الغربي وشمالي افريقيا، ولكن صادف في هذه الفترة أن جالية يهودية سيطرت على مرافق التجارة في توات، وهذا ما دفع الطوارق الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو الى العمل على عدم السماح للتجارة التي يسيطر عليها اليهود من المرور

---

(1) B. MATIP, Heurts et malheurs des rapports Europe et Afrique XVe au XVIIIe, Paris 1960, P. 46.

(2) عبد الرحمان بن خلدون التاريخ ج 6 ص 405 .

(3) انظر رحلة ابن بطوطة ص 43 فما بعد.

(4) Bovill, P. 145.

بأراضيهم، فقل توارد القوافل الى بورنو، فرأت هذه المملكة نقصا في وجود البضائع القادمة من الشمال، ورأت أن موارد المملكة قلت من جراء ضعف التجارة بها، مما دفع السلطان الى مكاتبة علماء توات ووجهائها في ذلك (5).

وقد كان الامراء يستقبلون التجار بحفاوة ويهيئون لهم الأمن ويستدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم في بلاطهم وما ذلك الا للاهمية الاقتصادية والحضارية التي كانت تنتج عن مجيء التجار بأعداد كبيرة الى بلاد السودان، وهذا ما دفع الحسن الوزان المعروف بـ (ليون الافريقي) بعد أن زار سنغاي مرتين الى الاشادة بحنكة السلاطين ودماثة أخلاقهم؛ وبطبيعة الشعب وتقديره للغرباء، وذلك بالرغم من أنه في موضع آخر من مذكراته، يصف سكان تلك البلاد بالغباوة والطيش وقلة الذوق (6).

وقد كانت القوافل التجارية الى السودان الغربي تخترق الصحراء من جميع جوانبها، أما اتجاهها فشمال الى جنوب وبالعكس، وهذا باستثناء الطريق الذي يربط مصر بالمنطقة فان اتجاهه كان غربا الى الشرق وبالعكس، وكانت هذه المسالك الصحراوية عديدة، غير أن المشهور منها ستة (7) هي:

(1) من سجلماسة، ينطلق طريق الى والاتا ومنها الى تمبكتو وجني وغاو.
(2) من تلمسان، يمر هذا الطريق بغرداية وتوات وينتهي الى تمبكتو.

(3) من تكرت وورقلة، ينطلق طريق آخر الى غاو مباشرة، وهذا المسلك يتصل شمالا ببضائع الموانىء الجزائرية الهامة في الشمال، مثل جزائر بني مزغنه وبجاية وسكيكدة وغيرها.

(4) من واحة الجريد في جنوب تونس، ينطلق طريق غالبا ما تمرّ قوافله بورقلة وسوف أو غدامس.

---

(5) Mauny, juives de l'Ouest africaine, P. 360

وقد استقى معلوماته عن (مالفانت) الجنوي الذي قدم الى توات سنة 1447 وأقام بها حوالي سنتين.

(6) ليون الافريقي ج 1 ص 53.

(7) Clerici et Assoi, P. 34

(5) من طرابلس الغرب على الساحل الليبي، ينطلق طريق، يمر بغدامس ويمر فرع منه بفزان وينتهي الى بورنو وغاو.

(6) وينطلق من مصر طريق يمرّ بواحة سيوة وبزاويلة وتادمكة وينتهي الى غاو وتمبكتو . (8)

كانت توجد على طريق هذه القوافل آبار بعضها من النوع الارتوازي وجدت منذ ايام حكم دولة مالي على معظم مناطق السودان الغربي، وقد تحدث عن وجودها العلاّمة ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر فقال، (وفي هذه البلاد الصحراوية الى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك ان البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى، وتطوى جوانبها الى أن يوصل بالحفر الى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس الى أن يرق جرمها ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء فينبعث صاعدا فيفعم البئر، ثم يجري على وجه الارض واديا، ويزعمون أن الماء ربما أعجل سرعة من كل شيء). (9)

وفي موضع آخر يقرر ابن خلدون نفسه أن القوافل التجارية المغربية كانت تنضمّ الى السودان من التلول ومن الامصار، وأن التجارة مع السودان كانت عامة في المغرب على أيامه، بحيث يشترك فيها سكان البوادي وسكان المدن على السواء. (10)

ويقرر في موضع آخر أنه في آخر عهده أي منذ المدة السابقة لقيام دولة سنغاي مباشرة أصبح الطريق القديم وهو الذي يمتد (من ناحية السوس الى والاتن (والاتا) قد أهمل لما صارت الاعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك، ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت (توات) (11)

---

(8) Fage P. 22

(9) ابن خلدون، التاريخ، مجلد 7 ص 119 .

(10) المصدر نفسه ص 120 .

(11) Mauny, le Judaisme, P. 373.

وهكذا يأتي عهد سنغاي وقد أصبحت الطريق الهامة هي التي تمر بتوات وتنطلق منها، وتجهز منها أكبر القوافل التي تقصد السودان من جهة بلدان المغرب العربي وفي هذا العهد أي سنغاي كون التواتيون جالية كبيرة تقطن أهم مدن سنغاي في ذلك العهد، وقد وجدهم المغيلي لما زار مملكة سنغاي 1502 على أيام الأسقيا الحاج محمد الأول، في تمبكتو وغاو يشكلون نسبة كبيرة بين التجار الأجانب والأئمة والفقهاء هناك. (12)

أما بقية الطرق والمسالك، فقد استمرت على عهدها الأول من النشاط، في أيام الأسيقين، (1493 ـ 1591)، ويرجح أنها ازدادت ازدهارا بتوارد البضائع الأوروبية على المغرب أكثر من السابق، لانه في هذه الفترة تمكن التجار الجنويون والبنادقة من اقامة فنادق على السواحل المغربية وخاصة تونس كانت بمثابة مستودعات لبضائعهم يتردد عليها جمع كبير من تجارهم وقناصلهم (13)، وبهذا انضافت لبضائع بلدان المغرب التي كانت تنقل الى السودان كميات من البضائع الأوروبية أكثر من السابق، أما الطريق الشرقي، فقد ازدادت بضائعه عن ذي قبل وتعاظمت حركة قوافله تبعا لذلك، لأن هذه الفترة هي التي بلغت فيها دولة المماليك في مصر درجة قصوى من التعامل مع السودان وكذا كثرة الانتاج.

ولا نشك في أنه حتى بعد احتلال العثمانيين لمصر سنة 1517، وقضائهم على دولة المماليك البرجية، (1383 ـ 1517) قد استمرت القوافل في حركتها السابقة بين مصر والسودان الغربي الذي كانت تسيطر على معظم جهاته آنذاك دولة آل أسقيا.

اذن، فقد بلغت حركة القوافل التجارية أوج قوتها على أيام دولة الأسيقيين وحافظت حكومتهم على التقليد السوداني القديم منذ ايام مملكة غانا في توفير الأمن والاحتفاء بالتجار، ورغم أن بعض مسارب الطريق الغربي قد شاهدت بعض الاضطرابات الا أن ذلك لم يوقف مرور التجار من الغرب، وانما جعلهم يغيرون اتجاههم الى طريق توات، مما أعطى لهذا الطريق عوامل للازدهار أكثر

(12) المصدر نفسه ج 6 ص 118

(13) صلاح العقاد (الدكتور) ص 51

من السابق. أما بقية الطرق فقد رأت ازدهارا أكثر في هذا العهد بكل تأكيد، وذلك لتوافر البضائع وتكاثرها بورود البضائع الأوروبية على أسواق المغرب من جهة، ولازدياد الانتاج في كل من المغرب ومصر، عن العهد السابق.

2 ـ البضائع المتبادلة

كانت أغلب البضائع التي ترد على أسواق افريقيا الغربية تأتي من بلدان المغرب العربي، وهناك قسم يرد عن طريق مصر. وكانت هذه البضائع من الاهمية بحيث ينتج عن ورودها.

1) تنشيط التجارة الداخلية.

2) تغذية الجبايات الحكومية.

3) المساهمة في توفير مجال للتشغيل.

4) ترقية الذوق في الاستهلاك، وحين يتوقف الوارد من البضائع الى الأسواق كان قسم من الناس يضطرون الى الالتجاء إلى جذور الحشائش للتغذي بها، وتحصل المجاعات. (14)

5) المساعدة على إشاعة ظاهرة الأناقة في اللباس، وخاصة بين الطبقات الموسرة، لأنه كان من البضائع التي ترد على الأسواق أنواع المنسوجات من الحرير المعروف بالسوسية وكان القضاة والتجار وغيرهم من الأغنياء يتخذون منه عمائم وجببا للباسهم، ويكفنون به موتاهم، وفي الاوقات التي يتوقف فيها ورود البضائع يضطر هؤلاء الى لباس الاصناف الخشنة من الانتاج المحلي، التي يكونون قد تعودوا غيرها قبل ذلك، بفعل توافرها وقدرة الناس على اثمانها. (15)

وقد كانت البضائع الاجنبية عظيمة الاعتبار لدى الناس، فكانت زيادة

---

(14) تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمؤلف مجهول ص 100.
(15) المصدر نفسه ص 73/74

عن كونها بضائع الاستهلاك العادي للموسرين أثناء توافرها في الاسواق، نفيسة لدرجة انها تشكل في اعتبار الناس هدايا جليلة القيمة و من ذلك مثلا أن الفقيه محمد سعدي بن عبد الله بن عمر جاء من أرض جني لقدح عينيه عند مجيء الطبيب ابراهيم السوسي لمدينة تمبكتو، وكان هذا الطبيب مشهورا بحذقه في معالجة أمراض العينين، وقد سبقته شهرته الى السودان، فتوافد عليه المرضى من كل صقع، وكان من بين من قصدوه الفقيه محمد سعدي، فلما (تسبب له الطبيب المذكور فرّج الله تعالى عنه وأخرجه من ظلمة البصر)، وهذا ما دفع بالفقيه الى اعطاء طبيبه مقادير كبيرة من الذهب، فاهدى اليه الطبيب بدوره (عند رجوعه لوطنه جني أربعين حجرة ملساء وكسوة سوسية فاخرة). (16)

وقد كانت البضائع الأجنبية انما يتمتع بالحصول عليها وتداولها سكان المدن والموسرون منهم بشكل أخص، أما سكان الأرياف والبوادي، فلم يكونوا يعرفون عنها الا قليلا، أو أنهم يشاهدونها باعينهم ولا يستطيعون التمكن من احرازها الا نادرا وذلك لقلة ما بأيديهم من الاموال، ثم لأن التجار انما كانوا يقصدون أسواق المدن، ويعرضون بها بضائعهم، وكان سكان البوادي يذهب قليل منهم فقط لتلك الأسواق وهذا باستثناء القرى الواقعة على مشارف السودان، وهي تقع في الصحراء الجنوبية، فقد كان سكانها يستقبلون قوافل التجار ويعرضون عليهم خدماتهم كأدلة وكمعاونين، فيعطيهم هؤلاء شيئا من مختلف أصناف البضائع التي يحملونها مقابل ذلك، فعرفوها وولعوا بها. (17)

وقد كانت أهم البضائع الأجنبية التي ترد على الأسواق في السودان الغربي هي:

1/ أواني النحاس، قسم منها كان يستعمل للزينة كالأساور والأقراط، وقسم آخر كان في شكل جفان وأوان منزلية جيدة الصنع، والقسم الثالث كان في شكل لوازم للخيل كاللّجام وحلقة القدم من السرج، وهناك قسم منها كان في شكل أقفال وحلق للأبواب. (18)

---

(16) عبد الرحمان السعدي ص 293.
(17) المصدر السابق ص 74؛ وابن بطوطة؛ ص 540.
(18) انظر الحسن الوزاني؛ ص 148.

2) مصنوعات حديدية (خردوات) وأغلبها كان مما يستعمل لتجهيز الخيل كالأزمة والحدب، وقسم منها كان مما يستعمل للحصاد والحرث كالمناجل والسكك، وقسم آخر منها كان حلق الأبواب وقليلا ما كانت تستعمل منها أدوات للزينة. (19)

3) مصنوعات من الزجاج، بعضها كان في شكل فوانيس وكؤوس والبعض الآخر، كان في شكل حبات للسباحات أو كرات صغيرة تدرج في عقود للأعناق أو الأيدي، تتزين بها النساء خاصة، وبعض الرجال أيضا، الذين بقوا يحافظون على بعض التقاليد الشعبية السابقة للاسلام، وهذه كانت غالية الثمن.

4) مقتطعات مرجانية، تتخذ للزينة بشكل خاص، وكانت مرتفعة الثمن أيضا.

5) الودع، كان للودع في السودان اعتبار كبير، ويتخذ في الاسواق كنقود تشبه اوراق البنكنوت عندنا الآن، حيث يعوض بها عن الذهب في البيع والشراء وتقيم بالذهب أيضا، كما انها تتخذ كحلي شائعة للاستعمال بين جميع طبقات المجتمع، ولم يكن الودع يستورد من الشمال فقط وانما يستورد من الجنوب أيضا حيث يذهب تجار السودان لجلبه من القبائل الساكنة على حدود المملكة الجنوبية وهي تتلقاه بدورها من تجار الساحل الغيني. (20)

6) العطور وقد كانت بعض مواردها الاولية مثل المسك والعنبر تجلب من السودان، أما بقية النباتات التي تصنع منها مثل الخزامي، فقد كان يجلب أكثرها من المغرب وقسم من الروائح كان يجلب الى المغرب من إيطاليا، وتحمل العطور الى السودان بأنواعها، فيجني التجار من ورائها أرباحا كبيرة ويقبل السكان على شرائها اقبالا كبيرا، وكانت العطور تستهلك بكثرة في جميع الجهات، وخاصة بين

---

(19) عرف الحديد في السودان الغربي منذ وقت مبكر (أيام غانا)، وتوافر وجوده بالبلاد، مما أفقده صفة الطرافة على ما يبدو، لذلك استعمل قليلا فقط، للزينة (انظر دافيدسون ص 62)، وخاصة في ايام سنغاي.

Assoi et Clerici, P. 34

الطبقات الموسرة والرسمية، حيث لا يظهر الملوك والرؤساء في مجالسهم الا والعطور تفوح من اردافهم، كما أن القضاة والوجهاء كانوا يسيرون في الشوارع أو يقصدون المساجد في روائح قوية، يكونون قد لبسوا ثيابهم واجسامهم بالكثير منها قبل خروجهم للأماكن العامة.

7) التمور، كانت التمور من الأحمال الكبيرة التي تجلب إلى السودان ويأخذها التجار من الواحات الصحراوية العديدة وعلى رأسها واحات تكرت وورقلة وتوات. (21)

8)التين، كان التين المجفف له قيمة استهلاكية في ذلك الوقت أكثر منها الآن، وقد أشار المؤرخون في مناسبات عديدة الى أنه كان من البضائع التي تحمل الى السودان ويجمعه التجار من مختلف أسواق المغرب.

9) المنسوجات القطنية: كانت بلدان المغرب ومصر في هذه الفترة قد ازدهرت بها صناعة النسيج، وكثرت المحايك والحياكون في مختلف المدن والقرى، وكان معظم لباس السودان من المنسوجات القطنية التي يحمل التجار الأجانب معظمها الى الأسواق في تلك البلاد والى مدنها الكبرى، وقد عرف السودانيون في هذه الفترة صناعة الانسجة، وأخذوا طرقها من بلدان المغرب، ولكن انتاجهم كان لا يفي بالحاجة المحلية الا جزئيا، كما أن صناعتهم من هذه المادة قد اقتصرت على بعض المدن الكبيرة فقط، مثل تمبكتو وجني وغاو ووالاتا. (22)

10) المنسوجات الحريرية: كانت المنسوجات التي ترد على أسواق سنغاي في هذه الفترة لحمتها من الحرير الطبيعي، أما سداها فمن القطن، ويعرف هذا النوع بالسوسية، نسبة الى سوس بجنوب المغرب الاقصى، وكان هذا النوع من المنسوجات غالي الثمن، وخاصة اذا كان مصبوغا، أما المنسوجات الحريرية التي كان يجلبها الى أسواق المغرب التجار الأوروبيون، ثم يحملها التجار المغاربة والمصريون الى أسواق السودان بعد ذلك، فقد كانت في معظمها مصبوغة ومتقنة الصنع، وخيوطها في الغالب من واردات الشام الى إيطاليا، ويشير المؤرخون الى

Ibid.

(22) نفس المصدر ص 320.

أنها كانت أغلى أصناف المنسوجات الحريرية في أسواق السودان خلال ذلك العهد. (23)

11) القمح : كان القمح ينتج على النيجر وخاصة في المناطق المحاذية لمستنقعات منحناه الأعلى حول ندي وجني، وكذا في بعض الضيعات الصغيرة قرب غاو، وكان يشكل غذاء للطبقات الموسرة فقط، وقد كان يجلب من المغرب بالدرجة الأولى، وكان يشكل جزءا كبيرا من أحمال القوافل المتوجهة من المغرب الى السودان، ولم تكن الطبقات الشعبية في السودان لتتمكن من الحصول عليه لارتفاع ثمنه غير أن القرى الواقعة عند حافة الصحراء الجنوبية وسكانها في الغالب من الطوارق، كانوا يحصلون على مقادير قليلة منه مقابل خدماتهم التي يقدمونها للتجار اثناء مرورهم بمناطقهم. (24)

12) الملح : كان الملح يشكل احدى المستوردات الرئيسية لبلاد السودان، وكان لا يتوافر هناك، وقد ملكت سنغاي ممالح تغازة في الصحراء الموريطانية حاليا، وكانت هذه المنطقة هي التي تذرع بها المنصور الذهبي في حملته المشهورة على سنغاي، سنة 1591 . ويبدو من أقوال بعض المؤرخين أن الملح كان يشكل أكثر من نصف أحمال القوافل الشمالية إلى بلاد السودان. وكان يشترى في السودان بالذهب، ويباع بمقادير مرتفعة جدا، وكل ما يحمله التجار منه كان ينفذ بسرعة، وقد اختص الملح فكان من البضائع التي تتخذ قطعه نقودا للتعامل في حالات كثيرة. (25)

13) الكتب: كانت الكتب من المستوردات الهامة الى بلاد السودان وكانت مناطق استيرادها الأساسية الى هناك هي بلدان المغرب العربي ومصر، وكانت أثمانها مرتفعة جدا، تزيد عن أثمانها في المغرب بضعف ونصف الضعف تقريبا، وبطريق القوافل التجارية عرفت كل الكتب والمؤلفات المغربية والمشرقية في بلاد السّودان، وقد نشأت في السودان حرفة الوراقين كتقليد لما كان في المغرب

---

(23) Assoi et Clerici P. 34

(24) القلقشندي، ص 291 .

(25) الحسن الوزاني، ص 147

ومصر، وألف السودانيون عدة مؤلفات هامة، ولكن الاستيراد في ميدان الكتاب ظل قائما على نطاق واسع. (26)

14) الخيول: إن بلدان السودان حارة بحيث لا يمكن تربية الخيول بها بأعداد كبيرة، ولذا بقيت الخيول يملكها الموسرون فقط، كما كان الأمر في صحراء جزيرة العرب، وبقيت الخيول لذلك غالية الثمن، وعزيزا الحصول عليها وكان التجار يقودون معهم أعدادا قليلة منها الى بلاد السودان، ويفقدون في طريقهم الشاق قسما هاما منها، ولا يصلون الا بجزء فقط مما أخذوا معهم منها وبالطبع فانهم كانوا يبيعون ما يصلون به بأثمان براعون فيها أرباحهم، وتعويض ما فقد لهم من الرؤوس الأخرى في الطريق مما كان يجعل أثمانها مرتفعة وامتلاكها يقتصر على الخاصة دون سواهم في الغالب. (27)

15) الجلود المدبوغة: كانت بلاد السودان تصدر الجلود، ولكنها تقبل على شراء الجلود المدبوغة التي كان يحملها التجار من بلدان المغرب حيث تصنع منها السروج وتغلف بها أغماد السيوف، كما يصنعون منها كنانات وأجرجة يطرزونها بأسلاك الذهب، ويصنعون منها نعالا للسادة الكبار وللنساء الحرائر. (28)

16) الأصبغة: كانت الأصباغ، وخاصة الأرجوانية و الوردية منها غالية الثمن في العالم كله خلال هذا العهد، وكان التجار يأخذون مقادير ضئيلة منها الى بلاد السودان ولكنهم يبيعونها بأثمان مرتفعة، وتقبل الطبقات الغنية في المجتمع السوداني على شرائها بكثرة، هذا بالرغم من أن الشبّ الذي كان يشكل أحد العناصر الأساسية في صنعها كان يجلب من السودان مقدار هام منه الى بلدان المغرب. (29)

17) الحلي: كانت الحلي التي تحمل الى بلاد السودان تصنع من النحاس أو من الفضة المشوبة بالذهب، وبعضها الآخر كان يصنع من الذهب الخالص

---

(26) نفس المصدر، ص 148.

(27) يذكر كعت في هذا الصدد (أن والي تمبكتو كان يصطفي فرسا من أحسن ما يراد على مدينته، فيختص به) ص 74.

(28) Bovill, P. 145.

(29) L. Gayet. Histoire du Commerce, Paris 1953, T. 3, P. 62

الـذي يجلب معظمه من بلاد السودان، وكل أنواع الحلي التي تستورد الى بلاد السودان كانت تطعم بالعقيق أو بحبات الزجاج الملون، وقد اشتهر عن المجتمع السـوداني في هذه الفـترة ولعـه بأصناف الحلي سواء منها القلائد أو الأقراط أو الأساور، ولذا فقد كان التجار يحرصون على أخذ مقادير هامة منها، ويجنون من ورائها الربح الكثير. (30)

اذن، فقد كانت ممالك السودان الغربي متصلة اتصالا وثيقا بكل منتجات حوض البحر الأبيض المتوسط، التي كانت حتى هذه الفترة، تحتل مركز الصدارة للبلدان الواقعة على شواطئه، فيما يخص جودة الانتاج وكثرته في آن واحد، ولكن لم تكن بلاد السودان مستهلكة فقط، وانما كانت مصدرة أيضا. (31) وكان من أهم صادراتها:

1) الذهب بالدرجة الأولى، وكان الذهب يشكل المادة الأساسية، لهذه الحركة التجارية الواسعة بين العالم الخارجي والسودان الغربي، وقد كان التجار يعودون من السودان محملين بالذهب أكياسا أكياسا وهذا ما كان يدفعهم على تحمل المشاق وقطع المراحل الطويلة الشاقة في الصحراء، فيقطعون مسافة تقدر بشهرين بين المغرب والسودان الغربي.

أما بين المغرب ومصر فقد كانت المدة التي يقضونها في الترحال أكثر من ذلك (32)، وقد كان الذهب الذي يحمل من السودان يغذي المغرب وجنوب أوروبـا في آن واحـد من هذه المـادة، حيث أن البضـائع التي يوصلها التجار الأوروبيون الى السواحل الافريقية، كان يحمل منها قدر غير يسير الى السودان، أما التجار الأوروبيون فكانوا في الغالب يأخذون بدلها ذهبا، وأما التجار المغاربة فقد كانوا يحملون مقابل بضائعهم ذهبا ايضا، ويظهر أن السودانيين كانوا قد انتبهوا منذ القديم الى أهمية ذهبهم في العالم، وهذا يظهر في الجواب الذي صرح به السلطان كانكان موسى حين زار مصر في طريقه الى الحج (خلال القرن الرابع

---

(30) مجالس السلطان الغوري ـ القاهرة 1961 ص 85.

(31) Bovill, P. 145F.

(32) تاريخ الدولة السعدية ـ لمؤلف مجهول ص 60 والسلاوي، الاستقصاء ج 5، 74 وأحمد بابا، نيل السعود ـ ورقة 23.

عشر) فقد طلب منه السلطان الغوري أن يسجد أمامه لما استقبله هذا الأخير في القلعة، وأقام له احتفالا بتلك المناسبة، فكان جوابه (اننا مالكو الذهب، ولا نسجد لغير الله لأننا مسلمون). (33)

2) العبيد، كانت أسواق النخاسة العالمية خلال هذه الفترة على غاية من النشاط، وكانت أسواق السودان عامرة بالعدد الكبير من العبيد، في مختلف الأعمار، وكانت أثمانهم منخفضة في السودان عنها في العالم الخارجي، ولذا كان التجار يعودون بأعداد كبيرة منهم، ويبيعونهم في أسواق المغرب ومصر وعلى السواحل الى التجار الأوروبيين الذين يحملون أعدادا هامة منهم الى الجانب الآخر من المتوسط. (34)

وكان معظم العبيد الذين يباعون في الأسواق السودانية يجلبون من مناطق الغابات الجنوبية الوثنية التي كانت تقطنها قبائل (الموسي). (35) الا أن أعدادا كبيرة من بينهم أيضا كانت من ممتلكات السودان العادية، وكان التجار يستعملون حيلا في بيعهم فيزعمون أنهم غير مسلمين، ويجبرونهم على الزعم بكونهم من غير المسلمين، فيما اذا سألهم من يريد أن يقبل على شرائهم في الأسواق الاسلامية. (36)

3)ريش النعام: كان لريش النعام رواج كبير في الاسواق، وعليه اقبال كبير كذلك، حيث أنه كانت تحشى به الأرائك والمخاد في البيوتات والقاعات كما كانت تتخذ منه الطبقات الموسرة مراوح للتهوئة أو للزينة ولذا فقد كان التجار يجلبون منه مقادير هامة أثناء رجوعهم من السودان وكان التجار المحليون والوكلاء والوسطاء يعملون على تهيئة وجمع ما يتيسر لهم منه، لكي يبادلوه بالبضائع التي تحملها القوافل من الخارج.

4) بيض النعام: كان بيض النعام يتخذ من محه أحد العناصر الهامة في تركيب الأدوية، كما كان يوضع فوق المناضد أو يعلق على حيطان القاعات للزينة،

---

(33) مجالس السلطان الغوري ص 83 فما بعد.

(34) Assoi et Clérici, P; 34
(35) Ibid.

(36) معراج السعود

ولذا كان التجار يجلبون منه ما تيسر لهم، وكانت أثمانه في الأسواق الخارجية مرتفعة.

5) التوابل (البهارات): كانت هذه المواد تأتي الى بلاد السودان من مناطق الغابات في الجنوب وكان التجار المحليون يذهبون الى هناك لجلبها كما كان التجار المحليون في تلك المناطق يحملون قسما منها الى بلاد الساحل السوداني، وكانت أصناف التوابل العديدة لا تزال تشكل في تلك الفترة مادة رفوف الصيدليات في كل أنحاء العالم، وتتكون منها جميع العقاقير التي تحتويها وصفات الأطباء ومؤلفاتهم، وكانت اثمانها مرتفعة جدا، كما كان الاقبال عليها شديدا كذلك، وكانت مواطنها الأساسية هي جنوب آسيا حيث المناطق المدارية الاستوائية وكذلك إفريقيا، أما أمريكا الجنوبية فلا تزال في ذلك العهد في طور الاكتشاف، وقد كان التجار الذين يقصدون بلاد السودان يحملون منها ما استطاعوا ويربحون من ورائها أرباحا وفيرة.

وهكذا، كانت بلاد السودان الغربي بواسطة تجارتها الخارجية النشيطة تأخذ من العالم وتعطيه وقد تمكنت من ذلك لأنه كان في التعامل معها من الفوائد ما شجع التجار الأجانب على المجيء اليها بكثرة رغم ما كانوا يتحملونه من المشاق، أما السودان فقد استفادت من ذلك في أن تصريف منتوجاتها كان لايعرف الركود، ولعل أهم من ذلك كله أن ميدان التجارة الخارجية كان يشكل طريق اتصالها بالعالم الخارجي، وقد جلب اليها ذلك، في ميدان الازدهار الحضاري، عظيم الفوائد.

○

السودان الغربي
في كتاب العلامة ابن خلدون
(نظرة للمقارنة)

عاش أبوزيد عبد الرحمان بن خلدون في فترة تعرف لدى المؤرخين بفترة الانحطاط في تاريخ المسلمين أو هي بدايتها، وهم يستشهدون على ذلك بعدة أمور منها الانقسام السياسي والركود الحضاري، وانتشار الثقافة اللفظية على حساب الثقافة العلمية (1)، ومع ذلك كان ابن خلدون ينفرد بأسلوبه الذي تغزر معانيه عن ألفاظه، وهو ينظر من حوله الى الاشياء بعين الحاذق الناقد والمفكر اللامع، فكان بذلك من آخر الشرارات التي رأتها نهضة المسلمين العلمية عند آخر العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة: هذه العصور التي انقلبت فيها الاوضاع بصورة تدريجية ولكنها كانت سريعة نسبيا، فتكونت الجذور الأولى للعالم الثالث الذي نعرفه الآن، وأصبح ما كان عالما ثالثا عالما متطورا ناهضا.

ولا تهمنا هنا قضية اختراع ابن خلدون لعلم الاجتماع، ولا مقارنة ذلك بما توصل اليه أوغست كونت ولا بما ينفرد به ابن خلدون من الكتابة في تاريخ البربر والعرب بالمغرب مما لم يسبقه ولا ينافسه أحد قبله فيما نعلم، (2) ويهمنا ما كان

(1) من امثلة ذلك ان أحد الامراء كتب الى أحد القضاة فعزله بقوله: (ايها القاضي بقم قد عزلناك فقم)، وقد فعل ذلك احتراما لمتطلبات الاسلوب الرجزي في الكتابة لا غير، وقم: هي مدينة الى الجنوب الشرقي من طهران. راجع الأب شيخو اليسوعي، تاريخ الادب العربي (الفصل الخاص بعصر الانحطاط).

(2) L. Cumplovicz, Un sociologiste arabe au XIV siècle, Paris 1912, PP. 201-226

لافريقيا السوداء من مكانة خاصة في كتابات ابن خلدون وقد سبقه الى ذلك أبو عبد الله البكري منذ القرن الحادي عشر ثم تبعه آخرون وكان من أشهرهم ابن حوقل والمسعودي بصورة خاصة وهنا ينفرد أيضا ابن خلدون بالنظر إلى الأشياء في غاية التبصر فهو ينتقد المسعودي وغيره انتقادا لاذعا في تفسيرهم لأخلاق السود تفسيرا غير علمي في نظره فيقول:

* (وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله، فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحاق الكندي أن ذلك لضعف ادمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم، وهذا كلام لا محصّل له ولا برهان فيه، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم). (3) أما هو فقد فسّر ظاهرة الطيش، وكانت تعني لديه، ظاهرة الرقص والبساطة في التصرف بالدرجة الأولى، تفسيرا يستند الى المناخ الحار واثره على نفوس السكان وعقولهم. (4)

والجدير بالذكر هنا أن الأثر المناخي على الأمزجة واللون الذي اهتدى اليه ابن خلدون أثناء حديثه عن السودانيين سيكون له اثره في كتابات العلماء السودانيين فيما بعد. (5)

ومن الوقائع الافريقية السوداء أيضا في كتابات ابن خلدون تعرضه بتفصيل غير مخلّ الى مملكة مالي وملوكها.(6) وينفرد ابن خلدون بين المؤرخين العرب القدماء بالحديث عن ورقلة واهميتها في تجارة القوافل، فيقول: (وهذا البلد (وركلا) لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب الى المفازة الصحراوية المفضية الى بلاد السودان يسلكها التجار الداخلون اليها بالبضائع)... الى آخر ما قال في هذا الشأن. (7)

---

(3) ابن خلدون ـ التاريخ ـ طبعة بيروت 1967 ـ جـ 1 ص: 149 ـ 150
(4) المصدر نفسه
(5) انظر أحمد بابا ـ نيل السعود الى حكم مجلوب السود ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5931 ورقة 3.
(6) ابن خلدون ـ ج 6، ص 409 ـ 419.
(7) المصدر نفسه ج ـ 7 ص 107، قارن ايضا ـ د عبد القادر زبادية «وركلة عروس مدائن الجنوب» مجلة الاصالة (عدد خاص) الجزائر 1 مارس 1977.

وينفرد ابن خلدون أيضا بتحديد عدد رحلات القوافل التي كانت تجتاز الصحراء الى مالي قادمة من المشرق، فيقول: (ولقيت رسول صاحب تكدة عند يوسف بن مزني أمير بسكرة. . . قال لي: اجتاز بنا في هذا العام سفر من تجار المشرق الى بلد مالي، كانت ركابهم اثنتي عشرة راحلة، وذكر لي غيره أن ذلك هو الشأن في كل سنة). (8)

وفي تعيين ابن خلدون لنقطة تجمع الحجيج السودانيين من غرب افريقيا السوداء انطلاقا من تكدة مالم يسبقه أحد اليه أيضا، فيقول: و على عشرين مرحلة من هذا (المصر في) القبلة منحرفا الى الغرب بيسير بلد تكدة قاعدة وطن الملثمين وركاب الحاج من السودان. * (9)

ولابن خلدون كذلك انفرادات أخرى أثناء حديثه عن أيام الفتوحات الأولى ووصولها الى السودانيين وكذلك حديثه عن بلاد الزنج وبلاد الحبشة وكورة وضّان وغيرها مما يستلزم الدّراسة والمقارنة مع بقية المؤرخين الذين كتبوا عن افريقيا السّوداء قبل ابن خلدون وفي عصره، ومثل هذه الدراسة المفصلة سيكون فيها من الجدة والمساهمة العلمية ما يثبت طول باع الرجل في الكتابة التاريخية - الاجتماعية وشخصيته اللامعة بين أقرانه وتفوقه عليهم في كثير من الوقائع، وذلك كلّه من شيم العباقرة الذين يستحقون التخليد والاحتفال بمآثرهم.

حملة المنصور وظروفها

يبدو أنه بالرغم من العلاقات التجارية الواسعة التي كانت في العصر الوسيط قائمة بين بلدان السودان وبلدان المغرب العربي، فان بلاد السودان لم تكن معروفة معرفة جيدة لدى الساسة ورجال الحكم في بلدان المغرب العربي، وذلك لأن التجارة مع السودان كان يقوم بها أشخاص لحسابهم الخاص، ويتحملون وراءها المشاق الكثيرة، وقد كتب بعضهم مشاهداته، ولكن أعمالهم

---

(8) ابن خلدون، المصدر السابق.

(9) ابن خلدون، ج. 7. ص 107، لمعرفة التفاصيل عن طريق الحجيج من افريقيا السوداء الغربية راجع: Umar Al-NAQAR, The pilgrimage tradition in west Africa, Khartoum, 1972.

في هذا الصدد كانت شخصية بحتة، ومن هنا اختلفت وجهات نظرهم في الكثير من المواضيع، (10) أما رجال الدولة فلم يكونوا ليعرفوا عن بلاد السودان أكثر مما يتناقله التجار بصورة عفوية، ومما يؤكد هذه الحقيقة أن حملة المنصور لم تأت بأية نتيجة مما كان يتمنى وبعد أن أدرك أخيرا أن الأهداف التي كان يسعى لبلوغها، لاطائل من ورائها كما كان يتصور من قبل، نراه يهمل شأن السودان تخلصا من المشاكل التي نجمت عن عمله العسكري في تلك البلاد، دون أن يحصل منها على هدف مفيد.

ولقد سبقت حملة المنصور على بلاد السودان حملات أخرى مما يدل على أن السعديين كانوا ـ منذ عهد مبكر ـ يطمحون الى بسط نفوذهم على بلاد السودان الغربي، ليمتلكوا ثرواته الخيالية من الذهب، ففي آخر أيام الأسقيا اسحاق الأول (1539 ـ 1549) أرسل له السلطان مولاي أحمد الأعرج رسالة شديدة اللهجة، يدعوه فيها الى تسليم مناجم تغازة للمغاربة، وقد بهت الأسقيا من هذا المسعى، ولكنه عمد الى اظهار تصلبه أمام السلطان فبادر الى بعث حملة عسكرية من المهرية (11)، الطوارق فخربت قرية (الذراع) التي هي من أملاك مولاي الاعرج، ولكنها كانت تحمل تعليمات مشددة بألّا تقتل أحدا، وذلك لأن الغرض منها كان اظهار القوة وليس القيام بعمل عسكري، ولذا فليس من الجائز الاعتقاد بحصول ضحايا كنتيجة لأعمالها.

أما في عهد السلطان محمد الكبير، وهو الذي خلف مولاي الأعرج على العرش المغربي، فقد كلف أحد المغاربة بقتل مأمور الضرائب من طرف الأسقيا في تغزّة.

وقد تسبب هذا الحادث في حدوث بعض الاضطرابات في المنطقة ويقال أن وفدا من الطوارق الذين كانوا يقومون بحمل الملح على جمالهم الى الجنوب،

---

(10) يقول الحسن الوزاني (ليون الافريقي): ((ان مؤرخينا القدماء (اي الذين سبقوه) الذين كتبوا عن افريقيا أمثال البكري والمسعودي، لا يعرفون شيئا عن بلاد الزنوج ماعدا منطقتي كوكوا وكانو)). أنظر بوفيل ص 56.

(11) نسبة لعبارة (المهري) وهي تعني نوعا من الجمال السريعة العدو، والمعدة للركوب خاصّة، وقطع المسافات الطويلة بسرعة قد تتجاوز 30 كيلو في الساعة أحيانا.

طلب من الأسقيا أن يأمر بالتنقيب في منطقة تقع الى الجنوب من المالح السابقة الذكر.

وقد بدىء فعلا في عام 1562 بالتنقيب في محلة تغزّة ـ الغزلان ولا يهمنا هنا مقدار المردود، ولكن يهمنا أن ندرك بأن قضية امتلاك مناطق الملح على حافة الصحراء الجنوبية، كانت قبل عهد مولاي المنصور الذهبي قد وقع عليها التنافس بين المغاربة والأسيقيين، (12) ولا نعتقد بأن طموح المغاربة للاستيلاء عليها كان لأهميتها في حد ذاتها بقدر ما كان لغاية التحكم في مصدر التجارة الأول مع السودان لجلب الذهب، وقد أدت هذه المنافسة الى تنظيم الهجوم المغربي على سنغاي واحتلالها من قبل جيوش المنصور.

لقد صعد المنصور الى الحكم سنة 1577، وكان لا يزال شابا نشيطا وطموحا فنظم المملكة بالقوة وقضى على الفتن، وساد البلاد الأمن والاستقرار على أيامه، فكان عهده من أزهى أيام السعديين بالمغرب، وكان من أهم انجازاته تنظيم الجيش المغربي وتزويده بأحدث أساليب القتال على أيامه، فقلّد الأتراك والبرتغاليين، وكان ينفق على أفراد جيشه بسخاء حتى يتم اخلاصهم له.

يبدو أن نجاح المنصور في تسليح جيشه قد شجّعه على الا يتأخر بارسال الحملة الاستكشافية الاولى، وبما انه كان لا يعرف البلاد جيدا ويجهل المكان الذي توافرت الروايات على انه غابة كثيفة توجد بها معادن الذهب، فقد سارت تلك الحملة على غير هدى ورجعت دون نتيجة.

كانت تلك الحملة الاولى تتكـون من عشرين ألف محارب (13) وقد اعطاها المنصور كهدف أول وضّان في منطقة الحوض الحالية ثم مجرى السنغال ومنه تصعد نحو الشرق حتى تمبكتو.

---

(12) يظهر ان المالح كانت على ايام مالي الأخيرة لاسلطة لأحد عليها، فعندما مر ابن بطوطة بها (القرن الرابع عشر) وجد أن ملكيتها بيد قبيلة مسوفة المحلية، ولكن في ايام الاساقي بذل هؤلاء جهدهم في امتلاكها على ما يظهر فاصبحت املاكا اميرية، يقول أحمد بابا في مخطوط له بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 5259 الورقة 19: ما نصه ((ولهم (اي ملوك السودان على أيامه) التغلب على بلد الصحراء الى فزان)).

(13) انظر لاكور، ص 49.

ولكن هذه الحملة كانت سيئـة التنظيم وغير موفورة التموين الكافي لمدة طويلة ولذلك لم تستطع قطع الصحراء، ونالت منها المجاعة والعطش، فرجعت الى المغرب.

ولما رأى المنصور أن ارسال الجيش لأهداف غير مضبوطة سلفا غير مفيد، كما ان الاكثار من عدد الجنود في فترة الاستكشاف لا مبرر له، غيّر طريقته، ولكنه لم يتخل عن مشروعه. فارسل حملة ثانية تتركب من مائتي فارس فقط، سلاحهم البنادق، وعين لهم هدفا محدّدا وهو تغزة بذاتها.

وقـد تمكنت هذه الحملة من احتـلال المنجم، اما السكان فقد استولى عليهم الـرعب، فهرب بعضهم من وجه الحملة الى تغزة الغزلان في الجنوب، والبعض الآخر لجأ الى تاودني.

وبعد ان وجد رجال الحملة أنفسهم في مكان خال، هجره سكانه، فانهم لم يقيموا الا مدة قصيرة، ثم عادوا الى مراكش.

وبعد جلاء الجيش المغربي عن تغزة أمر الاسقيا بعودة العمال الى المنجم، أما اثناء وجود الجيش المغربي بالمنطقة فقد ارتأى أن لا يجابهه بشيء. (14)

ولكن رغم هذا الفشل المضاعف الذي رآه المنصور في سنة 1584 حين ارساله حملة الاستكشاف الأولى ثم في عام 1586 بعد الهجوم على تغزة فانه لم يرد أن يتخلى عن مشروعه.

وصادف أن التقى ـ وهو في فاس ـ سنة 1589 بأحد المغاربة الذي عاد لتوه من بلاد سنغاي، وكان قد اقام بها قبل ذلك عدة سنوات في خدمة بلاط الاسقيا فزوده بمعلومات مفصلة عن ضعف مملكة سنغاي واضطرابها في أواخر ايامهـا، وهـذا ما دفـع مولاي الذهبي على استئناف العمل الفوري لاحتلال سنغاي وامتلاك مواردها التي كانت تبدو أمامه أكثر مما هي في واقعها.

---

(14) نفس المصدر ـ ص 50.

فبادر بارسال رسالة الى الاسقيا اسحاق الثاني أثار فيها حقوقه في امتلاك الصحراء التي هي امتداد طبيعي للمغرب، وأكد عليه بضرورة تسليم المالح دون تريث للمغرب.

ويبدو أن قضية طموح المغاربة الى احتلال البلاد قد أصبحت واضحة جدا في اذهان ملوك سنغاي، بعد ان أقدم المغاربة مرارا وخاصة في عهد المنصور على القيام بعدة محاولات مكشوفة للتعدي، وفي نفس الوقت كانوا يظهرون حرصهم على مصادقة أمراء سنغاي.

ولا ندري ما اذا كان اسحاق قد رأى في كثرة اعداد جيشه ما يكفل له الدفاع عن حوض بلاده، ام أنه اقدم على ما اقدم عليه كفورة من فورات الغضب التي تنتاب الشخص حينما يلزم نفسه الصبر أمام تعديات الآخرين، أكثر مما يمكن لها أن تتحمله.

وعلى كل فان الأسقيا اسحاق أجاب على رسالة المنصور اجابة سلبية ومثيرة، فارفق جوابه بخوذة عسكرية وبسلاسل يكبح بها العبيد.

أما المنصور فقد وجد في جواب الأشقيا اسحاق، وفي الأخبار المتوافرة لديه عن تضعضع سنغاي، الفرصة الذهبية للهجوم ولكنه هذه المرة عمل جميع الحسابات لارسال الحملة، فانتظر حتى نهاية موسم المطر، ثم وجه في نوفمبر 1590 جيشا تعداده ثلاثة آلاف فقط، ولكنه اختارهم من بين أحسن عناصر جيشه وزودهم بالمدافع والبنادق، وجعل على القيادة الباشا جودار الاسباني، أما الهدف الذي احتوته تعليماته المدققة فهو احتلال غاو وتمبكتو (عصبي الحياة في سنغاي) والقضاء النهائي على دولة سنغاي وضم حدودها للمغرب.

ولا ندري كم بقيت الحملة في الصحراء، كما لا ندري عدد من مات قبل الوصول، ومن المؤكد أنها فقدت عددا لابأس به من افرادها لقساوة الصحراء وطول الطريق. (15)

---

(15) تتفق روايات الرحلة والتجار مثل ابن بطوطة والحسن الوزاني (ليون الافريقي) وغيرهما على ان المسافة من سجلماسة الى تمبكتو تقطعها القوافل في ستين يوما ومراكش غير بعيدة على سجلماسة، كما أن الجيش لا يمكن ان يكون شبيها بسير القوافل المحملة، ولذا يمكن ان نقدر بأن الحملة قضت حوالي شهرين قبل الوصول الى سنغاي.

ولما قربت الحملة من غاو (العاصمة) لاقاها جيش سنغاي في تنديبي (الى الشمال قليلا من العاصمة)، ويقال انه كان يتركب من ثلاثين ألف راجل واثني عشر الفا وخمسمائة فارس، وهو عدد لا نستبعده لأن الأسقيا جنّد كل ما في استطاعته للدفاع، وعدد الجيش هو الذي نعتقد انه كان قد شجعه فقط على التصلب في وجه المنصور.

ولقد انكسر جيش سنغاي سريعا أمام الجيش المغربي لانتظام هذا الأخير وحداثة أسلحته النارية التي لم يكن لجيش سنغاي عهد بها من قبل. ولقد استمات جيش سنغاي استماتة تامة، حتى أبيد معظم أفراده وفي هذا المقام، نجد اوصافا واسعة لدى المؤرخين المغاربة من أمثال اليفراني والسلاوي وغيرهما، وكلها تشير الى البلاء الحسن الذي أبلاه جيش سنغاي والمصائب التي تعرض لها على أيدي رجال الحملة. (16)

وقد دخل الجيش المغربي اثر ذلك غاو دون صعوبة، وبعدها تمبكتو وفرض الطاعة على سكّان جهات النيجر الأوسط.

وفي أول تقرير أرسله جودار الى المنصور أكد لمولاه خيبة المسعى، حيث أن البلاد فقيرة، وليست مدنها الا قرى صغيرة يلتقي فيها التجار، أما الذهب فانه ياتي به آخرون من مناطق بعيدة مجهولة لدى معظم سكان سنغاي وقد ارسل المنصور بعثة للتحقيق في مدى صحة كلام جودار، فاكدت صحته.

ولما تأكد للمنصور أن عمله لا طائل من ورائه، يبدو أنه لم يعد يهتم بالبلاد وأهمل شأنها بعد ذلك. وقد أكدت وجاهة هذا الرأي كتابات كل من القاضي محمود كعت وأحمد بابا من أنّ أفراد الجيش المغربي انسجموا بعد ذلك في الحياة العامة ببلاد سنغاي، وراح رؤساؤهم في كثير من الاحيان يتقابلون ويتحاربون كما كان يفعل الأمراء المحليون، أما ارتباطهم بالمغرب فقد بقي شكليا، كما أن الملك لم يعد يهتم بأمورهم بعد أيام الحملة الأولى.

---

(16) يشير اليفراني الى أن المنصور سمي بالذهبي لكثرة ما توارد عليه من ذهب السودان. . . الخ. ويرى جوليان (تاريخ افريقيا الشمالية، ص 480) أن المنصور موه على العالم الخارجي وعلى شعبه بكثرة ذهبه من السودان، وربما كان له مورد مهم من الضرائب فقط.

وقد استؤنفت التجارة عن طريق القوافل بعد ظروف الاضطرابات الأولى، ولكن في وقت غلبت عليه قلة الأمن والفوضى فلم يعد للتجارة مع السودان ايضا ذلك الازدهار الذي كانت عليه في السابق.

واذا كان الهجوم المغربي على سنغاي سنة 1591 قد اضعف ظروف التجارة في بلاد السودان الغربي، فان ذلك العام رأى نهاية مملكة سنغاي الى الأبد، ويبدو للباحث أن عاملين أساسيين كانا في مقدمة أسباب هذا الحادث: وأولهما ضعف المملكة في آخر أيامها نتيجة الخلافات والنزاع المستمر بين أفراد البيت المالك. أما ثانيهما فهو طموح المنصور الى الحصول على مورد لا ينضب من الذهب، واذا كان تخاذل الأسيقيين المتأخرين عن تنظيم دولتهم قد اضعفها أمام الخطر الخارجي فان عدم توافر الثروة التي كانت الهدف الأساسي من حملة المنصور، قد دفعه الى أهمال شأنها وزاد تنازع الجنود على الرئاسة فيها في السير بها نحو الاهمال والتجزؤ التدريجي بعد ذلك، فأصبحت كأن لم تكن بالأمس.



أمثلة من المعالم لحضارة مشتركة بين السودانيين والعرب

1 ـ المفهوم الكوني للحياة: بدأ انتشار المعارف الصحيحة عن الكون في غرب افريقيا بواسطة الاسلام والمسلمين ولذا فقد كانت معارف تلك البلدان اسلامية في اتساعها ومحتواها، وانطلاقا من هذا الواقع لعلاقة السودانيين بالعرب لاحظ الباحث الافريقي أسوى أديكو (أن الاسلام لم يأت الا بكل جيد وطريف في هذا المجال، وبذلك فقد طور الحياة الحضارية وطبع بطابع عميق التاريخ الافريقي منذ ذلك الحين) (1).

وقد ذكر كل من ابن عبد الحكم في (فتوح مصر)، والبكري في (المسالك والممالك) أن الاسلام دخل في وقت متقدم لهذه المنطقة، ويذهب ابن عبد الحكم الى أن عقبة بن نافع الفهري غزا افريقيا في سنة 676م. ووصل الى مكان يسمى (ماء الفرس)، وقد زار ذلك المكان الرحالة الالماني بارت سنة 1857 واشار الى وجوده بين حدود ليبيا الحالية والنيجر في جبال (طومو)، واعتمادا على هذا حدد برونشويك في دراسة له عن الموضوع ان فزان فقط يمكن أن تكون.قد اسلمت في أيام عقبة بن نافع الفهري حسب التاريخ الذي ذكره ابن عبد الحكم. (2)

(1) Assoi et Clerici, Histoire des peuples noire, Abidjan 1959, P. 36
(2) Brunschwick, Annales de l'Institut d'études orientales, (Alger) V, 1947, P. 96.

واذا كان لا يمكن التأكيد بأن القرن الثامن الميلادي قد رأى اسلام الغرب الافريقي كله، فان القرن التاسع هو محل الاتفاق بين المؤرخين فيما يتعلق ببداية المشاركة الثقافية المتكاملة بين السودانيين والعرب على أساس الاسلام والمفهوم الذي يعطيه عن الكون. (3)

فمنذ ذلك التاريخ دخل الغرب الافريقي في دائرة الحضارة الاسلامية وأصبح جزءا لا يتجزء منها حتى الاحتلال الفرنسي في آخر القرن التاسع عشر، حيث بدأ الفرنسيون يعملون على خلق طبقة جديدة منفصلة عن الحضارة الاسلامية أولا، ثم العمل بواسطتها على فصل كل المنطقة ان أمكن. وقبل ذلك كان لاينفك يتمثل امتزاج السودانيين بالحضارة الاسلامية في معظم المجالات، ويمكننا أن نلاحظ من بينها الى جانب الثقافة الروحية الأساسية والمفهوم الاخلاقي للحياة، بعض المظاهر المادية والتقليدية التالية: -

2 - **العمارة**: لقد كان الفن المعماري الاصيل لافريقيا قبل الاسلام هو البناء المستدير المغطّاة سطوحه بالأخصاص والقش في شكل هرمي لا أضلاع له. وربما يعود ابتداع ذلك الى عامل التكيف مع المناخ حيث ان فصل الأمطار بالمنطقة كلها تحفل السحب فيه بأمطار غزيرة. (4) وقد كانت الحيطان تبنى بالطوب ونادرا ما تتخللها الحجارة، وكان بناء الذوات كثيرا ما يتميز باستعمال الاجر (الطوب المشتوي) في حين تبنى بيوت الفقراء والمتوسطي الحال بالطوب المجفف، وقد يخلط بالتبن أحيانا حتى يزداد صلابة (5). وقد وجدت لدى سكان افريقيا الغربية عادة بناء حوش او زريبة أمام المنزل لايواء المواشي فيه أو لستر واجهة المنزل، وخاصة لدى قبائل الغلان، وهي نفس الطريقة الموجودة لدى سكان البوادي والواحات في بلدان المغرب العربي.

ومنذ 1325 حمل كنكان موسى (ملك مالي) معه الى السودان الغربي حين كان عائدا الى بلاده من الحج المهندس الاندلسي (الساحلي الغرناطي) الشاعر،

---

(3) راجع الدراسة الجيدة لجون هنوك حول هذا الموضوع.

J.O. Hunwick, Literacy and cholarship in Muslim West Africa in the Pre-Colonial Period, NSUKKA (NIGERIA) 1974, 39 P.

(4) الصيف هو فصل الامطار، والشتاء هو فصل الجفاف.

(5) M. Delafosse, les civilisations de l'Afrique occidentales, P. 135 F.

وقد بنى هذا الرجل بمجرد وصوله مع مساعديه مساجد في كل من تمبكتو وغاو ويني (6). ومنذ تلك الفترة تولد شكل آخر من الاشكال المعمارية في السودان. وقد بنى الساحلي مساجد وربما بنى دارا للسلطان، وعلى كل حال فان عمله قد مكن لاستمرار طريقته في البناء بعده بالسودان الغربي، حيث يبدو أن هندسته قد اعتبرت أرفع الانواع وقلدت ابتداء من تلك الفترة.

3 ـ **المقاييس والمكاييل والموازين**: شارك السودانيون العرب في استعمال عدد من المقـاييس والمكـاييل والموازين التي عرفتها الحضارة الاسلامية في كل الجهات، واهمها فيما يختص بالمقاييس: ـ

أ ـ الشبر: وهو يساوي الامتداد بين الخنصر والابهام حين تكون الكف مفتوحة، وقد قدره موني R. Mauny بـ 5 , 21 سم تقريبا. (7)

بـ ـ الـذراع: وهـو الامتداد بين عقدة المرفق ونهاية الوسطى، ويساوي حوالي 50سم تقريبا. (8)

جـ ـ الميل: وهو يستعمل في قياس المسافات بصورة خاصة، وقد قدره موني ايضا بـ 1920 مترا.

د ـ الفرسخ: لقياس المسافات الطويلة وكان يساوي ثلاثة أميال،

أي 1920 × 3 = 5760 مترا بالتقريب.

هـ ـ وقد استعمل البريد أيضا، ولكن بقلّة، وكان يساوي المسافة التي تعادل سير ساعة بالحصان السريع.

لقد ذكرت هذه المقاييس كلها في كتابات السعدي وكعت واحمد بابا ولكن

---

(6) Ibid
(7) Raymond Mauny, Tableau geographique de l'Ouest Africain au moyen-Ages, Dakar 1961, P. 412.
(8) Ibid

دون ذكر لمقاديرها وقد تصدى العلامة (موني) لبحثها، .وان النتائج التي توصل اليها هي التي اعتمدناها هنا.

أما الموازين، فكان من أهمها: -
أ - المثقال: وكان يساوي وزن 72 من حبات القمح المتوسطة الحجم.
ب - الدينار: وهو يساوي أربعين درهما.
جـ - الدرهم: وكان يساوي اربعة اعشار الدينار.
د - وقد وجدت في غاو قطعة من الزجاج كانت هي وزن المثقال، وهي في شكل دائـري يساوي شعاعها 26مم. ووزنها 3 غرامات. ولكن القسم المتبقى منها يساوي فقط 3/2 ثلثين فقط من أصل حجمها الكامل، فيكون وزنها الاصلي حوالي 5, 4 غرام. وحين وجود بارث في تمبكتو عند منتصف القرن الماضي لاحظ ان المثقال لا يزال مستعملا آنذاك، ويساوي وزن 96 حبة قمح. (9)
ه - الوقية: وقد ذهب موني الى انها تساوي حوال 5, 25غ. تقريبا.

أما المكاييل فكان يستعمل منها: -
أ - المد: ويساوي سعة أربعة الواح بجمع اليدين، وقد قدره موني أيضا بما يعادل 75, 0س. لتر بالتقريب. (10)
ب - الصاع: وهو يساوي اربعة اضعاف المد أي يعادل ثلاثة لترات تقريبا.
جـ - القنطار: وقد قدر في دائرة المعارف الاسلامية بمائة رطل تقريبا. (11)
د - المودي: وهو يساوي ما يحمله العبد أو الرجل من حبوب او غيرها في كيس كان يتخذ من الجلد. (12)

4 - المشاركة في الانتاج الفكري: كانت الكتب المعروفة في أرجاء العالم الاسلامي الاخرى واسعة التداول والانتشار في السودان الغربي، وكان للعلماء السودانيين عليهـا شروح وتعليقـات تمثلها تلك المخطوطات السودانية الكثيرة في مكتبات

---

(9) Barth, Voyages .., Paris 1861, V. 2, P. 28

(10) لا يبدو ان هذا التقدير مصيب، وربما يكون المد أكثر من هذا المقدار.

(11) Enc. de l'Islam, éd. 1927, T. 2, P. 1081

(12) هذا المكيال وحده هو الذي لا يبدو أنه كان مشتركا مع بقية المكاييل العربية الاسلامية الاخرى، وقد أشار الى تواجده في السودان محمود كعت، ص 249.

السودان والعالم حتى الآن. وربما يعتبر القرن السادس عشر هو فترة الانتاج السوداني الاكثر نضجا مما سبق من العصور، ونقتصر هنا على أمثلة من انتاج ثلاثة من العلماء السودانيين الكبار في ذلك القرن، وهم:

أ - **أحمد بابا التمبكتي**: ينحدر أحمد بابا من عائلة أقيمت التي اشتهرت بالعلم والمعرفة في والاتا وفي تمبكتو بصورة خاصة، وعندما غزا جيش المنصور تمبكتو، رفع علماؤها عقيرتهم بالاحتجاج وكان من جملتهم آل أقيت، وقد تحدث عنهم السلاوي أنهم (كانوا ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا، بحيث تعدد فيهم الأئمة والعلماء والقضاة، وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة... ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم فكان اهل السودان قد سئموا ملك المغاربة... وكانت آذانهم مع ذلك صاغية لآل أقيت، فتخوف المنصور منهم وربما وشي بهم اليه فقبض على جماعة كبيرة منهم، كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن ثلاثة أحمد بن عمر بن محمد أقيت المدعو أبو العباس بابا صاحب تطريز الديباج وغيره من التأليف... وانتهت ذخائرهم وكتبهم... قال في بذل المناصحة: سمعت الشيخ أبا العباس يقول: أنا أقل عشيرتي كتبا وقد نهب لي ستة عشرة مائة مجلد... ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس للاخذ عنه ولم يزل بمراكش الى أن مات المنصور، لانه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكن بمراكش... ولما خرج من مراكش قاصدا بلدة شيعه أعيان طلبتها). (13)

ومن تآليفه الشهيرة نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ثم الحقه بتأليف آخر في نفس الموضوع هو (كفاية المحتاج بتطريز الديباج)، وقد أصبح الكتابان من أهم المراجع في موضوعهما في جميع انحاء العالم الاسلامي ولا يزالان حتى اليوم. والكتابان في طبقات علماء المالكية، وقد الفهما أحمد بابا كتكملة لمؤلف ابن فرحون (الديباج) في الموضوع نفسه. وقد ترك أحمد بابا اكثر من 700 مجلد قبل وفاته سنة 943 هجرية (1524م) عن عمر ناهز الثمانين، ومعظم مؤلفاته كانت تشمل الفقه والافتاء والمسائل النحوية والبلاغة.

---

(13) الناصري السّلاوي، الاستقصاء في اخبار المغرب الاقصى، الدار البيضاء 1955، ج 15، ص 129 ـ 130.

ب ـ عبد الرحمان السعدي بن الحاج المتوكل: ألف عبد الرحمان السعدي كتاب تاريخ السودان وهو يغطي حوادث الفترة السابقة للحكم المغربي وكذلك الفترة المغربية، وكتبه في العهد المغربي ولذلك جاءت حوادثه مفصلة اكثر من سابقه، وقد ذكر السعدي في المقدمة أسباب تأليفه قائلا: . . . (ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه وذهاب ديناره وفلوسه وأنه كبير الفوائد كثير العوائد، لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه واسلافه وتواريخهم ووفياتهم فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رويت من ذكر ملوك السودان) . . . الخ (14) . ويعتبر كتاب السعدي من أهم المصادر الاساسية عن تاريخ السودان الغربي، ولا غنى عنه لباحث في هذا الموضوع .

جـ ـ القاضي محمود كعت: الف كعت كتابه (تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور) خلال القرن السادس عشر، وحسب تاريخ السودان ان المؤلف يكون قد توفي حوالي سنة 1593م (1002هـ)، وعلى هذا الاعتبار يكون كعت قد حضر احتلال المغاربة لتمبكتو، وان الحوادث التي احتواها كتابه تجتاز عمره بست سنوات على الاقل، مما يبعث على الظن بأن الكتاب يكون قد أتمه بعض أحفاده بعده . ويبدو ان التأثر قد اشتد به بعد نفي العلماء من طرف المغاربة عن تمبكتو فكتب يقول: (ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تنبكتو جسما بلا روح، وانعكس أمرها وتغير حالها، وتبدل عوائدها ورجع أسفلها اعلاها وأعلاها أسفلها وساد اراذلها على عظمائها) . . . (15) الخ . وقد ارجع كعت مجيء حملة المنصور واحتلال المغاربة لقسم من السودان الغربي الشمالي بالقوة الى فساد اخلاق السكان واستهتار المتأخرين من ملوك الاساقي بالقيم . ويعتبر كعت من المصادر التي لا غنى عنها فيما يتعلق بتاريخ السودان حتى القرن السابع عشر.

5 ـ تقاليد في الحج متشابهة: أنفق كنكان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) ثلاثين ألف قطعة ذهب على موكبه الكبير الى الحج، ويذكر كل من

---

(14) السعدي، ص 2 .

(15) كعت، تاريخ الفتاش . . . ص 175 .

المقريزي وابن اياس ان سعر الذهب كان قد نزل بأسواق القاهرة في تلك المناسبة لكثرة ما انفق دنكان موسى بها بمقدار ستة بالمائة. (16)

أما الاسقيا محمد الكبير (آخر القرن الخامس عشر) فقد حرص على ان يأخذ معه الى الحج جمعا كبيرا من العلماء والاعيان، ويذكرنا كل ذلك بمواكب الحج التي كان ينظمها الخلفاء والسلاطين من مختلف البلدان الاسلامية للمشاركة في تظاهرة الحج، ذلك الملتقى الاسلامي السنوي الكبير.

وقد انفق الاسقيا الحاج محمد الكبير في حجه ثلاثمائة الف قطعة من الذهب الخالص منها مائة الف لتكاليف سفره مع حاشيته، مائة الف أخرى كصدقات لفقراء مكة والمدينة كما اشترى بالحجاز قطعة ارض ومبنى يأوي اليه الجميع من بلاد السودان، اما المائة الباقية فقد انفقها في شراء حاجات وهدايا من أسواق مكة والقاهرة، وقد استقبل في القاهرة استقبالا رسميا وحافلا، اما في مكة فقد قلده شريفها بردة وعمامة وسيفا وانتظمت على شرفه حفلة تسلم خلالها من آخر الامراء العباسيين لقب الخليفة الاول على بلاد السودان، وتحفل كتب الرحالة السودانيين بالكثير عن اخبار مواكب الحجيج السودانيين مما يؤكد الاندماج الكلي في تقاليد الحضارة الاسلامية التي عرفتها كل جهات العالم الاسلامي في هذا الشأن. (17)

6 ـ **تنقلات العلماء والطلاب**: لقد كان للطلاب السودانيين اقبال على العلم دفعهم في كثير من الاحيان الى عدم الاكتفاء بالدراسة في السودان، وقام الكثيرون منهم برحلات واسعة الى بلدان المغرب والى مصر، وبلغ من كثرة تواردهم على مصر ان اسس لهم في القرن الخامس عشر رواق خاص في الازهر عرف برواق التكرور، وهو لا يزال قائما الى اليوم. (18) وكانت العادة المعروفة في مزاولة التعليم العالي لدى المسلمين هي ان الطلاب كانوا يتنقلون من مكان الى آخر كلما سمعوا باستاذ متضلع في مادة يريدون التمكن منها، وهذه الطريقة انخرط فيها الطلاب السودانيون بتوسع شديد ايضا. (19) ومن امثلة ذلك ما

(17) راجع د. عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين، الجزائر 1972، ص 36 فما بعد؛
(18) عبد الرحمان زكي، المجلة، عدد فبراير 1961، ص 40.
(19) راجع، عبد الرحمان شلبي، تاريخ التربية الاسلامية، بيروت 1958، ص 271.

ذكره احمد بابا عن تنقل احد اساتذته لطلب العلم، فقال: (اخذ العربية والفقه على ابيه القاضي الصالح محمود... ثم رحل لتنبكتو مع خاله الفقيه الصالح فلازما الفقيه احمد بن سعيد في المختصر، ثم حجا مع خالها فلقوا بمصر اللقاني والتاجوري والزين البحري والشريف يوسف والبرهمتوشي والشيخ الامام ولي الله محمد البكري وغيرهم، فحصلا هناك ما حصلا، ثم رجعا بعد أداء فريضة الحج وموت خالها فاستوطنا تنبكتو، فاخذا ايضا على ابن سعيد الفقه والحديث، قرآ عليه المدونة والموطأ والمختصر وغيرها ولازماه، وعن السيد الوالد احمد بن احمد الأصول والبيان والمنطق، فقرأ عليه أصول السبكي والتلخيص)... الخ (20)

ومثل ما كان طلبة العلم السودانيين يتنقلون في العالم العربي كغيرهم من الطلبة في العالم العربي والاسلامي كله، كان العلماء يتنقلون ايضا في حركة مماثلة، فالفقيه مخلوف بن احمد علي البلبالي مثلا المتوفى سنة 940هـ، قرأ في السودان ثم ارتحل الى المغرب وقد درس في تمبكتو ثم في مراكش بعد ذلك.

والمغيلي التلمساني الجزائري درس في تلدة وفي غاو وفي كانو، والفقيه محمد بن احمد التازخي قرأ في بلاد السودان الغربي ودرس بها ثم انتقل الى المشرق فحضر دروس القلقشندي والسنباطي واجازه في مكة ابو البركات النويري وابن عمته عبد القادر وعلي بن ناصر الحجازي وابو الطيب البستي وغيرهم. (21) والامثلة على ذلك كثيرة لاتكاد تحصى. واذا كانت كل هذه المظاهر الحضارية المشتركة مما لا يتسع لنا المجال هنا للتوسع فيها، فاننا نكتفي بقضية التعليم في القرن السادس عشر في تمبكتو كمثال عن تعمق باع السودانيين في الحضارة الاسلامية، وهو موضوع الفصل الموالي.



(20) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 373.
(21) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 39 ـ 40.

القرن 16 والتعليم في تمبكتو
مركز التبادل الثقافي الأول

1 ـ نحو الاوج: كان القرن السادس عشر، هو الفترة التي بلغت خلالها الحضارة الاسلامية اوجها بالسودان الغربي، اما الحقبة الممتدة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر، فقد كانت فترة تطورات متلاحقة لبلوغ مرحلة الاوج هذه. (1)

ومنذ استقرار الاسلام بالمنطقة مع نهاية القرن التاسع الميلادي، بدأت

---

(1) بدأت أول محاولة استطلاعية قام بها العرب لتبليغ رسالة الاسلام الى غرب السودان في القرن السابع الميلادي فقد ذكر ابن عبد الحكم ان عقبة بن نافع الفهري ارسل فرقة صغيرة من جيشه الى الجنوب الغربي، وذلك حينما بلغ برقة في حدود 676م. وقد وصل رجال تلك الفرقة الى جبال الطومو، وتوقفوا عند مكان يدعى (ماء الفرس)، وموقع ذلك المكان في الوقت الراهن عند حدود فزان النيجر.

ولا نميل الى الاعتقاد بان هجومات المرابطين في القرن الحادي عشر على بعض المناطق المحادية لنهر السنغال من ناحية الشمال، كان لها اثر في حمل الناس على الاسلام، لان المرابطين ما لبثت عنايتهم ان تعلقت بالشمال، ولم يبق منهم بالجنوب الا جماعة صغيرة، ما لبثت ان توقفت عن النشاط هي الأخرى، وذلك حينما وصلت منطقة كمبي صالح، في حدود سنة 1076م.

ولعل الاثر الاكثر اهمية في اعتناق السودانيين للاسلام كان قد حصل كنتيجة لاسلام المغاربة، فقد كان هؤلاء على اتصال منذ القديم بغرب افريقيا، ولما ازدادت تلك الصلة قوة عن طريق التجارة خلال العصور الوسطى، كان من اثرها المباشر اقبال امراء وسلاطين السودان على اعتناق الاسلام، وكان رعاياهم يتبعونهم بصورة تلقائية تقريبا.

تتكون بها عدة تنظيمات حكومية، ظلت تتخطى الشكل القبلي القديم بالتدريج، وقد وصلت الى المرحلة الوطنية مع نهاية القرن الخامس عشر. (2)

الحركة التعليمية في تمبكتو: وقد اعتمد استقرار الاسلام منذ البداية على عنصرين اساسيين، هما التجارة والتعليم، وظلت المظاهر الحضارية في كل السودان الغربي انما تزداد ازدهارا في كل حقبة بالمدن التي تتلاءم مواقعها مع توارد قوافل الشمال عليها، بالدرجة الاولى (3).

وكان القرن السادس عشر قد قيّض خلاله لمدينة تمبكتو ان تصبح محطة القوافل الاولى في كل بلاد السودان، فسكنها كثير من التجار وقصدها جم غفير من العلماء والطلاب، مما بوّأها اثناءه مكانة المدينة الاولى للعلم والثقافة في

---

(2) خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، تكونت في السودان الغربي ثلاث ممالك كبرى، وقد ظهرت في البداية مملكة غانا (في منطقةشمال السنغال وجنوب موريطانيا حاليا)، وقد اثبتت دراسات الاستاذ (بازل دافيدسون)، انها قامت منذ البداية في شكل قبلي صرف، طغت فيه قبيلة على مجموعة من القبائل، وفرضت عليها الخضوع لحكمها. وبنفس الطريقة اقامت قبائل المندينغ مملكة مالي التي بلغت قوتها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ولكن نوعا من الكونفيدرالية ظهر في مالي منذ القرن الثالث عشر، فكان في ذلك جمع بين الصورة القبلية السابقة والصورة الوطنية المقبلة.

ثم قامت مملكة سنغاي في عهدها الاول في شكل قبلي ايضا، الا ان الاسقيا محمد الاول (1493 ـ 1528) ادخل عليها تعديلات جوهرية، فابعدها عن الشكل القبلي واعطاها صبغة وطنية، بحيث اصبحت تشترك في تسييرالمملكة معظم القبائل المنضوية تحت لوائها. وقد اضطر من اجل الوصول لذلك الهدف الى خوض معارك حامية ضد زعماء قبيلة سنغاي الذين لم يرضوا مشاركة بقية القبائل لهم في الحكم، ولما انتصر عليهم، كان ذلك ايذانا بتخطي الأشكال القبلية القديمة، وذلك لأول مرة في تاريخ السودان الغربي حتى القرن السادس عشر.

لزيادة التفاصيل، يمكن مراجعة المصادر التالية بصورة خاصة، وهي:

- دافيدسون، بازل، افريقيا تحت اضواء جديدة، دار الثقافة بيروت 1963 (ترجمة م. أحمد).
- قداح، نعيم، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام مطبعة الوحدة دمشق (دون تاريخ)
- عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين، الجزائر، 1973.

(3) ظلت المراكز الحضارية بالسودان الغربي حتى القرن السادس عشر، هي المدن التي كان يأتي إليها أو يقطنها كثير من تجار الشمال، أما البوادي والقرى، فقد ظلت تعيش على الاساليب البدائية القديمة. ويرى الاستاذ (ديبوا) انه لا يوجد في تاريخ السودان الغربي اثر حضاري وثقافي الا في المدن التي كانت تتوارد عليها القوافل، وبهذه الصورة قامت (والاتا) في البداية كمركز ثقافي وحضاري كبير، ولما ظهرت الاضطرابات في منطقتها كنتيجة لتوسع مالي خلال القرن الثالث عشر ضعفت والاتا بسرعة منذ ذلك الحين. وهاجرها العلماء الى (تمبكتو) التي اتخذها التجار من جديد محطة لنزولهم، انظر F. DUBOIS, Tombouctou..., Paris 1897, p. 263.

السودان الغربيّ كله. (4) وفي تلك الحقبة وصفت بأم مدائن السودانيين سواء في العلم والحضارة أم في العمران والتجارة. (5)

2 ـ **من مظاهر الازدهار**: خلال القرن السادس عشر أصبح سكان تمبكتو يزيدون على خمسة وثلاثين الف ساكن، وربما لم تعد تفوقها آنذاك في كثرة السكان مدينة سودانية أخرى في غرب افريقيا، غير غاو العاصمة السياسية للامبراطورية السنغائية التي كانت تمبكتو انذاك احدى مدنها الهامة. (6)

وفي تلك الاثناء أصبحت تمبكتو العاصمة الثانية للامبراطورية في ميداني الاقتصاد والثقافة معا، (7) وقد انتظمت شوارعها، واحيطت المدينة بسور، أما

---

(4) يعود تاسيس مدينة تمبكتو الى القرن الحادي عشر، وقد اسسها طوارق (ايمغراشين) حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود ذلك التاريخ. أما خلال الصيف فإنهم يعودون الى (أروان) حيث مرابعهم الأصلية، ويقال ان اسمها أخذته من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا اليها بالبقاء في ذلك المكان، حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية، وكانت تحرس لهم فيه بعض المخازن والبيوت. ثم ما لبث بعض التجار ان عقدوا سوقا في ذلك المكان واتخذوا فيه مستودعات للبضائع، وبذلك اخذت المدينة طريقها الى النمو التدريجي، ولكن دون نظام، وفي ايام كنكان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) بُني له فيها قصر فخم، كما اسس اول مساجدها المسمى (دنقربير)، وقد بناهما الشاعر الساحلي، وهو مهندس غرناطي استقدمه كنكان موسى معه حين عاد من الحج حوالي سنة 1326م. وفي تلك الاثناء هاجر عدد من العلماء مدينة والاتا (المركز الثقافي الأول في غرب السودان حتى ذلك الحين)، وسكنوا تمبكتو، فزادها ذلك ازدهارا، أما التجار فقد أخذوا يستعيضون بها عن والاتا بالتدريج، وما أن أطل القرن السادس عشر حتى جمعت تمبكتو بين التجارة الواسعة والنشاط الثقافي المتزايد، وقد بلغت فيها مرحلة الاوج خلال الفترة بين 1496 و 1591 وفي تلك الاثناء انتظمت شوارع المدينة. واكتسبت معظم ابنيتها شكلها الهندسي على النمط المغربي ـ الاندلسي، كما نقله اليها الساحلي يقول السعدي: (وما تكامل البناء (في تمبكتو) في الالتصاق والالتئام الا في اواسط القرن العاشر، في مدة اسقيا داود) انظر:

ـ السعدي، عبد الرحمان، تاريخ السودان، (ميزوناف) باريس، 1946. (تحقيق هوداس وبونوا)، ص 22.

(5) Ibid, p. 252 – Dubois, F. op. cit., pp. 313-318

(6) جرت محاورة لطيفة في ذلك الوقت بين جماعة من سكان تمبكتو وجماعة من سكان غاو، وقد احتد النقاش بين العريقين حول اي من المدينتين اكثر بيوتا، مما ادى بهما الى عد بيوت كل من المدينتين على حدة، وقد استدل من ذلك على أن سكان تمبكتو يزيدون على الثلاثين الف ساكن، انظر:

ـ كعت، محمود، تاريخ الفتاش، ميزوناف، باريس، 1964 (تحقيق هوداس) ص 145.

(7) في ميدان الثقافة تتفق مراجع تلك الفترة على ان تمبكتو لم يكن يجاريها في ذلك الوقت مدينة اخرى، لكثرة العلماء والطلاب بها ونشاطهم المتزايد اما في ميدان الاقتصاد فان أمراء سنغاي، كانوا حينما يحتاجون للمال في اوقات الشدة يلجأون للاقتراض من تجار تمبكتو، كما ان بعضهم زوج بناته باغنياء التجار في تمبكتو، ولم يحصل هذا مع غيرهم، وقد تأثر الحسن بن محمد الفاسي الوزاني بالنشاط التجاري الذي كانت عليه المدينة وكثرة بضائعها، مما جعله يعتبرها امارة قائمة بذاتها، انظر:

ـ السعدي، عبد الرحمان، نفس المصدر، ص 22.

ـ أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج. فاس 1317هـ، ص. 41.

المنازل فقد ازدانت نسبة كبيرة من بينها بواجهات في شكل زرائب وحدائق صغيرة تربطها الى حيطان البيوت سياجات. (8) وقد احتوت تمبكتو في تلك الاثناء على ثلاثة مساجد كبيرة (جوامع)، مما لم يتهيأ لغيرها من كبريات مدن السودان الغربي انـذاك. (9) وأخـذت اسـواقها طابعها الاسلامي (10) كما كانت ترى توارد العديد من القوافل الكبيرة عليها (11) وسكنتها جماعة من التجار الاغنياء، أما حركـة التبـادل، فانها كانت تمر بفترة من النشاط معتبرة (12) واذا كان القرن السادس عشر قد ظهرت خلاله تمبكتو مدينة السودان الاولى في علاقاتها التجارية مع بلدان المغرب ومصر، فان ذلك القرن، هو الذي اصبحت خلاله تلك المدينة ايضـا، مركـزا هاما من مراكز الانتاج الثقافي ضمن ميدان الحضارة الاسلامية الفسيح. وبذلك لم يقتصر دورها في هذا الجانب على مجرد التبادل مع جزء من العـالم الاسـلامي. وانما تجاوزه الى استيعاب ما انتجه العالم الاسلامي ككل، والمشاركة في تنميته ونشره بين أمم السودان الغربي وشعوبه. (13)

3 ـ **حركة التعليم**: رأت تمبكتو في القرن السادس عشر نشاطا فيما يختص بحركة التدريس، وقد ضمت مدارسها العديد من الطلاب والاساتذة، كما رأت

---

(8) يذكـر السعـدي، نفس المصدر. ص 18 ان تمبكتو كانت حين نشابها الاولى لا سور لها والواقف خارجها يستطيع مشاهدة داخلها، وفي ايام الاساقي أصبحت تتوفر على ذلك السور كما ان البيوت لم تعد مكشوفة ثم يذكر انه في عهد الطوارق لم يكن لبيوتها نظام، اما في القرن السادس عشر، فقد انتظمت بيوتها ودكاكينها. ووجدت بينها ممرات في شكل شوارع.

(9) وجود المساجد الكبيرة في مدينة ما، كان يشير الى نشاط التعليم وتكاثر السكان واتساع الاحياء. والمدن الكبيرة بالسودان الغربي في تلك الحقبة، هي: غاو، جني وتمبكتو اما جني فقد كان بها مسجدان احدهما صغير، وربما لم يكن في غاو غير جامع واحد، وأما تمبكتو فقد كان بها ثلاثة مساجد كبيرة هي: أ) مسجد الونكريين (دنكربير) ـ ب) مسجد سنكري ـ ج) مسجد سيدي يحيى.

(10) كان يغلب على نظام الاسواق في المدن الاسلامية الكبرى، تقسيمها الى اقسام، ويختص كل قسم بنوعية معينة من البضائع، مما مكن الفاطميين من اتخاذ عرفاء على تجار كل نوع من البضائع، في شكل نقابات، ينظر: حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1963.

(11) لا نستطيع تقدير عدد القوافل التي كانت تجهز بين شمال افريقيا والسودان في القرن السادس عشر، أما في القرن الرابع عشر، وكان اقل من السادس عشر نشاطا بدون شك، فقد قدر ابن خلدون في (التاريخ ج 7، ص 435 ط. بيروت، 1963) حجم كل قافلة بما لا يقل عن اثني عشر جملا، وذهب الى ان كل القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز تلك القوافل باتجاه السودان.

(12) CF. J. L. L'Africain, op. cit. pp. 292-96; Dubois, op. cit, chap. XIII Encyclopédie de l'Islam, T. IV (s-z), Leyde, 1934, P. 816

(13)غير ان صاحب الدراسة يذكر ان تمبكتو قد احتلت من قبل المغاربة في ايام الاسقيا داود والواقع غير هذا، لان المغاربة لم يدخلوا المدينة كفاتحين الا في آخر عهد الاسقيا اسحاق الثاني 1591.

لاول مرة في تاريخ السودان الغربي، اتساع التعليم الجامعي، وتوارد عليها في تلك الاثناء عدد من الاساتذة من بلدان المغرب، فساهموا في تنشيط التعليم وتعميقه[14] وفي تلك الفترة بدأ العلماء السودانيون في الانتاج، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي الفت خارج السودان، وقد صاحب ذلك انتظام مراحل التعليم، وأخذه طابعا عاما، كانت له مميزاته وخصائصه. (15)

أ) **مراحل التعليم**: كان التعليم في تمبكتو خلال القرن السادس عشر، يقسم الى ابتدائي وثانوي وعال، وكان التعليم الابتدائي تتجسم فيه المرحلة الاولى الاساسية لكل الطلاب، (16) هذا بالاضافة الى ان مرحلته هي الوحيدة التي يبدو انه كان يراعى فيها الى حد ما، مستوى السن، فكان التلاميذ في السلك الابتدائي لا يتجاوزون في اغلبيتهم مرحلة الصبا. (17)

---

(14) كان من ابرز من وفد عليها من علماء المغرب واكتسبوا بها شهرة في تلك الاثناء: محمد بن عبد الكريم المغيلي، سيدي يحيى التادلسي، مخلوف البلبالي وابراهيم الزلفي. وكذا عدد هام من علماء توات.

ـ ينظر السعدي، المصدر المذكور، صفحات 21 ـ 45، وعن المغيلي خاصة ينظر تحقيقنا لأسئلة الاسقيا وأجوبةالمغيلي، الجزائر، 1974.

(15) من الجدير بالذكر هنا ان كل التأثيرات الخارجية التي عرفها السودان الغربي في ميدان الحضارة، حتى نهاية القرن السابع عشر، كان الفضل فيها يعود للمغاربة وللمصريين بالدرجة الاولى، وبالنظر للعوامل الجغرافية، فان المغاربة كانوا اكثر تأثيرا من المصريين اما الأوروبيين فانهم حتى القرن الثامن عشر كانوا لم يتجاوزوا السواحل، وحتى نهاية القرن السابع عشر، ظلت معلوماتهم عن الداخل نظرية بحتة، وحتى نهاية القرن الرابع عشر بقي اكتشاف داخل القارة الافريقية عموما، والسودان الغربي بشكل خاص، للعرب وحدهم، و لعل أول محاولة اوروبية لوصول الى المناطق الواقعة جنوب المغرب الاقصى، كانت هي رحلة الاخوين (Vivaldi) من جنوا، اللذين حاولا الوصول الى ريودي ارو (وادي الذهب سنة 1291م ولكن غابت أخبارهما من ساعتئذن. وفي 1447 حاول الرحالة (مالفانت) الايطالي الوصول الى تمبكتو عن طريق توات، ولكنه لم يتمكن، فبقي اياما في تلك الواحة ثم عاد، ومن هنا، فاننا نميل الى الاعتقاد بان كل تقدم احرزه السودان الغربي في ميدان التعليم ظل اسلامية وبتأثير من الحضارة العربية وحدها، وهذا حتى بداية القرن العشرين لزيادة التفاصيل، يراجع بصورة خاصة:

Coqueriy, Catherine, La découverte de l'Afrique, Paris 1915. De Zuraca, C.E., Chronique de Guinée (Trad. Bourdon), Paris, 1841, Chap— 9, p. 56. Ca de Mosto, Relation de voyages à la côte occidentale de l'Afrique, (Traduction Schefer), Paris, 1895, PP. 49-51. De Baross, J., De Asia, Lisbonne 1778, T.I, Chap. 2.

(16) كان الاساتذة في المرحلتين الثانوية والعالية، لا يتعاطون تعليم القراءة والكتابة، ولذا كان على كل طالب ان يدخل المدرسة الابتدائية أولا، ليتزود منها بما يمكنه من معرفة القراءة والتسجيل، وهذا قبل ان يجلس في حلقة اي استاذ كان.

(17) لايشير المؤرخون السودانيون من تلك الفترة لتلاميذ المرحلة الابتدائية الا بعبارة (الصبيان) ينظر مثلا:

ـ كعت، نفس المصدر، صفحات 95 ـ 178 ـ 180

ـ السعدي، نفس المصدر، صفحات 19 ـ 22 ـ 130 . . . الخ

وبعد ان ينهي الطالب مرحلة التعليم الابتدائي، يدخل مرحلة التعليم الثانوي والعالي، ولم يكن لهاتين المرحلتين عرف معين في السن، كما ان الفروق بينهما لم تكن واضحة، ولعل مرد ذلك الى ان هاتين المرحلتين كان التعليم فيهما حرا بالنسبة لانخراط الطلبة، (18) أما في المرحلة الابتدائية، فلا شك ان الاباء هم الذين كانو يقودون ابناءهم الى معلمي الصبيان، ويجبرونهم على الدوام، كما يراقبون مدى استيعابهم. (19) وكانت مرحلة التعليم الثانوي تمتاز بأن الكتب التي تدرس فيها، هي الكتب المبسطة، وكان يتولى تدريسها غالبا من يسمون بـ (الاشياخ) (20) ويبدو ان الاشياخ في العرف العام آنذاك، كانوا متوسطي الثقافة بالنسبة للاساتذة، ولكن عددا من الاساتذة تعاطوا ايضا تدريس مثل هذه المؤلفات، وهذا مما يجعل الانفصال بين المرحلتين واضحا للباحث، لان اولئك الاساتذة في نفس الوقت كانوا يجمعون الى ذلك تدريس امهات الكتب المفصلة في نفس الموضوع، ويبدو انهم كانوا يقسمون أوقاتهم خلال النهار، فيدرسون مثلا في الصباح لطلاب في مستوى الثانوي، ثم يجلسون بعد الظهر لطلاب المرحلة العليا أو العكس (21) ومن هنا يبدو الانتظام في المراحل التي يمر بها الطالب من حيث التدرج في مستويات التعليم بين المراحل، ووجود منهج قار لكل مرحلة. وكان بينهم من يعتقدون بالغيبيات، ويعملون لحمل الناس على تصديقهم، وكان المتخرجون على أيديهم يتطبعون بتلك الروح في الغالب (22).

---

(18) كان الاساتذة في هاتين المرحلتين يجلسون للتدريس ويتحلق حولهم الطلاب ويجلس الطالب في حلقة ما حسب رغبته في المادة التي يكون الأستاذ بصدد تدريسها أولا، ثم حسب قدرته على الفهم والاستيعاب

(19) تحدث ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) عن حرص السودانيين على تحفيظ ابنائهم القرآن وتعليمهم الاخلاق منذ الصغر، ويذكر من امثلة ذلك عن احدهم انه كتف ابنه بحبل يوم العيد، ولم يفك وثاقه رغم توسل البعض اليه في ذلك، حتى حفظ الجزء الذي يطلب منه، ولم يؤثر لنا شيء عن تغيير تلك العادة لديهم، فيما بعد.

(20) تحدث محمود كعت مثلا عن مدرس كان يشرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني لاسقيا داود فسماه بـ (الشيخ)، وتحدث كل من السعدي واحمد بابا عن عدد ممن اخذا عليهم، فوصفا من درسهما الكتب المفصلة الكبيرة في مادة ما، مثل الفية ابن مالك والعاصمية بـ (الاساتذة) ووصفا الذين كانا قد اخذا عليهم مثل الرسالة وابن عاشر والاجرومية بـ (الاشياخ) وهناك فريق ثالث كانا قد أخذا عليهم، مثل الاجرومية والالفية معا، أو الرسالة وخليل، فوصفهما بـ (شيخي واستاذي) ينظر:

- السعدي، نفس المصدر، صفحات 20 - 33 - 94
- أحمد بابا، نفس المصدر، ص 179

(21) أحمد بابا، المصدر نفسه، والسعدي، المصدر السابق، ص 44.

(22) زخرت كتابات كل من أحمد بابا وعبد الرحمان السعدي ومحمود كعت أثناء الحديث عن اشياخهم واساتذتهم، بذكر كل ما كان يدعى معظمهم الاتصاف به من (معرفة الغيب) وانطباق ما يرونه في المنام على واقع المستقبل، و(توقيفهم لنزول المطر عن طلابهم حين يجتمعون بهم في العراء). او كـ(انفتاح باب قبر الرسول على مصراعيه لاحدهم حين الحج)، و(انشقاق مياه البحر الى شطرين اثناء عبور آخر للنهر)، وغير ذلك. وهم

ب) امكنة التدريس كانت أمكنة التدريس الاساسية هي المساجد والجوامع، وكان من اشهرها واكثرها اكتظاظا بجموع الطلبة والمدرسين، خلال القرن السادس عشر، جامع (سنكوري) (23) وهو يقع في القسم الشمالي من مدينة تمبكتو وقد بنته سيدة فاضلة، قيل انها كانت من الموسرات (24). ثم جامع (دنقربير) وكان قد بناه في الاصل احد الاندلسيين لكانكان موسى صاحب مالي، (25) ثم أدخلت عليه تحسينات ووسعت مساحته مرتين خلال القرن السادس عشر وذلك لكي يسع جموع قاصديه من الطلبة والمصلين، ويبدو ان تكاثر الازدحام عليه، هو الذي كان يدعو باستمرار الى العمل على توسيعه (26). ويأتي بعد هذين مسجد سيدي يحيى، وقد بني تخليدا لاحد علماء المغرب الذين باشروا التعليم في تمبكتو خلال النصف الاول من القرن السادس عشر، فاجتهدوا في تعليمهم وافادوا الناس (27). والى جانب هذه المساجد

يفسرون هذا دائما بكون اولئك العلماء الذين تتفق لهم مثل تلك الخوارق من (أولياء الله) ولعل مرد ذلك لله الى بقاء الروح الاسطورية القديمة في النفوس، وليس لما ذهب اليه الأسقيا محمد في رسالته إلى المغيلي مثلا من أن العلماء في بلاده لا يفهمون العربية فهما جيّدا، ثم يؤدي به الادعاء الى القول بما ليس في القرآن، لان اولئك المدرسين كان يبدو من اعمالهم التضلع الكافي بما يدرسون. وقد ترك اغلبهم شروحا وحواشي للمواد التي كانوا يدرسونها وقد قيدها عليهم طلابهم، وبقيت موجودة حتى الآن وهي تؤكد تضلعهم في العربية وفي المواد التي كانوا يدرسونها.

(23) اصبح جامع سنكوري في تلك الفترة، بمثابة جامعة للسودان الغربي كله، وقد توارد عليها جماعة من الاساتذة اللامعين، وكانت المواد التي تدرس فيها بتعمق. ينظر بصورة خاصة.

– Delafosse, M., Haut Sénégal-Niger, Paris, 1912, T. 2, P. 346.
– Péfontan (Lieut.) "Histoire de Tombouctou", in Bull. de L'Afrique occidentale, 1922, (Tirage à part).

(24) بناء السيدات الموسرات للجوامع كان قاعدة مرعية لدى المسلمين على ما يظهر، ويمكن ان نذكر من امثلة ذلك ايضا، بناء السيدة فاطمة الفهرية لجامع القرويين، كما ان عددا من الخاتونات هنّ اللائي كن بنين عددا من المساجد في العراق والشام ومصر، ويلاحظ بهذا مدى تأثر التمبكتيين بالتقاليد الاسلامية من المشرق او المغرب على السواء.

(25) الاندلسي، هو ابو عبد الله الساحلي أحد شعراء غرناطة، وكان معماريا، ثم التقى في موسم الحج بالسلطان موسى الاول، فاستقدمه معه؛ الى السودان الغربي حوالي 1326م. وقد بنى في تمبكتو جامعا وقصرا للملك، كما بنى في (ينى) عاصمة مملكة مالي آنذاك، قصرا آخر. ويقال انه منذذلك الوقت أخذ الاسلوب المغربي - الاندلسي في فن البناء ينتشر بغرب السودان.

(26)وسع جامع سنكوري مرتين خلال القرن السادس عشر وكانت المرة الاخيرة 1485، وقد قام بذلك القاضي (العاقب) الذي تناهى الينا انه كان يصرف على الاشغال من ماله الخاص، ولم يقبل من بعض الموسرين رغم الحاحهم عليه مشاركتهم له في الانفاق، الا اشياء رمزية فقط. ومهما يكن فان اعمال التوسع في حد ذاتها تشير الى تكاثر الطلبة وازدهار التعليم في سنكوري، مما جعله يحتل المرتبة الاولى من جوامع تمبكتو في تلك الاثناء. انظر كعت، نفس المصدر، ص 41.

- (27)هو يحيى التادلسي، وقد سكن تمبكتو، وكان في حياته قد اتخذ في مكان ذلك المسجد بيتا صغيرا للتدريس، ويقول كعت: ان اهل تمبكتو (كانو يعتقدون فيه) فلما مات بنوا على قبره ذلك المسجد. وقد تحول سريعا الى جامع كما يبدو لتكاثر سكان الحي الموجود به، ولازدهار التدريس في المدينة ككل، مما جعل الطلبة والمدرسين يملؤون كل الرحاب.

الثلاثة، كان يوجد جامع خالد، وهو كما يدل اطلاق اسم الجامع عليه كان كبيرا نسبيا، الا ان الدراسة فيه ربما كانت مقتصرة على المرحلة الثانوية فقط (28)

وقد كانت بعض الجوامع تحتوي على مراحل التعليم الثلاث، فيجلس في جانب من الجامع طلبة القرآن مع تلاميذهم، ويجلس في فنائه وقاعاته غالبا اشياخ التعليم الثانوي واساتذة التعليم العالي (29). ولكن طلبة القرآن في الغالب كانوا يتخذون دكاكين خاصة لعملهم او يلتصقون بجنبات المساجد الصغيرة (30). كما ان بعض الاساتذة وكذلك الاشياخ، كانوا أحيانا يتعاطون التدريس في منازلهم، الا ان هذا كان في حالات قليلة، اما غالب جلوسهم، فقد كان في رحاب المساجد والجوامع (31).

ج) **طريقة التدريس**: كانت المناقشة بين الاستاذ وطلابه جاريا بها العمل (32). اما التواضع ولين الجانب للطلبة، فقد كانا من شيم الاساتذة اللامعين بتمبكتو في تلك الفترة (33) وكان صبر الاستاذ على تفهيم طلبته يعتبره الناس من صفات الاساتذة الناجحين في مهنتهم، (34) وكانت الطريقة الشائعة في الدرس هي أن يبدأ الاستاذ بإملاء رأيه في المسائل على طلبته، وبعدها يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور الاستاذ، ثم يطلب كل منهم توضيح ما أشكل عليه، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفاسير التي يعطيها الاستاذ كجواب على استفساراتهم (35).

---

(28) لا يذكره محمود كعت الا كجامع صغير، ورغم ذلك فقد كان يتوارد عليه الطلبة والمعلمون. ويفهم من كلامه انه كان يوجد بالمدينة آنذاك، كثير من المساجد الصغيرة غيره، ينظر كعت، المصدر السابق، ص 38.

(29) هذا ما يفهم من كلام السعدي اثناء الحديث عن تمبكتو في عهد الاسقيا داود، انظر السعدي، نفس المصدر، ص 47.

(30) كانت المدارس الابتدائية الخاصة بمعلمي الكتاب (خارج المساجد) قد تراوحت في تلك الفترة بين مائة وخمسين، الى مائة وثمانين مكتبا، وكان معظمها يحتوي على العديد من التلاميذ، وقد ذكر عن واحد من بينها، وهو مكتب المعلم (علي تكريا) انه كان يضم في سنة 1591م اكثر من 123 تلميذا (ينظر كعت، المصدر السابق ص 180).

(31) يشير الى ذلك بوضوح كل من أحمد بابا والسعدي، اثناء الحديث عن اساتذتها واشياخها (انظر السعدي، المصدر السابق، صفحات 19 ـ 46، واحمد بابا، المصدر السابق ص 279)

(32) السعدي، المصدر المذكور، ص 46

(33) المصدر نفسه.

(34) المصدر نفسه، ص 44.

(35) احمد بابا، المصدر السابق، ص 376).

ويبدو انه اثناء الشرح كان الاساتذة يختارون العبارات المبسطة لكي يتمكن طلابهم من استيعاب ما يقولون (36) ولعلنا اذا اردنا ان نوجز معالم الطريقة المثلى في اعتبار الناس آنذاك، فاننا ربما نجد في ابيات المرثية التالية، وهي من تلك الفترة خير معبر عن ذلك (37):

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي	**يثير هموم القلب من كل وافد ؟**
يثير هموم القلب فقد سميدع	**فقيه حليم حامل للفرائد**
بحسن تعليم مقرب فهمه	**وفتاق تهذيب بحسن الفوائد**
محمد الاستاذ مؤدب ذي النهى	**رباطا صبارا أمره في التزايد**

ويضاف الى هذا أن المدرسين على اختلاف مستوياتهم، لم يكونوا يلتزمون بالتوقف عند مادة بعينها، بل انهم كانو يتصدون غالبا لتدريس مواد عديدة، ولكنهم لا يدرسون الا المواد التي يكونون قد أتقنوها وأجيزوا فيها. (38)

د) **الاجازات**: عرف المدرسون والطلاب في تمبكتو خلال القرن السادس عشر نظام الشهادات، كما عرفته البلاد الاسلامية الاخرى. وبما ان طلب العلم كان يتصف بالحرية التامة، فيما يتصل بالطلاب، فانه يبدو أن الاساتذة أيضا، كانوا لا يجيزون الطلاب الا بعد التأكد من تمكنهم في المواد التي يدرسونها لهم (39).

اما طريقة الاجازة، فقد كانت بسيطة، ولكنها كانت مما يتلاءم والطريقة الحصيفة التي تستند الى تأكد الاستاذ من أن الطالب يكون قد احرز على التمكن الكافي في مادة يعينها، ذلك ان الاستاذ لا يراعي أية شكليات في منح الاجازة لطالب العلم على يديه، ولكنه يراعي بدقة، مدى الكفاءة التي يكون الطالب قد

---

(36) المصدر نفسه، والسعدي، المصدر السابق، ص 46.

(37) الابيات للشيخ يحيى التادلسي، الذي كان احد المدرسين اللامعين بتمبكتو آنذاك. اما المرثي، فهو محمد الكابري احد المدرسين الكبار في جامعة (سنكري) في تلك الاثناء. وقد اقتصرنا هنا على ايراد الابيات المتعلقة منها بتبيين طريقة الكابري في التدريس، وقد اورد المرثية كاملة السعدي، المصدر السابق، ص 49.

(38) لعل مما يجدر بالذكر هنا، ان طريقة الاختصاص بمادة واحدة، لو يكن يعرفها العالم قبل القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخه. أما في السابق فان اسلوب (الموسوعات) هو الذي كان يجري به العمل عند كل الامم.

(39) ذكر كل من أحمد بابا والسعدي عديدا من الاساتذة والاشياخ الذين كانا قد اخذا عليهم العلم، ولكنهما لا يشيران لمن أجازوهما من بين اولئك الاساتذة، على كثرتهم، الا القليل، بحيث لا يتجاوز عددهم اثنين او ثلاثة فقط..

حصـل عليهـا. (40) وقد كانت الشهادات تعطى فردية، بمعنى أن الطالب يستـطيع الحصـول على شهـادة من الاستاذ، في المواد التي يتقنها ذلك الاستاذ ويتعـاطى تدريسهـا، ولكنـه يبقى طالبا في مواد أخرى. وبناء على هذا، فان الشهادات كانت في شكل انطباع يسجله الاستاذ على مذكرات الطالب في مادة أو اكثر، بعد ان يكون هذا الاخير، قد اطلع على كل المؤلفات الكبيرة والصغيرة في موضوعها، وأجاد تحصيل المعلومات الموجودة بها. (41)

ومن ناحية اخرى، فقد كان الاساتذة يتحرون في العبارات التي يكتبون بها الشهادات للطلاب، بحيث ينحصر محتواها في نطاق المعلومات التي يتقنها الاستاذ المدرس ولا يتجاوزها لغيرها (42) ومن هنا يتضح مدى الدقة في نظام تلك الاجازات، رغم بساطته.

هـ) تنقلات الاساتذة والطلاب: كان توارد الاساتذة من بلدان المغرب على تمبكتو قد اخذ شكلا اوسع خلال القرن السادس عشر. وكانت نسبة كبيرة من المدرسين بتلك المدينة من بلدان المغرب (43) اما الطلبة فقد كانت لهم خلال القرن السادس عشر حركة نشيطة وراء طلب العلم، واكثر الذين كانوا يردون

---

(40) يجد المتتبع لحالات الاجازات التي أعطيت في ذلك الوقت، ان الطلبة الذين يكونون قد لازموا مجلس الاستاذ لفترة طويلة، واصبحوا حجة في المواد التي يدرسها اساتذتهم هم وحدهم الذين اعطيت لهم الاجازة في تلك المواد، وبعض الذين أعطيت لهم شهادات، كانوا قد بلغوا درجة من التحصيل والتمكن، جعلت اساتذتهم يضطرون أحيانا لنقل بعض تعليقاتهم على المسائل واجتهاداتهم فيها، ويدرسها لطلاب آخرين بمحضر منهم. ينظر (أحمد بابا، نفس المصدر، ص 79، والسعدي، نفس المصدر، ص 46).

(41)يقول أحمد بابا عن أحد الاساتذة الذين اجازوه؛ «حضرت انا عليه اشياء عدة، واجازني في جميع ما يجوز له وعنه، وكتب لي بخط يده»، نيل الابتهاج، ص 79. ولعل بهذا تثبت امامنا الشهادة كما كانت تعطى. أمـا عبـد الرحمان السعدي. فيقول عن استاذه الذي اعطاه اجازة؛ «باحثته كثيرا في المشكلات، وراجعته في المهمات، وبالجملة فهو شيخي واستاذي، ما نفعني أحد كنفعه وبكتبه... وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه)، تاريخ السودان، ص 46.

(42) المصدر نفسه، صفحات 20 ـ 48.

(43) منذ القرن الثالث عشر انتقل عدد من علماء (والاتا) الى تمبكتو، كنتيجة لانتقال مركز التجارة بين المغرب والسودان الغربي، الى تلك المدينة، وكانوا في اغلبهم من صنهاجة ومسوفة، وهما قبيلتان مغربيتان سكنتا مشارف الصحراء في عصور سابقة. والى قبيلة صنهاجة ينتسب احمد بابا، ويقال ان نهر السنغال أخذ اسمه من اسم صنهاجة. اما خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فقد كان كثير من التجار الذين وفدوا على تمبكتو تطيب لهم البقاء بين اهلها، ويباشرون التعليم فيجدون اقبالا كبيرا على دروسهم، وحينما زار ابن بطوطة تلك المنطقة في القرن الرابع عشر وجد جماعة من معارفه مقيمين هناك ويتعاطون التدريس، اما في القرن السادس عشر، فان معظم من ذكرهم احمد بابا والسعدي كأساتذة لامعين في تمبكتو كانوا من اصول مغربية، ويسجل محمود كعت وجود كثير من العلماء جاءوا من توات، واقاموا بتمبكتو خلال ذلك القرن.

على تمبكتو كانوا من المناطق الغربية. (44) وكثير من الطلبة كانوا حينما ينهون دراستهم في تمبكتو، ينتقلون الى المغرب الاقصى أو الى المشرق. اما الى المغرب، فانهم كانوا يذهبون الى مدينة مراكش بالدرجة الاولى، وبعضهم كان يقصد فاس. (45) كما كان العديد من الحجيج يغتنمون الفرصة عند ذهابهم الى المشرق، فيجالسون العلماء اللامعين بمصر والحجاز، وقد تطول اقامة بعضهم عدة سنين فلا يعودون الى تمبكتو الا بعد ان يكونوا قد حصلوا على عدد من الاجازات. (46) وقد عرف عن سكان تمبكتو حرصهم على تهيئة كل ما يمكن لهم تقديمه من أنواع المساعدات للطلبة الذين كانوا يقصدون مدينتهم (47)، وقد كان لاولئك الطلبة مشاركة اجتماعية واسعة في ولائم الافراح والجنائز. (48).

و) **التعليم المهني**: لا يوجد في كتابات المؤرخين من تلك الفترة ما يشير الى وجود تعليم مهني منظم في تمبكتو الا في ميدان الخياطة (49) وهذا بالرغم من وجود دكاكين يبدو انها كانت عديدة ومتنوعة يشغلها اصحاب الحرف المختلفة في تلك المدينة (50) اما في ميدان الخياطة، فانه يبدو ان المدينة كان بها تعليم منظم الى حد ما، وكان طلابه كثيرين، فقد ذكر كعت أنه كان يوجد بها حوالي (ستة وعشرين بيتا من بيوت الخياطين)، وكلها من النوع المتخصص في تعليم مهنة الخياطة، وكانت تسمى باللهجة المحلية (تند) بكسر الاول والاخير وسكون الوسط، (51) وكان كل بيت من بينها يتراوح عدد الطلبة فيه بين خمسين الى سبعين طالبا، ويتولى التدريس في كل بيت من بينها معلمون متخصصون في تعليم تلك المهنة يدعى كل واحد منهم (الشيخ الرئيس) (52) ولا ندري كيف

(44) كعت، نفس المصدر، ص 1980.
(45) أحمد بابا، نفس المصدر صفحات 84 ـ 79 ـ 273
(46) السعدي، المصدر السابق صفحات 20 ـ 43
(47) نفس المصدر
(48) كعت، المصدر السابق. ص 179، والسعدي، المصدر السابق، ص 22.
(49) عرفت بلاد المغرب في تلك الفترة تعليما حرفيا كان يشمل الحياكة والخياطة والنجارة وبعض الحرف الاخرى المشابهة لها. ـ ينظر (ابن مريم، المديوني ـ البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ـ تحقيق ابن ابي سنب) (م. الثعالبية) الجزائر 1908 ص 63
(50) J. L. L'AFRICAIN, op. cit, P. 293

(51) كعت، المصدر السابق، ص 180.
(52) لا ندري اصل هذه التسمية، غير ان المعروف عن ابن سينا. الفيلسوف الطبيب، انه كان قد لقب بمثل هذه العبارة، ولعل اطلاقها كان يختص بمن يتقنون حرفة ما، ويعلمونها للناس.

كان يقبل الطلبة في كل مدرسة من تلك المدارس، غير اننا اذا قارنا بها كان يوجد في الجزائر انذاك، لان تمبكتو كانت كثيرا ما تقلد المغاربة، نجد أنهم ربما كانوا يدخلون تلك المدارس المهنية ليشتغلوا بدون اجرة، وذلك حتى يتقنوا الحرفة ويحذقونها. اما قبل الوصول الى مثل هذه الغاية، فان اجرتهم انما تقابل في العادة بما يتعلمونه مجانا (53).

ز) **دور الاوقاف والصدقات**: يبدو ان الاوقاف والصدقات كانت العامل التمويلي الهام في ازدهار حركة التعليم في تمبكتو خلال القرن السادس عشر، فمعظم المصاحف والمخطوطات التي بقيت من تلك الفترة تحمل في طياتها ذكرا بتوقيفها على الجوامع من طرف اشخاص كانوا يبتغون من وراء ذلك وجه الله، كما كان تعيين الأئمة والمدرسين وترتيب الجرايات لهم يتولاه القاضي، وهو ينفق على ذلك من الاوقاف والصدقات التي كان يتلقاها بسخاء كبير من المحسنين (54) ومعظم الجوامع التي قامت في تمبكتو في تلك الفترة كان بناها افراد موسرون في شكل اوقاف للصلاة والتعليم، فمسجد سنكري مثلا (بنته امرأة واحدة اغلالية ذات مال كثير في افعال البر) على حد تعبير السعدي (55).

وكذلك الجامع الكبير فقد بناه من ماله الخاص الحاج موسى صاحب مالي وصومعته على خمسة صفوف (56).

ولقد كانت الكلمة الاولى في حكم مدينة تمبكتو تعود للقاضي، وكان يتلقى الهدايا الكثيرة بسخاء منصوص عليه في المصادر، وذلك حينما يقوم بعمل ما لتحسين مسجد أو بناء مدرسة أو توسيعها لتفي بحاجة الطلبة والاساتذة ولهذا كان قضاة تمبكتو يبدون في أعين الناس وكأنهم من اكثرهم قدرة على الانفاق في مشاريع البر من هذا النوع، التي كانوا يقومون بها بشكل مستمرّ وملفت للانتباه. (57)

---

(53) ابن مريم، نفس المصدر، ص 63 ـ 169

(54) السعدي، ذكر العلماء والصالحين الذين سكنوا تمبكتو، فصل 9 ص 9 فما بعد.

(55) المصدر نفسه ص 63

(56) المصدر نفسه ص 56

(57) المصدر نفسه ص 37 و ص 108 فما بعد

ومما يذكره المؤرخون في هذا الموضوع ايضا، ان اسقيا الحاج محمد انفق على بناء رواق من ماله الخاص في القاهرة كي يسكن فيه الطلبة والمدرسون من بلاد التكرور الوافدون على الازهر الشريف، كما انه (حبس توابيت فيها ستون جزء من المصحف... لاجل الختمة) اي قراءة الختمة من المصحف بعد صلاة الجمعة، ويذكر المؤرخون السودانيون من تلك الفترة ان الختمة (بقيت يقرأ فيها الى العشرين بعد الالف) (58) حيث وقع تعويض تلك المصاحف (باخرى حبسها الحاج علي بن سالم بن عبيدة المسراتي) (59).

وخلاصة القول: ان الاوقاف والحبس كانت متنوعة، وهناك اشارات قوية الى دورها الكبير في ازدهار حركة التعليم في تمبكتو، واذا كانت المصادر لم تعطنا التفاصيل الكافية، فهي في الاشارات العامة تشير الى هذا الدور بكل وضوح.

◈

(58) اي في جوامع تمبكتو وخاصة بالمسجد الجامع؛ (جامع سيدي يحيى)
(59) السعدي ص 58

خاتمة

لقد حظيت مدينة تمبكتو خلال القرن السادس عشر، بما لم تحظ به مدينة أخرى في غرب افريقيا في ذلك الوقت. وكان من ابرز العوامل التي هيأت لها ذلك، ازدهار الحركة التعليمية بها في المقام الاول (1) ولذا اخذت نوعا من (القداسة) في نظر الناس (2) مما حمل الحكومة على اسناد جميع امور الناس فيها للقاضي (3). وقد بلغت شهرتها الآفاق فقصدها الطلاب من جميع بلاد السودان، كما توارد عليها بعض الطلبة من مراكش أيضا (4). وأمّا الأساتذة فقد كان عدد كبير من بينهم مغاربة (5) وبهذه الصورة قامت تلك المدينة بدور كبير فيما يتعلق بنشر الثقافة في سهوب السودان الغربي كلها، كما اصبحت من بين المراكز الهامة في العالم الاسلامي جميعه واسفر ذلك عن تحضر السكان بها ولين عريكتهم وصلاح حالهم. (6) ولكن الباحث رغم ذلك كله، لا يستطيع استجلاء كل المعلومات الكافية حول الازدهار الاكيد الذي عرفته المدينة في حقل التعليم، ولايعود ذلك فقط لشح المصادر الموجودة حول هذا الموضوع، وانما يعود ايضا لندرتها. ولنا الأمل في ان يسفر النشاط الواسع الذي يقوم به الباحثون حاليا في مختلف جامعات العالم ومؤسسات البحث المنتشرة في ارجائه، عن نتائج طيبة في موضوعات التاريخ الافريقي جميعها، وكلها لايزال الغموض يكتنف العديد من جوانبها حتى الآن، أمّا الاعتماد على المصادر الشفاهية الذي يتبعه البعض، فلنا عليه تحفظات كثيرة لامجال للتفصيل فيها هنا.

---

(1) يقول كعت انها اي تمبكتو كانت (يومئذ 1591م) لا نظير لها في البلدان، من بلاد السودان الى اقصى بلاد المغرب، ثم يقرن ذلك بالحركة الثقافية فيقول عن أهلها: انهم كانوا من اكثر الناس (تلطفا بطلبة العلم واعانتهم.. كثر قراؤها وادباؤها من كوكى الى جنى) (المصدر السابق، ص 179)

(2) W.R.July, A History of the Africain people, London : (Faber), 1970, P. 68.

(3) كعت، نفس المصدر. ص 180

(4) السعدي نفس المصدر. ص 44.

(5) واعتمادا على هذا يقول السعدي ابن تنبكت الذي احبها من كل قلبه: (ما اتتها العمارة الا من المغرب، سواء في الديانات أو المعاملات)، نفس المصدر ص 21.

(6) يقول كعت في هذا المعنى: (الا من خصّ الله به تمبكتو، ونرى من بينهم مائة رجل ليس لاحد منهم حريش ولا سيف ولا مُدْيَة)، نفس المصدر، ص 180.

حركة الفكر والفنون والعمارة
حتى نهاية القرن السادس عشر

1 ـ نظرة عامة

يرى دولافـوس (1) انـه اذا كانت هناك علامات التقاء تجمع بين جميع شعوب إفريقيا السوداء (2) في الميدان الحضاري فهي الفنون بدون شك.

وإننـا لنميل لاستصواب هذا الرأي، لأن الدارس يجد هناك اختلافات عديدة بين القبائل في افريقيا الغربية، وخاصة بعد دخول الاسلام منذ القرن التـاسـع كما أسلفنـا، فالذين دخلوا منهم في الاسلام، يبدو انّهم قد تطعمت اسـاليب تفكـيرهم بمعـطيات جديدة، جاءت بالـدرجـة الأولى من اعتناقهم الاسـلام. واحتكاكهم بالمسلمين. أما الذين بقوا على الوثنية فقد حافظوا على أساليبهم القديمة في فنونهم وآدابهم.

وقـد خضعت الشعـوب في إفريقيا الغربية والوسطى حتى أواخر القرن التاسع عشر لعديد من الهجرات، فرضها عليها النزاع القبلي، وتكوين ممالك كبيرة في السودان الغربي بعد دخول الاسلام، فكانت عدة قبائل تغيّر أماكنها بين

(1) حضارات إفريقيا السوداء، باريس 1925، ص 120.

(2) يقصد بهذه التسمية إفريقا الغربية.

فترة وأخرى، وبهذا الشكل انتشر شعب الفلان مثلا في كل نواحي إفريقيا الغربية، وانتشر السراكوليون حتى مشارف بحيرة تشاد.

أمّا السنغائيون فقد امتدوا على طول نهر النيجر الاوسط والأعلى، وكانوا قبل ذلك محصورين في منطقة صغيرة على النيجر الأوسط.

وكانت هذه القبائل الثلاث في القرن العاشر، كلّ منها يسكن أماكن محدودة وخاصة بها. (3)

فالفلان كانوا في منطقة التكرور وحدها (4). والسراكوليون، كانوا يقطنون منطقة الحوض قرب السنغال الأعلى (5). أمّا قبيلة سنغاي فقد أسلفنا بأنها كانت تعيش في منطقة صغيرة على النيجر الأوسط.

وكانت كل قبيلة تنتقل من مكان الى آخر، تأخذ في المكان الجديد عددا من تقاليد القبائل الموجودة به، وتحافظ في نفس الوقت على جملة من تقاليدها في موطنها الأصلي، ومن ضمن ذلك: الفنون والأفكار.

هذا، وان القبائل التي دخلت في الاسلام، قد أخذت العربية كلغة دينية وإدارية وثقافية، ومن ثم فإنها تذوقت قسما هاما من الثقافة العربية وأنتجت فيها (6).

غير أن الطابع القديم كان يبقى مع ذلك موجودا وشديد الظهور في كثير من الحالات، وعلى هذا الاساس، فإننا يمكن أن نتتبع وضعية الفنون وتطور الانتاج الفكري خلال عهد الأسيقيين في سنغاي، وقد اقتنعنا مسبقا، بأن التمازج بين القديم والحديث سيظل هو الطابع المميز للفنون في البلاد، أماالانتاج الفكري فقد طغت عليه الصبغة الاسلامية، وما ذلك إلاّ لأن الذين كانوا ينتجون

---

(3) انظر بولم ـ الحضارات الافريقية ـ ص 19.
(4) السنغال الشرقي حاليا، على الاكثر.
(5) الجنوب الموريطاني حاليا.
(6) انظر أحمد بابا ـ معراج السعود ـ مخطوط المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 5291 الورقة.

في هذا الميدان إنما كانت تمثلهم النخبة التي تمكنت من الدين الاسلامي بواسطة اللغة العربية. ومن هنا فإنّ النظرة العامة للفنون وحركة الفكر في سنغاي، تفضي بالباحث إلى الميل بأن ميدان الفنون كان عاما، وفي حين كان ميدان تطور الحركة الفكرية ضيّقا ومحدودا.

والفارق الواضح يتجسّم أمامنا في أن حركة الفكر قد اصطبغت بصبغة جديدة، هي التي كان يمثلها الانسجام الكلي مع الاسلام، في حين أن ميدان الفنون بقي يتجاذبه القديم أكثر، وما ذلك الاّ لأن العامة لم يكن ممكنا أمامها ـ على ما يظهر ـ إلا التلاصق مع القديم لمدة طويلة، فهي لا تستطيع أن تتخلى عنه أو تقطع صلتها به إلا ببطء، وهذا بخلاف المجموعات الصغيرة المتمثلة في طبقة المتعلمين، فان تعلمها قد مكنها في فترة قصيرة من الانجذاب الى الجديد والأخذ به وحده.

لقد اختلفت إذن ميادين كل من الفكر والفنون في مجتمع سنغاي، كما اختلفت طبيعة كل منها، بالرغم من شيوع النظرية القائلة بوحدتها على أيامنا (7)، ولذا فإننا لايمكن لنا فيما يلي إلاّ أن نخص كلا منهما بالحديث على حدة.

2 ـ الحركة الفكرية

لقد ظهرت الحركة الفكرية وتطوّرت ـ حسبما يتبينها الباحث من مختلف الوثائق الموجودة ـ في ثلاثة ميادين، هي: الآداب ـ التاريخ ـ الشرعيات وعلوم اللغة ـ ووفق هذا التصنيف، يمكن لنا أن نتتبع تطورها فيما يلي:

أ ـ الآداب وأسلوب الكتابة

لم يكن للافريقيين في غرب افريقيا من قبل مجيء الاسلام من الآداب (8)

---

(7) من ذلك مثلا ما يراه «جونهاينز، ص 26» من أن الثقافة الافريقية في مظهرها الحالي على الاقل، هي من المعارف العامة عن الكون، ومن الفنون ومن صبغة السلوك العامة المكيّفة بكل من المعارف والفنون، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة قائمة بذاتها، لا يمكن فصل جانب منها عن الآخر.

(8) نعني بالآداب هنا، مختلف المواضيع التي انتج فيها السودانيون آنذاك فى غير الشرعيات والتاريخ.

سوى حكـايات يتنـاقلونها بالمشافهة، أصاغر عن أكابر، وهي تروي بطولات الأجداد وأصول القبائل وحروب الملوك والرؤساء وكذا العراك مع الطبيعة (9)، فهي آداب غير مكتوبة، ولكن كان لها أثرها في حياة الناس، وبالتالي فانها تجسم أمـامنـا فكرة عامة لكل جماعة من حيث طابعها المميز، ومعتقداتها في الحياة، وأهدافها في العمل.

ولما جاء الاسلام اعتنقه الافريقيون، في غرب افريقيا، على مستويات مختلفـة، فهنـاك جماعـات الـرؤساء والعلماء والعائلات الكبيرة التي تمكنت من استيعاب مفاهيم الاسلام، بفضل احتكاكها بالعرب من التجار والفقهاء، الذين كان تواردهم على البلاد لا يفتأ يزداد باستمرار كما رأينا (10).

أما العامة فقد بقيت متأصلة فيها أكثر تقاليدها القديمة وطرقها في الفكر والحياة، واعتنقت الاسـلام في أغلب الأحيان دون تحول كبير عن نظام حياتها الأول، في هذه الناحية.

وهذه الصورة هي عينها التي كانت عليها الشعوب التي تكونت منها مملكة سنغاي على أيام الأسيقيين.

فنحن نجـد في المـدن الكبـيرة التي كانت ترتكـز حولهـا ميادين النشاط الانتـاجي والتعامل التجاري، مثل تمبكتو، غاو، جني، والاتا وسواها، علماء ومفكرين وقضاة، قد تمكنوا من دراسة العربية والاسلام، حتى أصبحوا ينتجون في ميادينها، مختلف مؤلفاتهم، بالشروح والكتابات التاريخية والفقهية، على النمط الذي كان عند العرب، في المشرق والمغرب على السواء. ولكن هذه الفئة من المجتمـع الافريقي الغربي، لم تكن لتزيد نسبتها عن نسبة الأقلية الضئيلة بين سكان المنطقة ككل.

أما النسبة الكبيرة الباقية من شعوب تلك الممالك، فقد بقيت على الأسلوب الافريقي الأول في التطارح الأدبي عن طريق الحكايات الشعبية والتغنّي بأمجاد الأسلاف، وابطال المجتمع في صراعهم مع مظاهر الطبيعة المتنوعة.

---

(9) انظر: إكيلباك ـ الحكاية الأهلية ـ باريس، 1913، ص 2 وما يليها. وكذلك ديشمب إفريقيا قبل الاستعمار ـ ص 11.

(10) انظر فصل العلاقات الخارجية، وكذلك الفصل المتعلق بالتجارة من هذا الكتاب.

وبـما أن هذا النـوع من الآداب، كما يمكن لنـا أن نسميه، لم يكن قد سجّل، فإنه غير الممكن معالجة موضوعه وقواعده هنا.

أما النوع الآخر منه، وهو الذي ناله التسجيل، فبالرغم من أنّه لا يمثل الاّ الأقلية من أفراد المجتمع، إلا أنّه هو الذي يمكن لنا أن نتناوله وحده بالدرس لأن قسما هاما من مصادره الأساسية موجود.

وإذا كان هذا الصنف من الآداب لا يمثل الا الاقلية كما رأينا، فإن ذلك لا يمكن أن ينقص من قيمته في نظرنا، لأن تلك الأقلية، بالرغم من كونها أقلية، فإنها كانت تمثّل النخبة الرائدة، التي كانت تقود المجتمع وتمثل وسطه العنصر الذي يسعى للدخول به إلى ميادين التقدم، وعليها وحدها إذن، كان يقع عبء استهداف الأفضل في حياة المجتمع، وعلى ضوء ارشادها وتوجيهاتها، كان يمكن للمجتمع في الغرب الافريقي السير نحو التطور.

ومن هنا تصبح تقييماتنا لهذا القسم من الأدب، وحسب الامكان، مفيدة وضرورية.

لم نعثر لكتاب السودان الغربي قبل القرن الثامن عشر على أشعار، ولكنهم كانوا كثيرا ما يستشهدون بأشعار وكتابات لشعراء العرب وكتابهم فعبد الرحمان السعدي يقول عن تمبكتو بأنها تشبه في روعتها وجمالها، ما كان قد شبه به الهمذاني البصرة في مقاماته (11).

أما أحمد بابا، فهو يستشهد على صواب نظريته في أنّ السّواد في لون البشرة لدى الانسـان، إنما مردّه إلى العوامل المناخية والطبيعية، وبرأي ابن خلدون، ويورد رجز أبي علي بن سينا الذي لخص فيه رأيه في نفس الموضوع بقوله:

حرّ غيّر الاجسادا	حتى كسا جلودها سوادا
والصلغب اكتسبه بياضا	حتى غدت جلودها فضاضا

(11) انظر (عبد الرحمان السعدي) ص 18

وهذا يدل على اطلاع السودانيين الكافي على الأشعار العربية والكتابات المنّمقة لدى الهمذاني والحريري وغيرهما.

ولكني لم أعثر على أشعار من انتاج سوداني في تلك الفترة. (12)

أمّا الأسلوب الذي كانوا يكتبون به، فإنّنا إذا أخذنا أحمد بابا كمثال، لأنه عاش في نفس الفترة وكتب خلالها أيضا، فإن اسلوبه شيق وجزل ومتين.

شيق من حيث ان الموضوعات التي طرقها موضوعات طريفة في حد ذاتها فقد ألّف في تراجم علماء المالكية، وكتب رسالة حول حكم الاسلام في امتلاك المسلم للمسلم كعبد، ضمّنها رأيه الخاص أيضا. (13)

وقد عالج أحمد بابا ذلك الموضوع بأسلوب علمي موضوعي، ويظهر من عباراته أنه كتبه كإبداء رأي في احدى مشاكل مجتمعه في عصره.

وأمّا جزالة أسلوب أحمد بابا فإنّها تتمثّل أمامنا في تمكنه من الالفاظ التي يستعملها وفي المفردات التي تتركب منها جمله، فهي كلّها متناسقة، مما جعل جمله قصيرة أيضا، شأن المتمكن من اللغة.

وأمّا المتانة في أسلوب أحمد بابا فإنّنا لنلمسها في أنّ الرجل، ألفاظه بقدر معانيه أمّا عباراته فهي شديدة الدلالة على ما يقصد.

وعلى العكس من أحمد بابا، نجد كلا من أسلوب السعدي ومحمود كعت بعيدين عن المتانة والجزالة، وكثيرا ما يتخللها الحشو، وأحيانا نجد لديهما تعابير غامضة استعملت فيها مفردات أخذاها من الدارجة في تمبكتو على أيامهما.

---

(12) أورد الالوري (تاريخ نيجيريا) عدة ابيات في طلب العلم والتزهد نسبها لشعراء سودانيين، ولم يبين أصحابها ولا تاريخها، ويرجّح أنها لكتاب من العهود المتأخرة. (الالوري، ص 49).

(13) سمى أحمد بابا هذه الرسالة (الكشف والبيان بحكم مجلوب السودان)، ثم قال: (وان شئت فسمه معراج السعود الى نيل حكم مجلوب السود) (ورقات 19 ـ 23) من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 1893، وتوجد من هذه الرسالة ثماني نسخ في مكتبة الرباط (انظر الكتاني في مجلة هسبريس رقم 9 لسنة 1968، ص 53 وما يليها).

ربما يعود الفرق في اسلوبهما عن أحمد بابا، إلى أنّ هذا الاخير عاش وكتب في أيام ازدهار الثقافة العربية بالسودان الغربي على أيامه، في حين كتب السعدي وكعت بعد تلك الفترة، حينما بدأت تضعف مكانة اللغة العربية بالبلاد (14).

ونجد كتابة سودانية أيضا باللغة العربية من فترة الاسيقيين في الأسئلة السبعة التي كان قد بعث بها الحاج محمد الأول إلى الإمام المغيلي حوالي سنة 1502، فكل سؤال من بينها يحتوي على أكثر من سطرين أمّا عباراتها فشديدة القوة والتماسك، ولكننا لا نستطيع الجزم بأن كاتبها سوداني، لأن الاخبار تواترت إلينا عن وجود كتاب مغاربة في بلاط الأسقيا في ذلك الوقت، ولذا فغير مؤكد لدينا نسبة صياغة تلك الأسئلة لكاتب سوداني (15).

والنتيجة التي يمكن أن ننتهي إليها في موضوع الكتابة الأدبية حتى نهاية القرن السادس عشر، أن معظم الكتابات التي وصلت إلينا من ذلك الوقت هي كتابات قليلة من حيث الكمية، وكلها مكتوبة باللغة العربية.

ومن الاطلاع عليها يستطيع الدارس أن ينتهي الى القول بان الكتابة باللغة العربية قد بلغت مستوى متوسطا لدى كتّاب ذلك الوقت من السودانيين فقد كتب أولئك السودانيون في مواضيع اجتماعية عديدة أثناء تصدّيهم للكتابة في التاريخ والفقه، ولكن لم تؤثر لنا عنهم اشعار تستحق الذكر سوى ضروب من الرجز الذي كانوا يستعملونه أحيانا لضبط معلوماتهم في الفقه والفرائض والمنطق (16). ولذا فإن تحليل ميادين وطبيعة انتاجهم فيما يأتي سيمكننا أكثر من أخذ فكرة إجمالية عن تطور الحركة الفكرية في ذلك الوقت.

---

(14) القرنان 16 و17. هذا ويذهب العلامة هوداس أثناء تعليقه على تاريخ الفتاش وتاريخ السودان الى انهما أكملا من طرف أحفاد المؤلفين، وليست كل النسختين من كتابة واسلوب مؤلفيهما الاصليين. (انظر تاريخ السودان وتاريخ الفتاش نشر ميوزوناف، باريس 1964)، في المقدمة.

(15) من المعروف في تاريخ الحضارة الاسلامية أن كتاب الملوك كانوا يسمون بـ (كتاب الانشاء) أو (كتاب الرسائل)، وكانوا يختارون من بين ابرع الكتاب واللغويين، ولذا فان الذي كتب رسالة الاسقيا الى المغيلي، لا شك أنه كان من نوع الكتاب البارعين.

(16) نستثني هنا ما ذكره اليفراني في نزهة الهادي بأخبار ملوك القرن الحادي (مخطوط مدرسة اللغات الشرقية تحت رقم(HD IV 13)، فقد نسب لاحمد بابا ثمانية أبيات نظمها في التعبير عن الحنين الى وطنه حينما كان في مراكش منفيا، ولم يكن أحمد بابا شاعرا كما هو معروف، ولذا كان نظم تلك الابيات غير سليم. وهذه الابيات هي:

← ←

ب ـ الشرعيات وعلوم اللغة

تحدث السعدي (17) طويلا عن العلماء والفقهاء الذين تولوا مناصب قضائية في بلاد سنغاي على أيام الأسيقيين وقبلهم كما أتى بقوائم طويلة للأئمة والمدرسين وقد زاد عدد من ذكرهم على المائتين، وأثنى على كل واحد منهم لتمكّنه من العلوم وبذله الجهود العظيمة في تحصيلها واشاعتها.

وفي جميع القوائم (18) التي ذكرها، لم نعثر إلا على رجلين فقط، قال عنهما إنهما كانا بالاضافة الى تمكنهما من الفقه والتفسير لهما اطلاع على الأدب العربي، أمّا الذين أتقنوا النحو والصرف بالاضافة الى الفرائض والتفسير فهم ثلاثة، وهناك واحد من بينهم فقط قال عنه انه يحسن المنطق. وبهذا يتضح أن مادة الفكر الأساسية كانت الشرعيات وعلوم اللغة.

وحينما نتتبع عباراته، نجد ان جميع أولئك العلماء كانوا أولياء الله، وقد ثبتت لكل واحد منهم ـ بناء على رأي السعدي ـ معجزات وخوارق، شهد له بها الناس في زمانه وقدّروه لأجلها، وكانوا يتبركون به.

وهذا ربما يدلنا على أن الشعوذة كانت تختلط بأفكار الناس، ولم يكن أولئك الفقهاء والمفسرون يختلفون في ذلك عن غيرهم، ويفسر هذا بأن الكثيرين من

→ →

أيا قاصدا كاغو فعج نحو بلدتي	وزمزم لهم باسمي وبلغ احبتي
سلاما عطيرا من غريب وشائق	إلي وطن الأحباب رهطتي وجيرتي
وعندي اقارب هناك أعزة	علي، السادة الألى دفنبت بغربتي
ابي زيدهم شيخ الفضائل والهدى	وصنو أبي عمي وأقرب أسرتي
وسيفي فسيف البين سل لفقدهم	علي، وهل الموت ركني وعمدتي
ولا ننسى عبد الله ذا المجدو الندى	فقد مد حزني فقد قوتي وعشرتي
وشبان بيتي سارعوا عن أخيرهم	الى ملك الاملاك في وقت غربتي
فوا اسفا منهم وحزني عليهم	فيا رب فارحمهم بواسع رحمتي

(17) صفحات 8 ـ 63.

(18) لقد ذكر السعدي كل من عرفهم ومن حكى له عنهم، ثم نقل كل ما كتبه أحمد بابا في الديباج عن تراجم علماء السودان، ولذا فإن حديثه عن علماء السودان أثناء عهد الأسيقيين يعتبر أكمل ما تحتويه جميع المصادر المتوافرة حتى الآن.

أولئك العلماء لم تمكنهم ثقافتهم من فهم أغراض الشريعة الفهم اللائق، فهم وان اتقنوا الكثير من أحكام الفرائض وحفظوا الاحاديث، الا ان فهمهم لعميق أغراض الشريعة ظل سطحيا.

ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة أن الأسقيا محمد الكبير قد أظهر في أسئلته التي استفتى فيها المغيلي، تألمه الشديد من كون علماء بلاده لا يفقهون من الدين الاسلامي إلا بعض الأحكام البسيطة، وفهمهم في الغالب لها سقيم، ومع ذلك فهم يتباهون على الناس بغزير علمهم ويجدون من بين العامة من يتبعهم ويصدق كل ما يقولون (19).

ولهذا لم نعثر في جميع المصادر على أي مؤلف قائم بذاته لعلماء السودان حتى نهاية عهد الأسيقيين في مجالات الفقه والتفسير واللغة، وكل ما كتبوه في ذلك على كثرته لا يعدو أن يكون حاشية لشرح، أو شرحا لتصنيف، أو نظما في قالب رجز لمصنف من المصنفات التي كتبها المشارقة أو المغاربة، أو تفسيرا لجزء من القرآن، يعتمد فيه صاحبه على شرح لعالم آخر من خارج السودان.

ولهذا فلنا أن نقول عن اقتناع بأن جل المواضيع التي أنتج فيها السودانيون انتاجا مستقلا في تلك الأثناء، لم يكن في الأدب ولا في الشريعة واللغة، وانما كان في ميدان التاريخ.

جـ ـ التاريخ

اذا تجاوزنا ما كتبه أحمد بابا في تراجم الفقهاء والمفسرين (لان موضوعه كان أميل الى الفقه) فإن هناك رجلين بارزين قد أنتجا في ميدان التاريخ انتاجا سودانيا قائما بذاته، وهما: عبد الرحمان السعدي بن الحاج المتوكل، والقاضي محمود كعت. وقد عاش محمود كعت في أيام الأسقيا الحاج محمد الكبير، وألف كتابه (تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الامور وتفريق أنساب العبيد من الاحرار) خلال القرن السادس عشر، وحسب تاريخ السودان للسعدي أنه ولد سنة 1468 وابتدأ كتابة مؤلفه وهو في

(19) انظر أسئلة الاسقيا ـ مخطوط الجزائر، ج 37 (ج) ورقة 4.

سن الخمسين (20) وتوفي حوالي سنة 1593 الموافق لسنة 1002 للهجرة، وعلى هذا الاعتبار يكون كعت قد حضر احتلال المغاربة للسودان، ولكن الحوادث التي احتواها الكتاب تجتاز عمره بست سنوات، مما يبعث على الظن بأن الكتاب قد أتمه بعض أحفاده بعد وفاته. ورغم اتساع عنوان الكتاب فانه لم يشتمل على تسجيل الحوادث الهامة كلها عن دولة سنغاي، ولكن لغته أسلم من لغة تاريخ السودان للسعدي، كما انه أكثر منه اشتمالا على مظاهر الحياة الاجتماعية.

وقد بدأ كعت مؤلفه بالحديث عن بداية عهد الأسقيا محمد فاثنى عليه كثيرا ووصفه بالعدل والصلاح في حين أنحى بالآئمة على سلفه سني علي ووصفه بالمروق على الدين والمجون السافل، وختمه بالحديث عن تمبكتو حين غزاها المغاربة وكيف ساء حالها بعد صلاح. وأرجع كعت مجيء محلة المغاربة وأسباب النكبات التي حلت بسنغاي إلى فساد اخلاق السكان في الاخير واستهتار المتأخرين من ملوك الأساقي ويظهر انه اشتد به التأثر بعد ان أمر مولاي أحمد المنصور بإجلاء العلماء المثقفين عن تمبكتو وحملهم إلى مراكش، وأصبحت تلك المدينة بدون مثقفين فكان مما قاله: «ولما أجلاهم القوم وارتحلواصارت تمبكتو جسما بلا روح وانعكس (1) أمرها وتغير حالها وتبدل (21) عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد ارذالها على عظمائها» (22).

وأما عبد الرحمان السعدي فقد ألف هو الآخر كتابا في تاريخ عهد الأسيقيين بسنغاي والفترة المغربية بالسودان الغربي وسماه (تاريخ السودان). وقد ولد السعدي حوالي سنة 1596 أي بعد وفاة محمود كعت بثلاث سنوات. ولذا فقد كتب في العهد المغربي، وجاءت حوادث ذلك العهد مفصلة في كتابه في حين جاءت حوادث الفترة السابقة مختصرة.

وفي المقدمة ذكر السعدي الأسباب التي حدت به للتأليف في هذا الموضوع فقال: (ولما رأيت انقراض ذلك العلم (23) ودروسه، وذهاب ديناره وفلوسه، وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد، لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه واسلافه

---

(20) انظر تقريض هودارس لتاريخ الفتاش، طبعة 1913، ص 16.

(21) هكذا في الاصل.

(22) كعت، ص 175.

(23) اي علم التاريخ.

وتواريخهم ووفاياتهم، فاستعنت بالله سبحانه في كتب (24) ما رويت من ذكر ملوك السودان، أهل سغي (24) وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكتو ونشأتها ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية، سلطان مدينة الحمراء مراكش) (25).

وقد بدأ المؤلف بعد ذلك بالحديث عن العلماء والمصلحين في سنغاي، كما ذكر في البداية أن البلاد أصبحت في ذلك الوقت إلى ضعف وقد أرجع ذلك كما فعل كعت من قبله إلى سوء الأخلاق وفساد سيرة الحكام بين الرعية.

أما أسلوبه فهو مفكك وعباراته غير مستقيمة غالبا، مما يدل على أن حركة الفكر في البلاد قد آلت هي الأخرى الى ضعف في آخر أيام الأساقي.

والقسم الأكبر من تاريخ السودان هو الذي خصصه السعدي للحديث عن حكم الباشوات المغاربة في سنغاي، ولذا يعتبر مؤلفه من أوفر المصادر عن بلاد السودان في تلك الفترة.

والنتيجة التي يمكن أن ينتهي إليها الباحث حول تطور الحركة الفكرية بالسودان الغربي على أيام الأسيقيين هي: أن الأبحاث كانت نشيطة في علوم الشرع واللغة ولكنها ظلت تتصف بالاستيعاب دون أن تتجاوزه الى مرحلة الانتاج المستقل، أما في الأدب فلم يكن لها إلا وجود ضعيف جدا، ولكن الحركة الفكرية رأت نشاطا ملحوظا في ميدان التاريخ، وقد كان ولا يزال مؤلف كل من عبد الرحمان السعدي ومحمود كعت أبرز الأمثلة على استقلالها وأصالتها في هذا المجال ولا يبدو كل من الرجلين أكثر علما من أحمد بابا ولا أكثر انتاجا منه (26)، ولكنهما ألفا في موضوعات مستقلة مما جعل عملهما بمثابة عنوان على الانتاج السوداني الصرف في تلك الفترة.

---

(24) كذا في الاصل.

(25) السعدي، ص 2.

(26) ترك احمد بابا اكثر من 700 مجلد بعضها موجود وبعضها مفقود وقد توفي سنة 943هـ عن عمر ناهز الثمانين سنة، ولكن مؤلفاته تخرج عن نطاق التصنيف والشرح والافتاء في موضوعات فقهية على الأكثر، وقليل منها كان في النحو. انظر تعليقات هودارس عن تاريخ السودان،

3 ـ الفنون (*)

الموسيقى والـرقص والغناء والنقش والنحت هي الأقسام التي بلغ فيها الافريقيون درجة معتبرة في الحذق والمهارة بغرب إفريقيا.

وقـد لاحظ لنـا الكتـاب والجغـرافيون العرب في أيام مالي وسنغاي ولع الافريقيين وبراعتهم في الرقص والموسيقى والغناء بصورة خاصة في المناطق التي وصلوا اليها وعرفوها.

فقد كتب لنا القلقشندي (27) أن السكان في غرب إفريقيا بارعون في الغناء والرقص والموسيقى، ولهم ولع كبير بتلك الفنون.

أما الحسن الوزاني فقد ذهب الى القول بأنه شاهد بنفسه في بلاد سنغاي أن سكان الاحياء المختلفة يبيتون في غناء ورقص حتى مطلع الفجر، وتزداد، تلك الظاهرة انتشارا وقوة لديهم خلال الاعياد والمناسبات (28).

وقد اطنب كل من السعدي وكعت في الحديث عن الطنابير الملكية التي كانت لا تفتأ تدق في كل مناسبة يخرج فيها الملك للقيام بجولة في المدينة أو للسفر، أما أثناء خروج الجيش فإن ضربات الطبول كانت لا تتوقف حتى وهو في المعركة.

وأثنـاء الـدخـول في المعارك يهتف الناس مغنين ومنشدين حتى يندفعوا للمعركة بشجاعة وليرهبوا أعداءهم (29).

أما رؤساء الولايات والموظفون الكبار فقد كان لكل منهم فرقة خاصة به

(*) الفنون التشكيلية (باستثناء ما اتصل منها بفن العمارة) لم يكن لها وجود يستحق الذكر بسنغاي على ايام الأسيقيين، حيث أنه لم يعثر في خرائب مساكنهم سوى على بعض الدمى البسيطة كلعب للاطفال، أما النصوص فلم تأت بشيء في هذا الموضوع، ويظهر أن ذلك كان بتأثير من الاسلام، لأن الحفريات قد أثبتت الازدهار الذي عرفه فن النحت خلال نفس الفترة في المناطق الوثنية المجاورة لسنغاي من ناحية الجنوب والجنوب الغربي.

(27) (2) ج 3، ص 224 (وقد ألفه في القرن 15).

(28) ليون الافريقي ص 101.

(29) انظر كعت ص 29 ـ 31 ـ 86 ـ والسعدي 19 ـ 23 ـ 69.

تضرب له الطبول وتغني وترقص سواء أثناء مجيئه الى العاصمة أو أثناء تنقلاته العادية داخل الاقليم الذي يحكمه (30).

ومن هذا كله تبين لنا أنّ الولع بالغناء والموسيقى والرقص وتعاطيها كان رسميا وشعبيا في آن واحد.

أمّا آلات الطرب فاننا نعرف مما كان موجودا منها لدى الناس في سنغاي على أيام الأسيقيين مثلا، الطبول، وكانت أنواعا، منها الكبيرة التي يستعملها الحرس الملكي بالجيش، ومنها الصغيرة التي يستعملها الناس العاديون (31).

كما كانت معروفة لديهم أيضا الابواق، وقد كانوا يتخذونها غالبا من قرون الابقار وأنياب الفيلة. ولكن استعمال الابواق كان رسميا أكثر منه شعبيا وعاما (32).

كما كانوا يعرفون ويستعملون أيضا قصبات اليراع كمزامير. وكانوا حين الغناء في الغالب يبدأ شخص واحد ثم يشاركه الحاضرون إثر ذلك، غير أنه في المواكب الرسمية كانت لا تغني سوى المجموعة المخصصة لذلك (33).

أمّا الرقص فإنهم كانوا يشتركون فيه أيضا بشكل جماعي، ويسيرون على ضربات الطبول. ولكن في غير انتظام إيقاعي دقيق، لأن الرقص، كان يثير فيهم نوعا من الهوس. كما يفهم من عبارات المؤرخين في هذا الشأن، ولذا فإنهم كانوا يندفعون فيه أكثر كلما استمر، فيختل النظام وتسود الجلبة والصخب.

4 ـ العمارة

إن الفن المعماري الاصيل لافريقيا الغربية قبل الاسلام، هو البناء

---

(30) هذا ما يستنتجه الباحث من أخبار الولاة. كما تحدث عنها السعدي.
(31) يفرق السعدي وكعت معا، بين الطبول الملكية وغيرها. ومن عباراتهما في ذلك (ضربوا له طبل السلطنة)، (والزنجيات الضاربات على الطبل). مما يفيد المعرفة الواسعة بأنواع الدفوف.
(32) لا نجد لدى الكتاب السودانيين في تلك الفترة ذكرا للبوق، الا مقترنا بجيش السلطان وحرسه.
(33) كعت أثناء الحديث عن مناسبات الافراح في غاو وتنبكت.

المستدير المغطاة سطوحه دائما بالاخصاص والقش في شكل هرمي، وربما يعود ابتداع ذلك، الى عامل التكيف مع المناخ، حيث أن فصل الامطار بالمنطقة، تحفل السحب فيه بأمطار غزيرة.

أما الحيطان فتبنى بالطوب، ونادرا ما تتخللها الحجارة. وكان يتميز في الغالب بناء الذّوات والاغنياء عن بناء العامة بأن حيطان بيوت الاغنياء تبنى عادة بالآجر (أي الطوب المشوي)، في حين تبنى بيوت الفقراء والمتوسطي الحال أيضا بالطوب المجفف وقد يخلط بالتبن احيانا حتى يزداد صلابة (34).

وقد وجدت لدى سكان إفريقيا الغربية عادة بناء حوش أو زريبة أمام المنزل لايواء الحيوانات فيه، أو لستر المنزل، وخاصة لدى قبائل الفلّان.

ومنذ 1325 حمل كنكان موسى سلطان مالي معه إلى السودان الغربي حين عودته من الحج المهندس الأندلسي (الساحلي الغرناطي) الشاعر، وقد بنى هذا الرجل بمجرد وصوله مع مساعديه مساجد في كل من تمبكتو، غاو، وينّي (35).

ومنذ تلك الفترة تولّد شكل آخر من الاشكال المعمارية في السودان.

ولقد بنى الساحلي مساجد وربما بنى دورا للسلطان، وعلى كل حال فإن عمله قد مكن لاستمرار طريقته في البناء بعده بالسودان الغربي، حيث يبدو أن هندسته اعتبرت أرفع الأنواع وقلّدت.

وهكذا نصل الى سنغاي على أيام الأسيقيين، القرن 15 و16 فنجد فيها شيوع الأشكال التالية لفن البناء، وهي:

أ) الشكل الافريقي القديم: الحائط مستدير والقاعدة كذلك، وهو مسقوف بالتبن أو القش والاخصاص، وغالبا يكون أمامه حوش في شكل دائري.

---

(34) انظر: دولافوس (حضارات افريقيا الغربية)، ص 135.

(35) انظر دولافوس - حضارات افريقيا الغربية - ص 135.

ب) الشكل المربع المسقوف بالتراب، والمحاطة جوْانبه مّن أعلى بإطار قليل الارتفاع، وكثيرا ما تتخلل الاطار ثقب صغيرة، لئلا تستقر المياه على السطح، وكان هذا خاصا بدور السادة في البداية ثم عمّ استعماله لدى الجميع.

وهذا النوع من البناء هو الذي كان يستعمل في بلدان المغرب وحتى في الأندلس، ولذا يمكن أن نسميه الطراز المغربي - الأندلسي، وفيه تتخلل الفناء بركة اصطناعية يكبر حجمها ويغنى حسب درجات الناس وامكانياتهم.

ج) الشكل الهرمي: وهو يتمثل في بناء المساجد خاصة ببلاد السودان الغربي على عهد الأسيقيين، وتخطيطه هو ان يبنى المسجد في هيئة مربعة، ثم ترتفع حيطانه وتتخللها الاعمدة التي توصل بينها حين تتقارب من بعضها في الاقسام العليا، وبعد أن يسقف تبنى الصومعة، في وسط السطح من أعلى، ويكون بناؤها على شكل هرمي في الغالب، وقد يكون مربعا أحيانا، أما نهايتها فهي حادة دائما.

وأطراف السقف العليا حول قاعدة الصومعة، تحاط بسياج تكون اركانه الاربعة او الستة مرتفعة عن المستوى في شكل هرمي أيضا، أما الثقوب، فإنها تتخلل ذلك السياج بشكل دائم تقريبا.

ولا يزال قائما من الابنية التي بقيت من أيام الأسيقيين حتى الآن: قبر الحاج محمد الأول في غاو، ومسجد جني (36)

أما بقية المساجد المنتشرة في انحاء السودان الغربي والتي لها هذا الطابع، فهي كلها حديثة (37).

---

(36) انظر دولافوس - حضارات افريقيا - ص 134

(37) ذهب انتا ديوب أثناء حديثه عن هذا النوع من العمارة في السودان الغربي، الى أنها من أثر بيزنطي، وهو رأي يبدو أنه خاطىء تماما، إذ الواقع يثبت أنها من أثر نوبي، فقد كان هذا هو شكل بناء بلاد النوبة منذ القديم، وكان لبلاد النوبة أثر واضح على عدة جهات من افريقيا في هذا الميدان، وذلك للهجرات التي انتقلت منها، خلال العصور التي تلت ميلاد المسيح. (انظر دافيدسون، افريقيا، ص 17 - 39، وكورنوفان، ص 240).

ويبقى ان نشير أخيرا الى أن كلاّ من الشكل المربع والشكل الهرمي دائما يرتفع في ناحية من نواحيه سلم ينتهي الى السطح ، وهذا السّلم في الغالب يزين السودانيون جوانبه بعدة ثقوب في الحائط الوقائي على جانبي السلم .

ولا تزال لحد الآن هذه الأشكال الثلاثة للهندسة المعمارية يلاحظ وجودها في السودان الغربي وحول حوض النيجر، كما كانت على عهد الأسيقيين في سنغاي ومالي .

وهكذا يتبين أنّ فنّ العمارة في السودان الغربي وإن خالطه الكثير من التقليد الخارجي ، فإن وجود الطابع السوداني ظل بارزا وطغى على المستورد فامتزج هذا الأخير به وتكيف له ، ونشأ من ذلك فنّ العمارة السوداني المعروف بميزاته الخاصة به حتى الآن .



التيجانية والقادرية في فترة الجهاد
(القرنان 18 و 19)

لا يزال كثير من رجالات الحضارة العربية وساستها وعلمائها الكبار في غرب افـريقيا والمشارف الجنوبية للصحراء الافريقية الكبرى، وخاصة خلال القرنين السّـالفـين لقـرننـا هذا، مجهولين لدى معظم القرّاء العرب في مختلف البلدان العـربية. ويعود ذلك الى الفترة الاستعمارية الأوروبية في الغرب الافريقي وفي البلدان العـربية على السـواء، فقد استعمر الفرنسيون كامل الغرب الافريقي ومناطق الصحراء منذ نهاية القرن الماضي كما هو معلوم، وراحوا يعملون منذ ذلك الحين على فصل غرب افريقيا عن شمالها، فكونوا جيش (المهارة: الجمال السريعة) ليراقب حركة الأفراد والقوافل ويمنعها، وفي الوقت نفسه منعوا استعمال اللّغة العربية التي ظلّت حتّى بداية القرن العشرين هي اللغة الرسمية والثقافية لكل سكان افريقيا الغربية (1).

لقد اخذت الثقافة العربية الاسلامية طريقها الى غرب افريقيا مع بداية القـرن الثـامن الميلادي، وبلغت أوج ازدهـارهـا في تلك البـلاد خلال القرن السادس عشر، حيث حسن اسلام الناس وتكاثر علماؤهم وأصبحت المنطقة كلها امتدادا طبيعيا للثقافة العربية الاسلامية، (2) ثم دخل الغرب الافريقي عصر

---

(1) انظر على سبيل المثال: circulaire du gouv. générale, Ponty, MAI 1911
القاضي يمنع استعمال العربية في المحاكم الاهلية نهائيا، وكانت هي اخر المؤسسات التي احتفظت بالعربية حتى ذلك التاريخ.

(2) انظر، عبد القادر زبادية ـ مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الجزائر 1972.

الانحطاط خلال القرنين 17 و18 ، فلما كان القرن التاسع عشر رأت تلك البلاد الشاسعة حركة احياء قام بها علماء غيورون في جهات عديدة من غرب افريقيا الواسع ، وذلك بقصد اقامة دول في مناطقهم حسب المفهوم الاسلامي في الحكم والاصلاح ، وهو ما يعرف في تاريخ المنطقة كلها بحركة الجهاد التي كان من ابرز رجالها : الشيخ عثمان دانْ فُودْيُو في بلاد الحوصا بنيجيريا الحالية ، ثم تبعه الشيخ أحماد و(أحمد) الماسيني بحركة مماثلة في منطقته في الشمال الشرقي من مالي الحالية ، وأخيرا جاء دور الحاج عمر الفوتي الذي كون امبراطورية للتيجانيين التّوكولور كانت تمتد من السنغال غربا الى حدود نهر النيجر الغربية (3).

لقد كانت حركة الحاج عمر الفوتي هي آخر الحركات الجهادية الكبيرة في الغرب الافريقي قبل الاحتلال الفرنسي، ولم يكرس الحاج عمر جهوده كلها لاخراج الفرنسيين من سان لويس لانه كان ينطلق من قاعدة أن الفرنسيين أهل جزية، وثورته كانت تستهدف ادخال اصلاحات في بلاد الاسلام وفق الطريقة التيجانية باعتباره خليفتها المعين على الغرب الافريقي وقد أدّاه ذلك الى الاصطدام بكل زعماء المنطقة الذين كانوا قادريين.

وقد نجح الحاج عمر في اكتساح كل المنطقة الغربية (السنغال ومالي) حتى حدود تمبكتو، وذلك بفضل جيشه (الصّوفا) المتحمسين لمبادئه، فلمّا وصل منطقة تمبكتو سنة 1853 تصدّى له زعيم تمبكتو في ذلك الوقت أحمد البكاي الكنتي، فكانت نتائج المعارك بين أنصار الزعيمين قتل الحاج عمر في سنة 1865 ووفاة أحمد البكاي في السنة الموالية (4).

ينحدر احمد البكاي من قبيلة كنته التواتية في الجنوب الجزائري، وقد سكن أجداده الأولون منطقة أزواد خلال القرن السابع عشر، وتبوّأوا مركز الزعامة الدينية على الطريقة القادرية منذ أيّام جدّه الشيخ المختار الكنتي (توفي سنة 1811) الذي اشتهر بمؤلفاته العديدة وأعماله التعليمية، حيث أسّس زاوية في أزواد الى الشمال من تمبكتو مع نهاية القرن الثامن عشر، ثم تأسست فروع أخرى

---

(3) حول عصر الجهاد ينظر بصورة خاصة :

H.F.C. SMITH "A Negleted theme of West african history, the Islamic revolutions of the 19th century" Journal of African society of NIGERIA, Vol. 2, 1961, P 184FF.

Ba et Daget, L'Empire Peul de MACIN, Paris 1962.

لهذه الزاوية في تمبكتو وماسينا، وارتادها الطّلبة من مختلف الأقاليم في غرب افريقيا ومن بينهم ابناء العائلات الوثنية الحاكمة في سيغو، وخاصة على ايام ابنه محمد الكنتي الذي خلف أباه في الزعامة الدينية على كامل المنطقة، ولكنه لم ينتقل من أزواد، (توفي في سنة 1826) أمّا ابنه أحمد البكاي فقد سكن تمبكتو واتخذها مركزا للتعليم، وبعد أن شارك في الزعامة السياسية كمساعد أيمن لأخيه الشّيخ المختار الصّغير منذ سنة 1833، نراه يخلفه على طريقة الانتخاب العائلي في زعامة كنته منذ سنة 1847 (5).

كان النصف الأول من القرن الثامن عشر هو الفترة التي بدأ فيها الصراع بين التيجانية القادمة حديثا لغرب افريقيا من الشمال والطريقة القادرية التي سبقت الى تلك المنطقة وتأصّلت بها منذ عدّة قرون. وكان لكل من القادرية والتيجانية دور كبير في نشر الاسلام والتمكين له في كامل الغرب الافريقي، وبما أن القادرية كانت أسبق، فهي التي كان لها أتباع أكثر حتى القرن التاسع عشر، وقد كانت الخلافات في البداية محصورة في نطاق الجدل، فلما ظهر الحاج عمر الفوتي وأسس جيشا لنشر التيجانية منذ 1846 تحولت الخلافات الى العنف فأخذت شكلا من المعارك الواسعة لم تنته الاّ بعد منتصف القرن التاسع عشر.

في نهاية الثلاثينات من القرن التاسع عشر سافر الشيخ عمر الفوتي الى الحج وكان قد انخرط في التيجانية وهو صبي على يد أستاذه عبد الكريم، وبعد ملازمته لفترة طويلة نسبيا للشيخ محمد الغالي مندوب التيجانية في أرض الحجاز آنذاك، أجازه هذا الاخير وعينه شيخا مقيما للتيجانية في الغرب الافريقي كله، وعند ذاك عاد الى بلاده في نهاية الاربعينات، ومنذ بداية وصوله نراه يهتم بمنصبه فلا يقتصر على الناحية الدينية فقط بل يشمل الناحية السياسية والإصلاحية الواسعة (الجهاد) (6)، وقد شعر الزعماء القادريون الحاكمون في كل من بلاد الكانم والحوصا (سقوطو) بأهدافه، بالرغم من محاولته لاخفاء تلك الأهداف، في البداية، فطرده الكانمي من بلاده بورنو في سنة 1833 وطرده أتيكو من سقوطو

(5) راجع

(5) A. ZEBADIA "The career of Ahmad Al-Bakkay in the oral evidences and recorded documents", Revue d'histoire MAGHREBINE, 3, Tunis, January 1975, PP. 75-83.

(6) راجع أفكاره في خصوص الزّوايا ورجالها من غير التيجانيين في كتابه - رماح السعيد (على هامش كتاب أحمد التيجاني، جواهر المعاني، ج 1)، القاهرة 1383هـ، صفحات 24 - 26.

في 1837 بعد ان اظهر الحاج رغبته في خلافة محمد بلو في حكم تلك البلاد. ولّما مرّ بمدينة (حمد الله) عاصمة امارة ماسينا (1818 ـ 1862) لم يحدث له شيء ولكنّ اتباعه لحقتهم المضايقة بمجرد مغادرته لتلك البلاد، وقد مر الحاج بمدينة سيقو عاصمة مملكة البمبارا الوثنية بعد ذلك، فدفعت تصرفاته ملكها طيفولو على ابعاده أيضا (7).

وعندما استقر الحاج عمر في المنطقة الوسطى للسنغال الحالي حوالي سنة 1846 بدأ يكوّن جيشا كان يوظف أفراده من بين أتباعه التيجانيين من التوكولور ليخوض بهم غمار حرب الجهاد منذ 1852 بعد أن أعيته جميع الطرق «السياسية» على ما يبدو، ولم يجد صعوبة كبيرة في مدّ زعامته التيجانية في أقصى الغرب الافريقي من بلاد الساحل، ولكنّه لمّا اندفع نحو الشرق وجد القادريين بزعامة البكّاي وقبله أمير ماسينا كحاجز صلب أمام أهدافه. وفي هذه الأثناء كتب أحمد البكّاي رسائل عديدة ضدّ التيجانية من أشهرها مراسلته مع علماء مدينة مراكش التي كانت للتيجانية بها القدم الأولى في الاستقرار قبل انتقالها إلى الغرب الافريقي، كما تراسل البكاي مع أمراء ماسينا وسيقو الذين كانوا يطلبون منه المساعدة بعد اشتداد حركة جهاد الحاج عمر ضدّهم، وقد ظهر من تلك الرّسائل جوهر الخلاف «الايديولوجي» بين القادريين والتيجانيين آنذاك، وقد قضى الحاج عمر على كل من مملكة سيغو وماسينا في سنة 1862 بعد هجومات منظمة ضدهما، ثم انتقل الى منطقة تمبكتو، وهنا توقفت طموحاته عن النجاح أمام قوة القادريين بزعامة البكّاي أحمد (8).

واثناء تلك المعارك انقسم سكان الساحل الى قسمين: قادريين وتيجانيين، ولم تنته المعارك بين الطرفين الاّ حوالي سنة 1877 حينما استقر خط التقسيم بينهما على ما يبدو فقبل التيجانيون بالمنطقة الواقعة الى الغرب من خط يمتد طوليا على الحدود الشرقية لماسينا، وكانت فترة الجهاد في الساحل التي استمرت أكثر من عشر سنوات شديدة الاثر على السكان، فاضعفتهم، ويحدثنا أحدهم على ما أصاب الناس من مشقة وتقتيل بأسلوب شديد التأثر، فيذهب الى حد (أن العظم قد افرغ من اللحم).

---

(7) Delafosse, op. cit., 1912, p. 306

(8) راجع البكاي الى علماء مراكش، والبكاي الى أكنسوس ـ (مخطوطات الخزينة العامة بالرباط)، وكذلك البكاي الى أحماد و 3، والبكاي الى علي بن مونزون (في مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس).

وفي هذه الاثناء كان الفرنسيون قد خططوا لاحتلال المنطقة كلها ابتداء من عهد فيدرب الحاكم الفرنسي على السنغال في سنة 1856، ان لم يكن مخططهم ينتهي الى عهد أسبق من ذلك. وكان لانكلترا في هذه الاثناء قناصل في فزان ومرزق وغدامس، وكانوا يتتبعون الأحداث بعناية، ولكن همّ الانكليز كان على ما يبدو تجاريا فقط، ثم اتجهوا نهائيا في الاستعمار الى الساحل الاستوائي الغربي كما هو معروف ابتداء من مصب النيجر مع نهاية القرن، وقد عرف أحمد البكاي أهداف الفرنسيين منذ وقت متقدم، وقد أكد له كل من لانغ Laing في سنة 1826 حينما كان في طريقه مارا بأزواد، فتحدث مع أبيه سيدي محمد مؤكدا له أن هدف الانكليز في المنطقة لايتعدى الجانب التجاري لفائدة أنكلترا والسودان، ثم أكد له الفكرة نفسها بارث الرحّالة الالماني، الذي زار تمبكتو في حماية البكاي وبقي في تمبكتو معه من شهر سبتمبر 1853 الى شهر جويلية 1854، وذلك ما دفع البكاي الى محاولة استعمال الانكليز ضد الفرنسيين، فطلب من الحكومة الأنكليزية المساعدة بصراحة ضد أهداف الفرنسيين. (9) ويذكر بارث و DEVEYRIER دوفيريه أن اندفاع الجيش الفرنسي نحو الجنوب الجزائري قد أقلق الشيخ البكاي كل القلق، وجاءه السكان من مختلف الجهات في الصحراء يطلبون منه قيادته لهم ضد الفرنسيين، وعندما احتل هؤلاء ورقلة في الجنوب الجزائري سنة 1854 فكر أحمد البكاي في تجنيد أتباعه من العرب والسودانيين والطوارق لمقاتلة الفرنسيين، ولكن بارث استطاع اقناعه بالتراجع عن قراره (10).

لم يستجب الانكليز لاستنجادات البكاي بهم، أما الفرنسيون فقد استفادوا من الضعف الناتج عن فترة الجهاد وراحوا ينفذون مخططهم الاحتلالي الشامل في المنطقة الذي اتموه مع نهاية القرن الماضي، كما هو معروف. ترى، ماذا كانت نتائج الاحتلال الفرنسي فيما يختص بالعلاقات العربية بغرب إفريقيا في الميدان الحضاري؟ ذلك هو موضوع الفصل الموالي.

---

(9) Barth, Travel.., IV, 452-56; V, 124; Al-Bakkay to ENGLISH governement; Muhammad Ibn Al-Khattar to Clarendon; and Herman to F. office (P.R.O.London), F.O. 101, 41 and 42.
(10) CF. Barth, V, 124; H. Deveyrier, Exploration du Sahara-les Touareg du Nord, Paris 1864, PP. 310-313.

الزعامة في نطاق الامتزاج الاستعماري
أمثلة عن نشأتها وعملها في افريقيا (الفرنسية)

يمر الزعيم الافريقي حسب نظرية فرانتز فانون بثلاث مراحل وذلك في طريقه لبلوغ مرحلة (التطور الفكري ليبلغ درجة الوعي الكامل)؛

1) **المرحلة الأولى**: هي الامتزاج اللامتوازن، وفيها يكون استيحاؤه أوروبيا، وعند التجربة يعطي الدليل على أنه تمكن من ثقافة (الوطن الام) ويستطيع الاتيان فيها بانتاج مماثل ومقلد (بفتح اللاّم).

2) **المرحلة الثانية**: هي مرحلة الاضطراب والنهوض الذاتي وفيها:

يقرر (الزعيم) أن يتذكر من هو. . . ولكن بما أنه ليس جزء من شعبه وذلك لأن علاقاته بشعبه هي علاقات خارجية فقط، فانه يكتفي بتذكر كيف يعيشون ليس الاّ، فتبرز حوادث الماضي في أعماق ذكرياته من خلال أيام صباه كما كان قد عاشها؛ فالاساطير القديمة يعاد تفسيرها على ضوء الجماليات المستعارة وعلى أساس مفاهيم العالم المكتشف تحت اجواء أخرى،،(1)

---

(1) Frantz Fanon "The Damned" Présence Africaine, Paris 1963 P. 179

3) **المـرحلة الثـالثـة**: تتصف بالانتـاج القتالي والكتابة الثورية والوطنية وفيها، ، فان كثيرا من الرجال والنساء الذين كانوا حتى هذه المرحلة لم يفكروا أبدا في العمل الادبي أو الكتابي يجدون أنفسهم في ظروف استثنائية، فهم اما أن يكونوا في السجن مع ثوار الجبـال أو على وشـك التنكيل بهم فيشعـرون بالحاجة الى الحـديث لشعبهم؛ فيركبـون الجمـل المعـبرة عما يختلج في صدر أمتهم وهكذا يصبحون اللسان الناطق عن واقع جديد للعمل، ، (2).

ان هذه المرحلة الأخيرة لم يمثلها الزعماء السياسيون في افريقيا الفرنسية قبل مرحلة الاستقلال الا في حالتين استثنائيتين جدا هما:

أ) هفويت بوانييه أثناء فترة تزعمه لحركة التجمع الافريقي الديمقراطي في الفترة ما بين 1946 و1951 حينما كان ذلك التجمع كنفندراليا شعبيا كما سيأتي بيانه.

ب) بعض الذين كانوا أوفياء لمبادىء ذلك الاتحاد في الفترة نفسها، وعلى رأسهم D'arboussier داربوسييي في فولتا العليا.

وفي غير ذلك فان الزعماء «المتطورين» (3) Les évolués كانوا يتوقفون عند بلوغ المـرحلة الثـانية فقط، وكانت مطالبهم ومطامحهم لاتخرج عن نطاق ابراز الشخصية في نطاق النظام السياسي والاقتصادي والثقافي للوطن. الام للتخلص من عامل الشعور الاجباري بالنقص من جراء التمييز الذي يجعلهم في درجة أقل والـذي ظل يلاحقهم بصـورة قانونية وعملية حتى بعد بلوغهم مرحلة الثقافة والتطور التي كان يوجد عليها أترابهم من الفرنسيين لحما ودما، ويضاف الى هذا المطالبة بتطبيق القوانين الدستورية على شعوبهم بالشكل الذي اعترفت به وأقرته السلطات الفـرنسية نتيجـة للتـطور الـذي أدخل عليها بعد الحرب فيما يتعلق بالمستعمرات كنتيجة وتفاديا معا للظروف الخارجية القاهرة.

---

(2) Ibid

(3) أي الذين تثقفوا الى حدّ ما في المدارس الفرنسية وارتقوا عن مستوى الأهالي العاديين فأصبحوا أقرب الى الفرنسيين في تفكيرهم ونظام حياتهم.

ويعزى للهجين السنغالي أبي بوالات ــــ Abbé Boilat حين تاليفه لكتاب في النحو للغة الولوف Wolof سنة 1853 ضيقه ولأول مرّة ذرعا بها كان يذهب اليه الفرنسيون من نفي أي تطور حضاري لغوي للأفارقة، فاستفهم : كيف يكون ممكنا لهؤلاء الرجال من غير ثقافة ومن غير نحويين ولا أكادميين ولا حتى قواعد كلامية أن يكون في لغتهم مثل هذا الترتيب وقواعد البناء والطريقة؟ ثم أجاب عن هذا التساؤل بقوله :

انه بالرغم من أنّ الولوف هم سود كمعظم السود الأفارقة، فان لهم الاعتقاد الأكثر تواضعا في أنهم البيض الأكثر نقاوة وان أكثر ما يجرحهم هو أخذهم كعبيد أو جنود مكبلين للحمل ـ Serrers . . . ومعنى ان تكون مسيحيا فانت ابيض ومعناه ان تكون حرّا وأن تكون لك حقوقك، ، (4).

مثل هذا الشعور هو تعبير عما كان يختلج في نفسية افريقي «متطور» تجاه موقف الاوروبيين منه في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهذا يشير الى حقيقة هي أن مطالب المتطورين كانت تتطور مع الزمن والانسان ابن محيطه كما يقولون؛ فبعد خمسين سنة من الشعور الذي أبداه بوالات هذا نجد سنغاليا «متطورا» آخر هو ندياي سلدور N'diaye Celdor الذي كان في سنة 1912 نائب الرئيس في الاتحاد السنغالي لنشر اللغة الفرنسية يصرح بأن الحاكم العام (لايحب السّود. . . وقد عمل منذ مجيئه في 1904 على القائنا بوحشية خارج مجموعة زملائنا من الوطن الأم) (5).

ولكن قضية «المتطورين» لم تظهر بوضوح الا في بداية الحرب العالمية الأولى وأثناءها وبعدها، ومن بين الأوائل الذين يمثلونها في الحقبة الأولى هو بليز ديان Blaise Diagne ولذلك فهو يستحق هنا بعض العناية.

ينحدر بليز ديان من طبقة وسطى ازداد اتساعها من جرّاء قرنين من التجارة الفرنسية في منطقة الساحل السنغالي وقرن واحد من الثقافة الفرنسية في الاربع بلديات السنغالية التي ارتقى قسم من سكانها حتى ذلك الوقت الى درجة التمتع

(4) Claude Wauthier, l'Afrique des Africains, Paris 1944, P. 41.
(5) Ibid

بالحقوق السياسية وأصبحوا «مواطنين» فرنسيين، لهم الحق في انتخاب ممثل عنهم الى الجمعية الوطنية الفرنسية. وقد كان بليز ديان أول افريقي ينتخب لهذا المنصب في سنة 1914 (6).

واثناء معركته الانتخابية وقف الى جانبه طائفة لبو Lebou والزعماء المسلمون و«المثقفون المتطورون» الذين كانوا قد انضموا في جمعية أطلقوا عليها اسم (الشباب السنغالي)، وكان هدفها هو المطالبة بالاجور المماثلة للموظفين الافارقة بأجور الفرنسيين وفي سنة 1916 كان هناك اتجاه في فرنسا لالغاء حقوق المواطنة التي كانت البلديات السنغالية الاربع تتمتع بها، فوقف بليز ديان ضد ذلك الاتجاه، ونجح في تثبيتها. وفي سنة 1917 عين بليز ديان مندوبا ساميا للتجنيد فبلغ عدد الأفارقة الذين جندوا مائة وثمانين الفا وكانت فرنسا في حاجة شديدة إليهم وكانت الخسائر بينهم كبيرة، ولكن الحاكم العام فان فولنهافن Van Vollenhaven وقف ضد تعيين بليز في هذا المنصب لأن ذلك يؤدي الى التضييق من صلاحياته ولأنه كان ضد تكاثر الافارقة في الجيش، وعندما لم ينجح في مسعاه اضطر الى الاستقالة (7).

وقد أعيد انتخاب بليز في سنة 1920 وسنة 1924 بأغلبية وعمل كرئيس للمؤتمر الافريقي (8) لسنة 1919 وفي الوقت الذي كان فيه يدافع دائما عن امتيازات المواطنة الفرنسية للبلديات الاربع السنغالية فانه عرف الى جانب ذلك بوقوفه الى جانب النظام الاستعماري في البلاد الى حد انه كان يجد المبررات للعمل الاجباري ولانعدام الديمقراطية التي تتمتع بها البلديات الأربع في المؤسسات الفرنسية خارج حدود تلك البلديات وأمام نداء ماركوس قريفي للحرية، وتصريح 1920 المتعلق بحقوق الشعب الزنجي في العالم أجاب بليز ديان:

نحن الأهالي الفرنسيون نرغب أن نبقى فرنسيين مادامت فرنسا قد اعطتنا

---

(6) Robert Delavignette, Freedom and authority in French West Africa, O.U.P., London 1950, PP. 420 FF.

(7) IBiD.

(8) سبقه لهذا المنصب كاربوت ولكن هذا كان هجينا في الواقع (من سان لويس)

(8) Cf. Thomas Hodkin, "Background to Afrique occidentale française; African reaction and French rule "in west africa, january 16, 1954, P. 313; Wesley Johnson "the ascendancy of Blaise Diagne and the beginning of African Politics in SENEGAL" in Africa, July 1966 N°3, PP. 235 - 52.

كل حريتنا . . . ان النخبة من الأهالي الفرنسيين التي هي المسؤولة عن الاهالي في مستعمـراتنا لاتستطيع أن تسمح ، دون أن تكون فاشلة في واجباتها الجديدة ، بنظريات الانفصال والانعتاق الثورية التي اعطيتموها اسمكم لتحدثوا القلاقل وعدم النظام (9) .

وعنـد مقـارنة هذا التصريح بما جاء في منشور الدعاية الانتخابية الذي أصدره ديان مع انصاره نلاحظ الى أي حد كان للرجل «المتطور» مجال يعمل في نطاقه ولا يتعداه :

اذا كنتم ترغبون في أن يكون لكم مكان تحت الشمس ، اذهبوا لصناديق الاقـتراع ، ليس لتتخذوا لكم سيدا ولكن لتختاروا بحرية صديقا من جنسكم يدافع عنكم في كل مجال ، وذلك مما يجعل مناهضيكم يضطربون أمام فكركم السياسي وتيقظكم الاجتماعي (10) .

وقد ذهب الزعماء الدينيون من المسلمين الى تأييد بيلز ضد منافسه كاريوت وكان لهم دور كبير في انجاحه ، قال كاريوت :

ان «المرابطين» قد حصلوا على التزام من عدد كبير بين الناخبين فحلفوهم بالقرآن لكي ينتخبوا ويحصلوا على أصوات اخرى لصالح ديان . وهذا الاخير قدم نفسه على انه المرشح الأهلي الحقيقي ، وقد قرر المرابطون ان كل من لا ينتخب لصالحه يعتبر مرتدا ولن يسمح له أن يتزوج أو يدفن وفقا لقواعد الدين الاسلامي (11) .

وكـان الـزعـماء المسلمون يؤيدون ديان ليحميهم ضد تدخل الادارة في شؤونهم عنـد الحـاجـة ، أما في غير ذلك فان ديان «المتطور» لم يكن لينظر الى استقلال الافارقة بغير المنظار الذي كان ينظر به اليه الفرنسيون مثلا (12) ، يقول ديان في هذا الصدد :

---

(9) Hodkin, op. cit PP. 31 F.
(10) Charles Cros, La parole est à M. Blaise Diagne : Premier homme d'Etat Africain, Paris 1961, P. 15.
(11) Ibid, P. 18
(12) Irving Markovitz, "The political thought of Blaise and Lamine Guye" Prés. Africaine 72; Paris 1969, P. 28

«يمكن للانسان ان يتصور يوما سيأتي، يستطيع فيه الجنس الأسود التحكم في مصيره بكل نضج، مع ثقافة عميقة تعطي السود فكرة الشعور القوي بالتضامن الوثيق الذي يتواجد بينهم وبين فرنسا» (13).

ويذهب ديان في تفكيره داخل اطار الاستعمار الفرنسي الى حد الاقتناع بالمصير الفرنسي لبلاده، وهو ينظر الى ذلك بمنظار المقتنع المغتبط بفضائل ذلك الاستعمار فيقول:

«انني من حيث الجوهر من اولئك الذين يقبلون أن التقليد السياسي لفرنسا... يمكن ان يجد أهدافه النهائية في الوحدة، وفي نفس الوقت في الفكرة والعقيدة وفي الوحدة الروحية بين الوطن الام فرنسا وبين عرقيات الشعب المنتشرة عبر ممتلكاتنافيما وراء البحار...

اقول ذلك وانا أحمل في فكري أن نهاية الاستعمار هي الوحدة ويجب علي أن أضيف أن كل خاصيات الأهالي يجب أن تحترم في تقاليدها وعاداتها».

ويستطرد ديان «المتطور» في تفكيره هذا الى القول:

«ان كل ما يربطنا والذي يجب أن يربطنا في الوضعية النهائية هو الروح المشتركة، ويبدأ ذلك بالمصالح المادية أولا ثم تتبع بمجهودات مشتركة لتثقيف الأهالي الذين سوف يؤدي بهم ذلك تدريجيا الى مستوى (الفرنسيين) وذلك ما سيكون اسمنت الرابطة التي لاتنفصل بيننا».

ثم يضيف ديان الى رأيه هذا الاشارة الى ما أحدثته ظروف الحرب ويفسّر دور الافارقة الذين كان يسهر على تجنيدهم لها بأنه مجهود مشترك في هذا النطاق، فيقول:

«وإلى هذا الحد يجب أن نذكر، بالرغم من أن هذا أصبح الآن بديهيا، أن الحرب قد تجاوزت كل هذا وخلقت وضعية، سواء من أحب أم كره فانها انتجت الجهود المشتركة والتضحيات المشتركة والمصير المشترك» (14).

---

(13) Cros, op. cit., P. 137
(14) Ibid.

ويرى ديان أن الاستعمار الفرنسي لا يمكن أن يقارن بغيره، لأن (أساسه انساني) في حين ان غيره من انواع الاستعمار انما تدفعها دوافع مادية. ويرى أن من واجب جميع المواطنين أن يعملوا ما في وسعهم للتغلب على المساوىء الموجودة في الاستعمار كأي شيء انساني في الحياة له مساوئه ومحاسنه، وهو في هذا التحليل يذهب الى حد نعت الاستعمار الفرنسي بالتقدم والايجابية ثم يستطرد الى القول:

«اذا كنا نعترف بان الاستعمار الفرنسي، كأي عمل انساني آخر له بعض النقائص، ونحن هنا لنعمل على اختفائها، فانه من حقنا أن نؤكد على القول بان فرنسا قد تسببت للاهالي الافارقة ان يجتازوا في وقت قصير مرحلة من التطور، اذا نحن أردنا وزنها فإنها أكثر اعتبارا مّما مرت به فرنسا خلال ما يقرب العشرين قرنا؛ وما ذلك الا لانكم اشتملتمونا وجعلتمونا ضمن اهتماماتكم الوطنية الاساسية وتحت ظروف معينة وسيصبح منذ الآن فصاعدا لا يخدم بلاده ولا مصالحها ولا مصالح فرنسا القارية ولا مصالح مواطنيه، من سيقول لكم هنا إن الاستعمار يجب أن تكون له نهاية أخرى غير التي تربط مصالحنا أكثر وتجعلها مشتركة» (15)

لقد عبر وأكد ديان عن نظرته وفلسفته هذه تجاه الاستعمار الفرنسي في خطبته امام اعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ فاتح يناير (جانفي) 1930، وكانت بمثابة رد منه على بداية احترام المطالب الوطنية في جهات اخرى، لأنه كان يرى أن من مصلحة بلاده هو الارتباط بفرنسا الى الابد، ولا عجب في ذلك فهو رجل «متطور».

ان ديان يمثل فكرة الجيل الأول من «المتطورين» في نطاق الاستعمار الفرنسي بافريقيا الفرنسية دون شك، ولم يبتعد جيل المتطورين الذي أتى بعده عن هذه الفكرة الا في بعض الشكليات.

يمكن ان يعتبر لمين قاي Lamine Gueye شخصية بارزة أمام المؤرخين لتمثيل الجيل الثاني. لقد حارب لمين قاي حتى الاستقلال المظاهر الاتوقراطية والتمييز العنصري في الاستعمار الفرنسي، وقد كان من الوجوه البارزة بين المتطورين من حيث المستوى الثقافي فقد حصل على درجة دكتوراه الدولة من

(15) Cf. Cros, op. cit; 24 - 27; Irving Markovitz, op. cit; PP. 31f.

جامعة باريس في سنة 1921 وخصص بحثه فيها لاثبات التعايش الحاصل بين المجموعة التي كانت تعيش تحت طائلة القوانين الخاصة بالافارقة. وقد كون لنفسه أنصارا من حوله ادعوا اتباع افكار الاشتراكيين؛ وهم المجموعة التي تطورت تحت زعامته في سنة 1930 لتشكل (الفيدرالية السنغالية) كفرع افريقي للحزب الاشتراكي الفرنسي.

وقد دافع بشدة مع انصاره في الفيدرالية السنغالية وبمساعدة الحزب الاشتراكي الفرنسي لهم على وجوب القبول القانوني للنخبة الافريقية (المتطورون) كي تصبح لها حقوقها في المساواة مع المواطنين الفرنسيين بالاصالة وذلك، فيما يتعلق بالواجبات والفوائد الاجتماعية والاقتصادية والامتزاج السياسي أيضا.

ورغم ذهاب لمين قاي هذا المذهب منذ وقت مبكر، فانه لم يستطع البداية في تحقيق ما كان يصبو إليه تدريجيا الا بعد الحرب الكونية الثانية، ففي 7 ماي 1946 صدر قانون لمين قاي الاول القاضي بأن كل هؤلاء الذين هم تحت تشريع الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار لهم كمواطنين فرنسيين بنفس اتساع ذلك التشريع لمواطني الوطن الام. لقد كان لمين قاي «متطورا» ولذلك كان يدافع عن طبقة المتطورين بالدرجة الاولى، وهو الذي قدم مشروع هذا القانون وسمي باسمه.

وفي سنة 1950 صدر قانون ثان باسم لمين قاي أيضا يقضي بأن الموظفين الأفارقة جديرون بأن تكون لهم حقوق متساوية مع الموظفين الفرنسيين.

وفي كتابه (مراحل وآفاق الاتحاد الفرنسي) Etapes et perspectives de l'union française الذي اصدره حينما أصبح عضوا في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الفرنسي في باريس .S.F.I.O دافع لمين قاي عن الاتحاد الفرنسي، ولم يتوقف فيما ابداه من اراء في هذا الكتاب عند حدود ذلك الاتحاد كما اقتضاها دستور 1924 بل ذهب الى الدفاع عن فكرة (العمل العقائدي) على حد تعبيره فيما يتعلق بهذا الاتحاد، وكان يرى أن نظرية (العمل العقائدي) هذه تهدف الى توحيد الافارقة بالفرنسيين (مخترعي الحريات) على حد تعبيره، واقترح عددا من الاصلاحات تهدف كلها الى اشتراك الافارقة في مختلف المؤسسات السياسية الموجودة آنذاك، وكان من جملة ما اقترحه في هذا الصدد:

على المستوى الوطني (يتكون) مجلس يدعى للعمل ليتعرف على المشاكل الكبرى لماوراء البحار، وتعطى له الصلاحية اللازمة كبرلمان متخصص، وان حضور اغلبية منتخبة من خارج الوطن الأم فيه سوف يجعل أمامه مشاكل عاطفية وسياسية اقل من تلك التي تظهر في حالة مجلس الاتحاد الفرنسي الحالي الذي سيتطلب دستوره ادخال تغييرات عليه. (16)

ويرفض لمين قاي كبقية المتطورين في افريقيا الغربية الفرنسية فكرة الاستقلال ليستبدلها بفكرة المناداة بالمساواة تحت السيادة الفرنسية فيقول حرفيا:

«ان المطلوب من فرنسا هو بكل دقة المعاملة بالمساواة في تطبيق قوانينها» (17).

وعندما تأسست المجالس الاقليمية والمجلس (الفيدرالي) المسمى بالمجلس الكبير في افريقيا الاستوائية والغربية الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية كان لمين قاي من المتحمّسين للاستفادة من هذا العمل الفرنسي في تأكيد نظرياته الاتحادية، فخطب في روفيسك مثلا في 2 ديسمبر 1946 قائلا:

«اننا سنتمكن من عمل كل شيء من خلال فرنسا، كل شيء من خلال الجمهورية ولكن لا شيء بدون فرنسا ولا يمكن شيء بدون الجمهورية» (18).

بين لمين قاي وسنغور

كان سنغور من اتباع ومحميي لمين قاي في البداية، وكان قد قضى فترة طويلة خارج السنغال؛ قضاها في فرنسا، حيث حصل على شهادة التبريز في نحو اللغة الفرنسية، فلما رجع للسنغال انضم الى لمين قاي فأصبغ عليه من الحماية ما مكنه من الدخول في سلك الزعامة السياسية بين فئة «المتطورين». وكان سنغور قد حضر عددا من المؤتمرات الطلابية بالخصوص اثناء تواجده في اوروبا، وكان من بين الذين التقى بهم وتأثر بأفكارهم هو ايمي سيزار من المارتينيك الذي كان من أبرز من تعود اليهم الدعوة الى الجامعة الزنجية، وهي فكرة يعود الفضل

---

(16) Lamine Guye, Etapes et perspectives de l'union française, (éditions de l'Union française), Paris, 1955, P. 39
(17) Ibid
(18) Irving Markovitz, op. cit, P. 34.

الاول فيها الى زنوج البحر الكارايبي وامريكا، وقد وجدت رواجا بين فئة «المتطورين» الافارقة في البداية، لما كانت تشبعه في نفوسهم من حب البحث عن الاصل الحضاري والشخصية، وهي قضية لا تتعارض مع التفكير الأوروبي بحال.

وبعد نهاية الحرب الكونية الثانية كان هناك تطور في المستعمرات الافريقية من حيث الافكار والمطامح يفوق مجرد طلب المساواة مع الفرنسيين الذي لم يستطع لمين قاي الخروج عنه، لأنه بحكم تكوينه وارتباطاته الاجتماعيةعلى الاقل، كان ليس في امكانه ملاحظة تلك التطورات الجديدة في عقول الافارقة ومن حولهم، وقد استطاع سنغور ان يفهم ذلك، فانشق عن لمين قاي وبزّه في الزعامة منذ نهاية الخمسينات، ولم يخرج سنغور عن المحيط الفكري والسياسي الذي كان لمين قاي يعمل فيه، ولكنه تفوق عليه في اتساع المحيط الاجتماعي الذي اختاره للعمل، دون ان يرتبط بالثناء على كل ما تنجزه فرنسا وأنه لصالح الافارقة بالصورة التي اشتهر بها لمين قاي.

كان لمين قاي ارستقراطيا من سكان داكار، وتولى من المناصب الهامة شيخا لبلديتها، ورئيسا للمجلس الفيدرالي واخيرا وزيرا في الحكومة الفرنسية، ولمدة طويلة كان نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية، واهم من ذلك كله كان يعيش في صداقات مستمرة مع الحكام الفرنسيين، ويعين انصاره في المناصب المحلية بمساعدتهم، في حين انحدر سنغور من وسط اجتماعي اقل وعرف كيف يتغلب على زعامة قاي، وهو الكاثوليكي المخلص، حتى في الاوساط الاسلامية. ولم يتم ذلك دون مساعدة الفرنسيين بالطبع، وذلك بعد ان ادركوا ان سنغور بأفكاره أصبح يستطيع ملء الميدان السياسي في الفترة الجديدة التي اصبحت تعج بها لاتكفي له مبادىء لمين قاي وحدها.

لايمكن اعتبار سنغور وجها للجيل الثالث في فئة «المتطورين» ولكنه حلقة وصل بين افكار الجيل الثاني ومتطلبات الوضعية الجديدة بعد الحرب الكونية الثانية. فهو استمرار للجيل الثاني في قالب جديد. يتفق سنغور مثلا مع لمين قاي في الارتباط بفرنسا ولكنهما كانا قد «اختلفا» في الطريقة التي تنتهجها فرنسا في الصرف، فسنغور له اوليات في هذا الشأن، فقد جرت بينهما محاورة علنية في سنة

1946 حينما بدأ في السير نحو «الخلاف» فانتقد سنغور الاسلوب الفرنسي في صرف 14 مليونا من الفرنكات على التعليم الابتدائي في كامل السنغال، ولكنها صرفت في الوقت نفسه 17 مليونا من الفرنكات على انشاء محطة خاصة بالشرطة في داكار، فكان جواب لمين قاي (ليس نحن الذين ندفع)، فراح سنغور في الرد على هذه الحجة:

(هل قدمت فرنسا لافريقيا لتدفع حضارتنا الى الامام عن طريق الاحتكاك بها أم أنها جاءت لتدخل دون سابق انذار خطر الشرطة وذلك على أكتاف الناس الذين يعيشون أصلا وفق حضارة جماعية لا حاجة لها بالشرطة؟) (19).

واذا كانت مثل هذه النظرة تكشف عن الكيفية التي يختلف حولها تفكير الرجلين فهي تعبر الى حدّ كبير عن اختلاف الفترة الزمنية كذلك، فقد جاء سنغور في وقت أصبحت فيه النظرة الى واجب الحكومة لا تنحصر في مجرد المحافظة على الامن، وكانت هناك مطامح الفئات الاجتماعية الاخرى من خارج المدن لّما اتسع مجال الانتخاب ليشملهم أكثر من السابق، يضاف الى ذلك توسع المجال أمام فئة (المتطورين) الدنيا الغير محظوظة حتى ذلك الوقت (20).

وبالنظر الى ان الاكثرية العظمى من السنغاليين مسلمة، فقد عرف سنغور كيف يتقرب من الزعماء المسلمين ويضمن تأييدهم له، معتمدا على (انتقاداته) في نطاق الارتباط بفرنسا، وقد اعلن ذلك مفتخرا في المجلس الوطني بقوله:

«لقد استقبلنا بحفاوة من طرف كبراء المرابطين السنغاليين، أمّا مناهضونا فقد ردوا بأدب (21)».

وأخيرا فقد استقبل السنغاليون الاستقلال تحت زعامة حزب التجمع الديمقراطي السنغالي (BDS) = Bloc Démocratique Sénégalais الذي اسسه وتزعمه سنغور، ثم تحول الى حزب الاستقلال الافريقي، وظهر كأنّ كل التطورات كانت تسير بانسجام تام منذ مؤتمر برازافيل. (22)

(19) Recueil des interventions faites à l'Assemblée Nouvelle Française par : le Président Léopold Sédar Senghor de 1946 à 1958, DAKAR, N.D.-intervention de 21 Mars 1946-

(20) IRVING, M. Léopold S. Senghor and the politics of negritude, NewYork, 1969.
(21) Senghor, Recueil; op. cit; 21/8/1952
(22) Supra, P. ١١١٤.

هوفويت بوانيه والفترة الاستثنائية

ركزنا لحد الآن على الاوضاع السياسية بل تطور التفكير السياسي لدى فئة الزعماء (المتطورين) كما تمثلها السنغال، وذلك لأن السنغال وداكار بصورة خاصة كانت ولا تزال لها اهميتها في التأثر بالفرنسيين اولا ثم في التأثير على المستعمرات الفرنسية الأخرى في افريقيا جنوب الصحراء، ويعود ذلك الى أنها أقدم المستعمرات في افريقيا السوداء، وقد ركز الفرنسيون عليها كمحطة لكل ثقلهم الثقافي والتجاري في افريقيا السوداء بمثل ما كان الامربالنسبة للجزائر فيما يتعلق بموقعها في الشمال الافريقي وبوضعيتها الخاصة كذلك بالنسبة إلى جميع مستعمراتهم في افريقيا.

وقد كان لما يجري في السنغال صداه واثره على بقية المستعمرات، الا فيما يتعلق بفترة التجمع الديمقراطي الافريقي الذي اسسه وتزعمه هوفويت بواينه (من ساحل العاج)، وقد وقف منه الزعماء (المتطورون) في السنغال موقفا خاصا كما سنرى، وتراجع في الاخير عن شكله الثوري الفيدرالي بتراجع زعيمه.

تاسس حزب التجمع الديمقراطي Rassemblement Démocratique Africain في اكتوبر 1946 بمدينة باماكو، ويعود اساس وجوده الى فكرة اقتناع الممثلين الافارقة بوجوب الاتحاد ضد التحفظ الذي يبديه الممثلون الفرنسيون والادارة امام بعض مقتضيات الدستور فيما يتعلق بالمستعمرات، ولتحقيق هذه الفكرة تنادوا لاجتماع في باماكو على هذا الاساس، وقد احتوى البيان الذي صدرآنذاك آراء كل من هوفويت بوانيي، لمين قاي، سنغور أپّيتي (من الداهومي آنذاك، بنين الآن)، فيبلي دابو سيسوكو (من السودان، مالي فيما بعد)، ياسين ديالو (من غينيا)، فيليكس تشيكايا وغابريال داربوسيي (من افريقيا الاستوائية). وكانت فكرة الجميع ان يشكلوا جبهة موالاة للدستور والعمل على تطبيقه دون اهمال فيما يتعلق ببلدانهم.

وقد شاءت الظروف ان يتزعم هذا التجمع هوفويت بوانيي بروح ثورية فعلا ولمدة تقرب من عشر سنوات. وكان هفويت قد تأثر في هذه الفترة بتطور الوضع النقابي في بلاده ساحل العاج حيث وقعت احتكاكات بين المزارعين الاوروبيين والافارقة من منتجي الكاكاو والقهوة ونتيجة لتضارب المصالح ووقوف

الادارة الى جانب الاوروبيين لتضمن لهم مجال التنافس هناك، وذلك بتطبيق إجراآت على غاية من التمييز لصالح الاوروبيين. وهذا ما أدّى الى تأسيس النقابة الافريقية الزراعية Syndicat agricole africain في ساحل العاج واسندت رئاستها الى هفويت، وكانت تلك النقابة اول تجمع جمع حوالي 20 الف افريقي في نطاق يتجاوز الاطار القبلي ليقف ضد شره الاوروبين وعنصرية الادارة.

ولد هفويت بوانيي في 1905 في ياموسوكرو بساحل العاج، وهو ينحدر من اسرة رئاسة تقليدية في منطقته، وقد خلف على الزعامة المحلية هناك أحد أعمامه العمدة أكوي Chef Akoi الذي كان قد اغتيل نتيجة لشدة موالاته للفرنسيين.

وقد حاول والداه تحويله عن المدرسة الفرنسية خفية، وذلك لكي يتثقف تقليديا ويتهيأ لمهامه في المستقبل، الا ان تهرب بعض اولاد الاهالي الآخرين ايضا عن المدرسة الفرنسية، كما هي عادة الأفارقة في جهات كثيرة في ذلك الوقت، جعلت رئيس مركز بوزي الفرنسي يحتجز الصبي فيليكس هفويت بوانيي ليتعلم في المدرسة الابتدائية الفرنسية، وقد فعل رئيس المركز ذلك تمشيا مع رغبة الفرنسيين في جلب أولاد الذوات والعائلات ذات الوجاهة التقليدية الى مدارسهم، كي يكونوا قدوة لغيرهم ويلتزموا بخدمة ثقافتهم على المدى البعيد.

وقد تابع هفويت دراسته حتى دخل المدرسة الطبية في داكار حيث تخرج منها في سنة 1925 طبيبا، وعاد الى بلاده رئيس محلة Chef de canton وملاكا من اكبر المزارعين للقهوة، ووجيها في اكبر مجموعة عرقية قبلية هي باؤله BAOULE التي هي اكبر القبائل اهمية وكثرة في ساحل العاج.

وعندما قامت النقابة الافريقية في سنة 1947 بثورة احتجاج دموية في أبنغورو Abengourou بساحل العاج، كان هفويت بوانيي على رئاستها ومؤيدا من الحزب الشيوعي الفرنسي، وقد أكسبه ذلك شهرة في كامل افريقيا الفرنسية وخاصة بين الاوساط المناهضة للفرنسيين.

وكل ذلك جعل هفويت بوانيي يصبح الشخصية الاولى في مؤتمر باماكو الذي تاسس فيه التجمع الديمقراطي الافريقي على أساس فيدرالي يجمع كل

الاتجـاهات الوطنية في افريقيا الفرنسية، وقد حدد هفويت بوانيي آنذاك اتجاه الحزب في (استهداف تحرير افريقيا من تسلط مقيت هو الامبريالية).

لقد بقي التجمع الديمقراطي الافريقي هدف الادارة الاستعمارية للقضاء على اتجـاهـاتـه التي لقيت صدى كبيرا في الأوساط الوطنية منذ البداية، وبقي هفويت بوانيي على رئاسته يتعرض للمضايقات حتى الخمسينات.

امـا بقية النـواب الزعماء (المتطورين) فقد ابتعدوا شيئا فشيئا عن حزب التجمع الديمقراطي الافريقي منذ البداية نتيجة للضغط الذي تعرضوا له بشكل مباشر من الادارة الفرنسية. فقد تغيب في آخر لحظة عن الحضور في مؤتمر باماكو لمين قاي وسنغور، وذلك نتيجة لطلب تلقياه مباشرة من ماروس موتت Marus Moutet الوزير الفرنسي للمستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار آنذاك في ان لا يحضرا ذلك المؤتمر. وبعد احدى عشرة سنة كاملة من تلك المناسبة التاريخية كان سنغور لايزال يحاول تبرير ذلك بخطإ شخصي كان قد ارتكبه دون قصد منه فقال:

«ان هناك خطأ قد ارتكب من طرف النواب السنغاليين . . . في رفضهم لحضور مؤتمر باماكو لحزب التجمع الديمقراطي الافريقي. وبالتاكيد فقد كنت شخصيا اريد الحضور الى هناك، ولم اتردد في ان اقول ذلك في ذلك الوقت لزعماء حزب الوطن الام الذي كنت انتسب له[23] لكن يجب علي بكل تواضع ان التحمل نتيجة النقد الذاتي، وخطئي كان يتمثل في اطاعتي للاوامر التي فرضت علي من الخارج، فليكن هذا درسا لكم انتم يا أصدقائي» (24).

كما انسلخ عن هذا الحـزب بعـد ذلك بمدة قصيرة كل من دارسيسوكو وأبيتي، وقـد لخص المؤرخ الافـريقي جوزيف كي زربـو وضعية التجمـع الديمقراطي الافريقي امام الاحزاب والحكام الفرنسيين في تحليله التالي:

ان مشروع الاتحـاد المقـدس هذا من طرف جميع القوى الافريقية الحية

---

(23) كان سنغور وقتئذ منتسبا للحزب الاشتراكي الفرنسي

(24) وثائق الإجتماع التأسيسي لمؤتمر الوفاق الإفريقي Convention africaine في داكار، جانفي 1957 ص 3.

والمرموز له باسم التجمع الديمقراطي الافريقي لم يتحقق.. وباختصار فان أحزاب الوطن الام القت منذ البداية بعدم رغبتها في التشكيلات الافريقية وكان الحزب الشيوعي الفرنسي الوحيد الذي استجاب لدعوة التجمع الديمقراطي الافريقي وبالنتيجة فان احزاب الوطن الام الاخرى، وخاصة مناهضو الشيوعيين، وبواسطة خداع الحكام الاداريين الذين كانوا يشترونهم لخدمة اغراضهم وفي كثير من الاحيان كانوا هم الذين يعينونهم، وقد اتخذت التجمع الديمقراطي الافريقي كهدف لها (25)

إن موقف الاحزاب الفرنسية من التجمع الديمقراطي الافريقي يعود الى ان جميع الحركات التي اظهرها الزعماء (المتطورون) كانت في نطاق الاحزاب الفرنسية وبالانتساب إليها، ومن الطبيعي فإن أول ظاهرة للتطور خارج المؤسسات (الأم) كانت تعتبر بداية سيئة في نظر الفرنسيين الذين وجدوا في مستعمراتهم السوداء مجالا ناجحا ومثاليا للإلحاق بعد أن فصلوها عن انتماءاتها الحضارية القديمة وقطعوها عن الاتصال بغيرهم.

لقد نجح حزب التجمع الديمقراطي الافريقي في شكله الظاهري كفيدرالية لمعظم التشكيلات الحزبية المحلية، فانخرط تحت مبادئه: الحزب الديمقراطي للكامرون، والاتحاد السوداني، والحزب الديمقراطي لغينيا، واستطاع ان يكون له فروعا شملت كل افريقيا الفرنسية ابتداء من القرى الهامة حتى المدن الكبيرة، وكانت له هيئة تنسيق فيدرالية Comité de coordination تشرف وتوجه جميع فروعه، واستطاع بواسطة هذا التنظيم أن يحافظ خلال المؤتمرات الثلاثة التي عقدها بين 1946 و1958 على الاخذ بناصية التوجيه الشامل ويؤكد من خلالها على الولاء العام والاهتمام المشترك لجميع اتباعه في كامل افريقيا الفرنسية.

ونظرا لمبادئه التي تتناقض تماما واهداف الفرنسيين، فقد سلطت الادارة عليه جملة من المضايقات في كل المناطق، وكانت علاقته بالحزب الشيوعي الفرنسي قوية الى درجة كبيرة، ومع بداية الخمسينات أثرت عليه عوامل داخلية سلبية كان من ابرزها الحساسيات الاقليمية بين زعمائه.

(25) Ki-ZERBO Histoire de l'Afrique, Paris 1969, p. 505.

والحقيقة أنه منذ البداية كان بين الزعماء السنغاليين وغيرهم خلافات شخصية ناتجة عن اتجاه الاولين الى عدم الرضا عن تنفذ غيرهم في تشكيلة هذا الحزب الفيدرالي، وهم يعتبرون ان دور الزعامة السنغالية في المنطقة يجب أن يعكسه واقع المكانة الخاصة للسنغال كما اقرتها الاعتبارات الفرنسية بالنسبة إلى كامل المستعمرات الفرنسية في كامل الغرب الافريقي. أما هفويت بوانيي فقد مال هو الآخر في الاخير الى التخلّي عن الهدف الفيدرالي وكان من جملة الدوافع لديه على ذلك أنّ ساحل العاج في هذه الحالة سيكون نصيبه من المساهمة الضرائبية اكبر، وبالتالي فان بقية الاقاليم تستفيد من ذلك على حساب بلاده.

لقد امتاز الزعماء (المتطورون) على الدوام بالاقليمية والمحلية، وهو واقع ليس له من سبب آخر غير روح القبلية أو الجهوية الضيقة التي تتناسب دائما والتوجيه الفرنسي ـ الاوروبي المبني على تشجيع الاتنولوجية العرقية في المستعمرات لأن ذلك يساعدهم على التحكم وسهولة التسيير حينما تصبح عوامل الوحدة ضعيفة في كل مستعمرة ويخشى كل قسم من سكانها قسما او بقية أقسام أخرى.

في سنة 1951 قرر هفويت بوانيي كزعيم لحزب التجمع الديمقراطي الافريقي المقاطعة مع الشيوعيين، فنتج عن ذلك انقسام في صفوف اللجنة المركزية المسيرة، وقد تزعم الفئة المعارضة لهذا الاتجاه الجديد غابريال داربوسيي (الكاتب العام لتلك اللجنة)، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بين أعضاء اللجنة المركزية ولذلك كان لمعارضته قيمتها وتأثيرها داخل اللجنة المركزية منذ 1950، قبل ان يخرج الخلاف حول هذه النقطة عن مراقبة الرجلين.

ان داربوسيي كان هجينا، فأبوه كان أحد الحكام الفرنسيين في افريقيا وأمه تنحدر من سلالة الحاج عمر الفوتي الذي كان كخليفة للتيجانية في منتصف القرن التاسع عشر بالغرب الافريقي، قد دخل في حروب واسعة ومكن للتيجانية كطريقة من أن تأخذ مكانتها الى جانب القادرية.

وقد شغل داربوسيي لفترة حاكما فرنسيا في المنطقة قبل ذلك وكان خبيرا بكل شؤونها الادارية والسياسية، وكان خطيبا مفوها فدخل في معركة عنيفة ضد هفويت بوانيي حول اتجاهه الجديد، وكان للاول في تلك المعركة انصار كثيرون بين صفوف الطلبة خاصة، وقد انتهت تلك المساجلات الغوغائية بانسحاب

داربـوسيي من منصبـه كمستشـار في الاتحاد الفرنسي وانسحب من الحزب ولم يتصالح مع زعيمه ويعود اليه الا في سنة 1956 حينما اصبحت المعارضة لاقيمة لها، وكان ممن انسحبوا ايضا وشكلوا اتجاهات مناهضة لزعامة هفويت في اتجاهه بالتجمع الديمقراطي الافريقي وجهته الجديدة هذه، جيبو بكاري الذي شكل حزبا مناهضا للتجمع الديمقراطي الافريقي في النيجر، وسلك الطريق نفسه أم نيوبي الذي كان كاتبا عاما لفرع الحزب في الكامرون، لما أبعد فرعه من الحزب.

وفي سنة 1956 اصبح سنغور زعيما للسنغال فحاول استقطاب الزعماء البرلمانيين لافريقيا السوداء الفرنسية والمناهضين لمبادىء حزب التجمع الديمقراطي الافريقي، من خلال التجمع البرلماني لهؤلاء والموجود منذ سنة 1948 تحت اسم نواب ما وراء البحار المستقلون Les Indépendants d'Outre-mer (I.O.M) وقد فعل سنغور ذلك معتمدا على محاولة توسيع ذلك التجمع بحيث يشمل غير النواب وحدهم، ولكن محاولته هذه لم تنجح، لان اتحاد النواب رغم ما أصبح عليه من طابع شهعبي في الفترة الأخيرة، فإن اهدافه لم تستقطب الناس وبقيت محدودة بين الاعضاء السياسيين النواب وبعض انصارهم الطبيعيين (26):

خلال فترة قيام حزب التجمع الافريقي الديمقراطي وفقا لمبادئه السياسية التفت حوله فئات عديدة من الافارقة، ونشطت فروعه فكان لها اعداد كبيرة من المنخرطين في كل الجهات، وأرسل كاتبه العام برقية تهنئة للزعيم الروسي ستالين في عيد ميلاده سنة 1948 وكل ذلك مما اثار حفيظة الساّسة في الوطن الام وفي افريقيا، وخلقت الادارة احزابا مناوئة لمبادئه كالفئة التي انشأها سانوقو Sanogo في ساحل العاج، كما القي القبض على عدد من اتباع ذلك الحزب من امثال زوروبيترا Zoro Bitra وسامبا امبرواز Samba Ambroise واغتيل بعض أتباعه كما حصل في قضية السناتور بياكا Biaka وبلغ في هذه الفترة عدد القتلى من اتباعه حسب الاعترافات الرسمية للادارة 52 افريقيا، اما المساجين فقد بلغ عددهم حسب الاحصاءات المعترف بها اداريا دائما 3000 مناضل، وقد منعت الاجتماعات في حقه ويبدو أن تراجع هفويت عن مبادىء حزبه الاولى تعود الى تقديره لضعف الامكانيات حيث أصبحت النتائج لا تتلاءم مع التضحيات

(26) Ki-ZERBO, op.cit; P506.

المبـذولـة وهذا مما دفعه حسب تعبيره للعودة الى (طريق الواقعية والتعاون) مع الفرنسيين طبعا.

وقد اعلن انسلاخه عن التعاون مع الشيوعيين على اثر محادثات أجراها مع فرانسوا ميتران الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب وزير المستعمرات (فرنسا ما وراء البحار (La France d'Outer-Mer) ثم جاءته المناسبة للتصالح الكامل مع الادارة اثنـاء تدشـين ميناء ابيدجـان في سنـة 1951 . وقد استفادت مجموعة (النواب) من المتاعب التي اصبح يعانيها حزب التجمع الديمقراطي الافريقي منذ تراجع زعيمه ولكن بصورة غير مباشرة، الا ان النتائج المرتقبة من طرفهم في هذا الاتجـاه كان هفـويت بوانيي أكثر منهم ذكاء في قطفها، ففي سنة 1956 اصبحت الادارة الفرنسية والزعماء السياسيون في فرنسا في انسجام تام مع حزب التجمـع الديمقراطي الافريقي في اتجاهه الجديد، وأعطوه كل المساندة بتعيين زعيمه وزيرا كامل الحقوق في الحكومة الفرنسية، فكان اول افريقي يحظى بهذا المنصب.

وبتخـلى هفـويت بوانيه الـذي كان اول وآخر (متطور) يسلك بالتجمع الافـريقي هذا الاتجـاه لفترة محدودة كما اسلفنا، اصبح من الواضح ان زعامة (المتطورين) لن تؤدي الى غير التماشي والخط المرسوم لها في النهاية.



الزعماء المتطورون والاستقلال

في الوقت الذي كان فيه الزعماء الافريقيون في المستعمرات الانكليزية يطالبون علنا بالاستقلال التام وربما اقل شيء كانوا يقبلونه هو الاستقلال الذاتي وذلك في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة، كانت قضية التفوه بالاستقلال بعيدة كل البعد على ما يظهر عن تفكير الزعماء في افريقيا (الفرنسية)، وذلك حتى نهاية الخمسينات من هذا القرن (1).

لقد شذ سنغور نظريا عن هذه القاعدة في التصريح الذي ادلى به لاحدى الصحف اليومية سنة 1946 وتفوه فيه بكلمة الاستقلال (2)، الّا ان ذلك كان في نطاق نظرية (الزنجية) التي كان احد دعاتها منذ البداية (3)، وقد دلت كل تصرفاته في الجمعية التأسيسية الفرنسية أولا ثم خلال الفترة الممتدة بين نهاية تلك الحرب الكونية حتى سنة 1958 على انه عمليا لم يكن ليشذ في شيء عن زملائه الآخرين من الزعماء في افريقيا المستعمرة من قبل الفرنسيين (4)

لقد كانت قضية الاستقلال من القضايا المطروحة دون شك في افريقيا (الفرنسية) قبل 1958 وكانت الفترة بين نهاية الحرب وتلك السنة فترة تهيئة

---

(1) Michael Crowder and Donal O'biren "French West Africa 1945 - 60"
In J. A. Ajayi and M. Crowder, éd. History of West Africa, London 1974,
Vol. 11. PP. 664 - 99.
(2) Cavroche, 8 Aout 1946.
(3) Irving Markovitz, Senghor and the politics of negritude, London, 1970, P. 103
(4) cf. Assemblée constituante, Journal officiel 1946;
Michael Crowder, op. cit; 664

للكيفية التي ستطرح بها في الوقت المناسب على ما يبدو، وقد اعلنت رسميا ولأول مرة سنـــة 1957 في بيان حزب الاســتــقــلال الافــريقــي Parti Africain de l'Indépendance (P.A.I) الـذي يتـزعمه سنغور، وفي السنة الموالية 1958 جعل الاقتراع الدستوري قضية الاستقلال في افريقيا الفرنسية من الامكانيات المعترف بها رسميا داخل الاطار العام للسياسة الفرنسية (5).

ولقد انصرف همّ الزعماء في افريقيا المستعمرة من طرف الفرنسيين خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة في انتزاع الوعود الفرنسية التي احتوتها قرارات مؤتمر برازافيل في سنة 1944 الى حيز الوجود وتطبيقها على بلدانهم، وهي تتلخص في النقاط التالية:

1) الغاء أعمال السخرة.

2) الغاء قانون الاهالي indigénat

3) الغاء قانون (الرعايا ـ Sujets) الذي يجعلهم في وضعية المهانين.

4) مشاركة اكثر في الاجراءات والأعمال السياسية المتعلقة بالامبراطورية الفرنسية، وخاصة الانتخابات والتمثيل.

5) ادخال الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي يستفيد منها الافارقة وخاصة فيما يتعلق بمساواة الافارقة بالموظفين الاوروبيين في الاجور والامتيازات. وفي الجمعية الوطنية الفرنسية انضم اولئك الزعماء إمّا الى كتلة النواب الاشتراكيين S.F.I.O (Section française de l'Internationale œuvrière) أو إلى كتـلة الـنـواب الشيوعيين، وكـل من هاتين الحركتين لم تكونا لتقبلا انفصال المستعمرات عن الوطن الأم Métropolitaine ولكنهما كانتا تؤيدان مطالب الممثلين الأفارقة فيما يتعلق بادخال الاصلاحات المؤدية الى ديمقراطية الامبراطورية الفرنسية وليس اكثر من ذلك.

(5) Archives Nationales (DAKAR), Dossier 13 G 17/36.

لقد كان الممثلون الافارقة في الجمعية الوطنية زعماء أحزاب سياسية بارزة، وقد نشأت تلك الاحزاب على ضوء الدستور الفرنسي لسنة 1946 فكفل لها الظهور والبقاء. أمّا حصر مطالبهم في تنفيذ الوعود الفرنسية التي احتواها تصريح مؤتمر برازافيل حتى نهاية الخمسينات وحينها اشتدت ثورة الجزائر وآن للامبراطورية الفرنسية ان تدخل تغييرات على سياستها المباشرة، فيرجع تفسيره الى أن تلك الزعامات والاحزاب كانت من خلق السياسة الفرنسية نفسها، ويلخص لنا هذه الحقيقة الاستاذان الباحثان كراودر و أوبريان في دراستهما القيمة قائلين:

The majority of parties that "mashroomed" in french West Africa after the war were directLy sponsored by the french administration who recognised that, under the new constitution, if they were to continue to control West Africa, they would have to control the parties electing representatives to the national Assembly and other legislative bodies (6)

مؤتمر برازافيل 30 جانفي (يناير) -8 فيفري (فبراير) 1944

تأسست الجمعية الفرنسية للتحرير الوطني Le comité français de libération nationale (C.F.L.N) في شهر جوان (حزيران) 1943 بالجزائر العاصمة تحت رئاسة الجنرال ديغول واستطاعت ان تكسب الى جانبها منطقة المستعمرات الفرنسية في افريقيا الغربية والمدارية على السواء.

وكان السكان الافارقة قد تعرضوا لكثير من الضغوط وفرضت عليهم أعمال السخرة أكثر من السابق خلال عهد الماريشال بيتان كما يسيق الآلاف منهم الى جبهات القتال، وأثناء الحرب قام الحلفاء بدعاية واسعة لتحرير الشعوب وذلك لكي يواجهوا الدعاية الالمانية في هذا الصدد. لقد كان اشد ما كانت تخشاه فرنسا هو ضياع مستعمراتها عليها بعد الحرب.

وكان ذلك مما دفع الجنرال ديغول إلى عقد مؤتمر في برازافيل اطلق عليه اسم مؤتمر برازافيل الافريقي الفرنسي Conférence Fronco-Affricaine de Brazzaville وقد انعقد هذا المؤتمر تحت رئاسة مندوب المستعمرات PLEVEN التابع لجمعية التحرير الوطني الديغولية، وضم كل الحكام والخبراء الفرنسيين ومساعديهم في المستعمرات الفرنسية في افريقيا السوداء، وكذلك ممثلين عن البعثات التبشيرية ولم يحضره من غير الفرنسيين بالدم سوى **أفراد مختارين جدا من الموالين الأفارقة**.

(6) M. Crowder and O'brien, op. cit; p. 672

وقد افتتحه الجنرال ديغول وحدد اهدافه والظروف الداعية لانعقاده اي النـظر في مستقبل افريقيا السوداء الفرنسية وتحديده في اطار السيادة الفرنسية، وذلك بعد الظروف النفسية التي تولدت عن الحرب، ومما جاء في هذا الخطاب قوله :

«انه تحت تاثير القوى النفسية التي اندلعت خلال الحرب فان كل مجموعة من السكان وكل فرد يرفع رأسه ناظرا لما بعد اليوم متسائلا عن مصيره. . .» ثم خلص الى القول :

«انّه يعود للأمة الفرنسية ولا يعود لأحد سواها أن تعمل خلال وقت قادم على ادخال الاصلاحات البنائية الكبرى التي تقررها ضمن اطار سيادتها» (7).

يقول الباحث الافريقي الاستاذ كي زربو في تحليله لخطاب ديغول هذا ومؤتمر برازافيل الذي ألحق به اسم (الافريقي - الفرنسي) كما اسلفنا :

«لم يحضر افريقي واحد ذلك المؤتمر، فكان بمثابة ملتقى استكشافي من جانب واحد، ويهدف الى تحضير اعادة تكوين الروابط بين فرنسا ومستعمراتها كما يهدف ايضا الى ايجاد عناصر القوة لموقف فرنسا في المفاوضات تجاه شركائها في الحرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وكان من الضروري لحركة المقاومة الفرنسية أن تؤكد كممثل وحيد لفرنسا وضعيتها في التمكن من السلطة باسمها وباسم امبراطوريتها» (8).

لقد انطلقت جميع الخطوات لتسيير شؤون افريقيا الفرنسية حتى 1957 على الاقـل من مؤتمـر برازافيل، وقد قرر المؤتمرون أن يكون الافارقة ممثلين في المؤسسات الدستورية بعد الحرب؛ وفيما يخص العمل الاجباري الجارية به العادة آنذاك تقرر: (انه اذا كان المجهود الحربي يتطلب مؤقتا المحافظة على نظام العمل فان المؤتمر مجمع على تأكيد الاولوية المطلقة للحرية في الشغل، وأن مدة خمس سنوات يترك الأمر خلالها للسلطات المحلية كي تسترجعه).

---

(7) Commisseriat aux colonies, Alger 1944.
(8) Ki-Zerbo - Histoire de l'Afrique Noire, Paris 1972, P. 498

وفيما يتعلق بالعقوبات التي كان يقتضيها قانون الاهالي Indigénat بصورة عادية، ذهب المؤتمـرون الى العمـل على الغائها مع نهاية الحرب ولكن بصورة تدريجية، كما كان من المقررات الهامة أيضا تكوين المجالس التمثيلية التي يشارك فيها الاهالي والاوروبيون على أساس نظام الانتخابات الطبقية او المتوازية Double collèges وذلـك بهدف (الـرفع، ودون تحديد كلي لنوعية المجهود، من المستوى المادي والاخلاقي والثقافي للفرد الافريقي الفرنسي).

وقـد صرح الحـاكم العـام دالماس Delmas الذي كان ابرز أعضاء المؤتمر ملخصا أهداف المؤتمرين في استهدافهم المحافظة على الحكم الفرنسي بصورته المباشرة قائلا:

«في الاستعـمار هنـاك ثلاث سياسـات يمكن اتبـاعهـا: الـرعـوية Assujettissement الاستقلال المحلي؛ والمزج. ان الاستعمار الفرنسي قاعدته هي المزج مع شيء من الاستقلال المحلي وبعض الاشياء من الرعوية التي يتوصل اليها شيئـا فشيئـا، لقد اخترنا طريقة الامبراطورية بمعناها الروماني وليس بمعانيها الانكلوسكسـونية، وهـذا لا يعني اننا لايجب أن نطبق غير الحلول الرومانية؛ فالمشكل الروماني كان بحرا متوسطيا أما مشكلنا فهو عالمي»(9).

وجاء في مقررات المؤتمرين أيضا التأكيد على:

«أن أهداف عمل الاستعمار التي انجزتها فرنسا في المستعمرات تستعيد كل ما قد ينم على الاستقلال الذاتي، وكل امكانية للتطور خارج مجموعة الامبراطورية الفرنسية أي التكون المحتمل ولو من بعيد للاحكام الذاتية في المستعمرات هي مبعدة».

وبذلك تحدد الاطار النهائي للعمل السياسي الرسمي في افريقيا الفرنسية حتى منتصف الخمسينات.

العلاّمة توينبي وتراث الحقبة الاستعمارية في افريقيا

يجد المتتبع للقضايا الافريقية في التراث المكتوب للعلامة توينبي ، أن الرجل بدأ يكتب ويهتم أكثر بالقضايا الافريقية حينما أصبح في سن الشيخوخة، وهو ربما كان يتتبع ويهتم بهذه القضايا قبل ذلك بزمن طويل او قصير إلاّ ان التطورات السريعة التي رأتها القارة الافريقية منذ الستينات من هذا القرن لفتت انتباهه أكثر، وبدأ يكتب عنها مع بداية السبعينات، فقد زار توينبي الجمهورية العربية المتحدة (مصر) في الفترة ما بين 2 الى 22 ديسمبر 1961 ، وزار المغرب الاقصى في الفترة ما بين 6 الى 13 جوان 1962 ثم زار كلا من الجمهورية العربية المتحدة للمرة الثانية وبعدها نيجيريا والسودان وأثيوبيا وليبيا في الفترة ما بين 19 فيفري الى 22 أفريل 1964 . وقد صرح توينبي على اثر هذه الزيارات بأنه اكتشف تلك البلدان الافريقية حسب تعبيره (10) .

وبعد تلك الزيارات كتب توينبي انطباعاته الى عدد من المجلات والجرائد البريطانية، غير ان معظمها كان قد خص به جريدة الاوبسيريفر Observer الاسبوعية. ثم جمعت تلك المقالات في كتاب اصدرته مطابع اكسفورد الجامعية في لندن سنة 1965 تحت عنوان بين النيجر والنّيل. وقد ترجم هذا الكتاب نفسه الى اللغة الفرنسية وطبعته مؤسسة السندباد سنة 1972 تحت عنوان آخر «افريقيا العربية وإفريقيا السوداء»

(10) A. J. Toynbee - Afrique Arabe Afrique Noire, Paris 1972 (Avertissement de l'édition originale)

وقد جاءت فكرة هذا العنوان الأخير على ما يبدو من المقدمة القصيرة التي كان كتبها توينبي للطبعة الانجليزية سنة 1965، والتي جاء فيها: (ان هذه النصوص «اي نص الكتاب» لها محور أساسي هو التنازع بين العروبة والزنجية في افريقيا الذي سيكون دون شك عنصرا مهما في السياسة العالمية في المستقبل (11).

والحقيقة أن كلاّ من العنوانين لهذا الكتاب له أهميته هنا، فقد زار توينبي افريقيا واهتم خاصة بالمنطقة المعروفة لدى العرب منذ العصور الاسلامية الزاهرة بمنطقة السوادين، (جمع سودان)، وهي المنطقة التي يشير اليها عنوان الكتاب في أصله بالانجليزية بما بين النيجر والنّيل، فكان لذلك معناه الجغرافي، أما المحتوى التحليلي الأهم فيما يتعلق بالنظرة الى المستقبل والماضي الذي كان توينبي يرمي اليه فهو ما ينطبق عليه عنوان الطبعة الفرنسية للكتاب.

ان منطقة السوادين هي المنطقة التي دخلت في ظل الحضارة العربية الاسلامية وامتزجت بالتدريج أكثر من أي جزء آخر في افريقيا السوداء، فلما بدأت الفترة الاوروبية في القارة السوداءمع نهاية القرن الماضي، خضع السكان في السوادين لتوجيهات أخرى كما هو معروف، ولكنهم اظهروا صلابة فيما يتعلق بالتصاقهم العقائدي والحضاري السابقين كمجموعات أحيانا وكأفراد في أحيان أخرى ولو لبعض الوقت، وقد نجح الاوروبيون في جميع افريقيا الى الجنوب من حدود السوادين في كسب السكان لعقيدتهم ولأهدافهم الحضارية الأخرى، فأعطوهم من حظوظ الثقافة ما جعل النخبة من بينهم تتفوق في ميدان الثقافة الحديثة على سكان السوادين الذين كانوا خلال الفترة السابقة للاحتلال والتوسع الأوروبيين هناك، أكثر من غيرهم معرفة والماما به.

ولما جاءت فترة الاستقلال وجدت هناك أسباب لوجود منطقة أو مناطق للتوتر على هذا الأساس، وقد تتبعها توينبي بالشرح الوافي وحلل دواعيها البعيدة والقريبة على طريقته المعهودة في التعميم العميق، وذهب في تحليلاته تلك الى حد التكهن أحيانا بما كان سيحدث في المستقبل القريب.

(11) Ibid.

يقول توينبي في مقدمته التي كتبها للطبعة الفرنسية : ان السبع سنوات التي تفصلنا عن الطبعة الأولى . . قد رأت لسوء الحظ تحقيق بعض التوقعات المتشائمة المسجلة في هذه الصفحات ، ففي نيجيريا وقع الصراع الأكثر مأساة ، وقد كان لي الشعور أثناء زيارتي (لها) بضغوطه الحضارية في كل مكان . . . (12)

وفي اثيوبيا كنت أحس بالتصادم القائم الى الآن ، والذي تعارض فيه القوميات الأمهرية رفض صومالي الشرق للإمبراطورية ، ولكني لم أكن اتوقع قيام حرب العصابات في إيريتريا ، أما تغيير نظام الحكم في ليبيا فانه لم يفاجئني ، فقد كان واضحا خلال زيارتي الى أن الحكومة الملكية لم تكن تقبل متطلبات وقائع الحياة العصرية . ويستطرد توينبي في تعليقه على حرب 1967 بين العرب واسرائيل ونتائجها خاصة فيما يتعلق بمصر فيقول : (وفي مصر كنت مقتنعا بصورة واقعية بطبيعة حدة التصادم الذي يتعارض فيه العرب والإسرائيليون ولكن لم يتبادر الى ذهني أن يقوم الإسرائيليون بهجوم جوان 1967 ضد الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والأردن ، وقد كان من نتائج ذلك الاعتداء احتلال مسلح مرة أخرى لأراضي عربية هامة واخضاع آلاف من العرب الى القوانين العسكرية لاسرائيل بعد أن كانوا أحرارا الى وقت قريب قبل ذلك . وهؤلاء العرب اللاجئون أنفسهم من جراء اعتداءات اسرائيلية سابقة ، كما أني لم أكن أتوقع أن تتوقف قناة السويس من جديد عن العمل) .

ويشير توينبي بعد هذا الى قضية الشمال والجنوب التي عرفها السودان بصورتها الانفصالية المعروفة فيرى أن الشماليين ألحقوا بالجنوبيين من الآلام ما يلحقه الإسرائليون بالعرب في المناطق المحتلة ، ثم يرى في الاتفاق الذي عقده الجانبان بهدف التصالح الوطني حلاّ عادلا مما كان يبشر بسلم دائم لتلك البلاد ، على حد تعبيره (13) .

وبعد أن يقرر توينبي في مقدمة كتابه هذا في طبعته الفرنسية بأن القارة الافريقية كانت تشهد على ايامه ولا تزال تطورات سريعة تفوق في سرعتها ما

(12) الاشارة هنا الى حرب بيافر الشهيرة في نيجيريا .

(13) Toynbee, op. cit; préface de l'édition française.

يجري على ساحة أية قارة أخرى ينتهي الى النتيجة التالية وهي (ان أعمق ما تحتاج اليه افريقيا والعالم معها هو تغيير جذري في المفاهيم) (14).

ان المتتبع لما كان يجري وما هي الأوضاع الحقيقية في بلدان افريقيا المستقلة الآن يدرك ولاول وهلة الى اي حد تبدو هذه العبارة عميقة وصادقة فيما كتبه توينبي عن افريقيا، فلقد خلقت طبقة النخبة الجديدة أثناء الفترة الأوروبية وأعطي لها الحكم لتخدم كما هو معلوم أهدافا خاصة وتنتقم من كل من يعارضها أبشع انتقام (15).

لقد صنف توينبي نفسه في كتابه (العالم في مارس 1939) بين أولئك الذين يهتمون بالقضايا العالمية وذلك لأنه حسب تعبيره (يكون مخطئا من ينظر حوله ويتناسى أن يلقي بنظرة نحو المستقبل والماضي معا) (16).

وانطلاقا من هذه الفكرة كان توينبي يكتب عن القضايا الافريقية بروح المؤرخ الفيلسوف مبينا أخطاء الاوروبيين نحو الافارقة، ففي كتابه (المسيحية والديانات الاخرى للعالم) كان يرى بأن عالم اليوم عالم مادي ويرى أن على المسيحيين أن يبشروا بديانتهم على أساس التسامح الحقيقي وليس على اساس التعالي (17).

وفي كتابه (العالم والغرب) أكد هذا الانطباع: (ان الشعوب غير الغربية يمكن أن تختلف حول الجنس أو اللسان أو الحضارة أو الديانة، ولكنها تتفق اتفاقا كليا حول نقطة هي انها اذا سئلت من طرف أحد الغربيين في رأيها حول الغرب فانها تفضل كلها جوابا واحدا. فتقول كلها ان الغرب كان معتديا كبيرا خلال العصور الحديثة، وكل شعب يستطيع اثارة تجاربه ليعلل هذا القول)، وبعد أن يأتي توينبي على تعداد نوعية الاجوبة التي يثيرها في هذا الصدد كل من الآسيويين

---

(14) Ibid.
(15) CF. SAMIR Amin, New Colonialism in West Africa, NewYork 1972; Lucy Mair "New elites in Eastand West Africa" in Victor Tuner, ed. Colonialism in Africa 1870 - 1960;
Ajayi et al — Christian mission in Nigeria 1841 - 91 -The making of a newelite, Evans 1965; georges Hardy, op. cit.
(16) ToYnbee et Aston Frank, Le Monde en Mars 1939, Irad. M. Todd, Paris 1958 (Introduction)
(17) Toynbee, Le Christianisme et les autres religions du monde, Paris 1959.

والأمريكيين، ينتقل الى ما يجيب به الافارقة فيقول (يتذكر جميع الافارقة بأنهم كانوا قد انزلوا الى العبودية وحملوا الى الطرف الآخر من المحيط ليخدموا الاوروبيين الذين كانوا قد استعمروا الامريكيين وأصبحوا بين ايديهم مجرد آلات مكلفة بالسهر على الثروات التي كانوا متعطشين لها) (18).

لقد كان توينبي في كتاباته عن القضايا الافريقية ينطلق دائما من فكر انساني واسع الأفق، فهو يؤكد دائما على الجانب الانساني كأساس للحياة وهذا يظهر بجلاء في كتابه (المدن في التاريخ) الذي اكد فيه توينبي على ضرورة العناية بالانسان كأساس للحياة القومية على الارض (19).

كما انه في المحاضرات الأربع التي القاها في كليات القاهرة سنة 1966 كان يدعو الى وجوب التخلي عن جميع الأفكار الضيقة ويحث على وجوب الاهتمام بالنظرة العالمية الشاملة التي تتناسب وتضايق المسافات بين الامم والشعوب وكل أجزاء الكرة الارضية ويدعو كذلك الى خلق البرامج المناسبة لتغيير افكار الفرد التقليدية المتعصبة نحو هذا الاتجاه، وقد كانت كتاباته عن القضايا الافريقية تتسم دائما بهذه الميزة (20).

◈

(18) Toynbee, Le Monde et l'Occident, Paris 1953, P. 72 F.
(19) Toynbee, Les villes dans l'histoire, Paris 1972.

(20) انظر/ محاضرات توينبي، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، القاهرة 1966.

ملاحق

ملحق رقم : 1 ـ ابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) :
وصف ماسماه بجنوبي الارض من بلاد السودان

ملحق رقم : 2 ـ اقليم السودان في كتاب البكري أبي عبد الله (القرن الحادي عشر للميلاد) :
ـ ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة .

ملحق رقم : 3 ـ بعض ما ورد نصه عن غرب افريقيا في كتاب رحلة ابن بطوطة (القرن الرابع عشر)

ملحق رقم : 4 ـ اليفرني (مؤرخ الدولة السّعدية) وغزو المنصور السعدي لمملكة سنغاي الاسلامية (1591م)
أ ـ المنصور يقنع اعضاء المجلس الملكي بالفوائد المادية للغزو
ب ـ قضية الاسلحة غير المتكافئة بين الجيشين .

ملحق رقم : 5 ـ نفي آل أقيت الى مراكش ومآثر أحمد بابا بها .

ملحق رقم : 1

(ابن حوقل - القرن العاشر للميلاد) وصف ما سماه بجنوبي الأرض من بلاد السودان

في صفحة 24 من كتابه «صورة الارض» (1) قال:

وأما بجنوبي الارض من بلاد السودان فان بلدهم الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط، بلد ملتف، ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال. غير أن حدا له ينتهي الى البحر المحيط، وحدا له ينتهي الى برية بينه وبين أرض المغرب وحدا له ينتهي إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحدا له ينتهي الى البرية التي ذكرت أنها لاتنبت ولا عمارة فيها لشدة الحر، وطول أرضهم ألف فرسخ في نحوها عرضا، غير أنها الى البحر لا الى ظهر الواحات أطول من عرضها، وفي صفحة 98 قال:

وملك اودغست هذا يخالط ملك غانة وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها لما لديه من الأموال والمدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم وله، ويهادي صاحب كوغة وليس كوغة بقريب من صاحب غانة في اليسار وحسن الحال ويهادونه، وحاجتهم الى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام فانه لا قوام لهم الا به وربما بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين الى ثلاثمائة دينار.

(1) طبعة ليدن 1938.

ملحق رقم: 2

اقليم السودان في كتاب البكري
(القرن الحادي عشر للميلاد)

المغـرب في ذكـر بلاد افـريقية والمغـرب، وهو جزء من كتاب «المسالك والممالك» طبعة 1857 ـ نشر البارون دى سلان.

(ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة: واتصال بعضها ببعض، والمسافات بينها، وما فيها من الغرائب، وسير أهلها)
ص 172. الى 185.

المصاقبون لبلاد السودان بنو جدالة هم آخر الاسلام خطة واقرب بلاد السودان منهم صنغانة بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام، ويلي مدينة صنغانة مدينتان على ضفتي النيل (1) وعمارتها متصلة الى البحر المحيط ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل مدينة تكرور أهلها سودان وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم حتى وليهم وارجـابي بن رايس فأسلم واقـام عنـدهم شرائع الاسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها وتوفي سنة اثنتين وثلاثين وأربع مائة، فاهل تكرور اليوم مسلمون وتيسـير من مدينة تكرور الى مدينة صلى وهي مدينتان على شاطىء النيل أيضا وأهلها مسلمون أسلموا على يدي وارجابي رحمه الله وبين صلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوما في عمارة السودان القبيلة بعد القبيلة وملك صلي (2) يحارب كفارهم

(1) المقصود هنا نهر النيجر

(2) او مالى

وليس بينه وبين اولهم الا مسيرة يوم واحد وهم أهل مدينة قلنبو وهو واسع المملكة كثير العدد يكاد يقاوم ملك غانة وتبايع أهل صلى بالذرة والملح وحلق النحاس وأُزر لطاف من قطن يسمونها الشكيات والبقر عندهم كثير، وليس عندهم ضأن ولا معز وأكثر نبات أرضهم الأبنوس ومنه يحتطبون وفيها يتصل ببلادهم من النيل من موضع يقال له صحابي حيوان في الماء يشبه الفيل في عظم خلقته وفنطيسته وأنيابه يسمونه قفوا وهو يرعى في البراري ويأوي الى النيل وهم يميزون موضعه من النيل بتحرك الماء على ظهره فيقصدونه بمزاريق حديد قصار في اسافلها حلق قد شدت فيها الحبال المديدة فيرمونه بالعدد الكثير منها فيغوص ويضطرب في أسفل النيل فاذا مات طفا على الماء فجذبوه وأكلوا لحمه وصنعوا من جلده هذه الاسواط التي تسمى السريافات ، ومن هناك تحمل الى الآفاق ويلي هذا البلد مدينة قلنبو بينهما مسيرة يوم على ما تقدم وهي على النيل وأهلها مشركون ويتصل بقلنبو مدينة ترنقة وهو بلد عريض ، وعندهم تصنع الازر المسماة بالشكيات التي تقدم ذكرها وهي أربعة أشهار في مثلها وليس في بلدهم كثير قطن غير أنهم لا تكاد تخلو دار أحدهم من شجرة قطن وحكم أهل هذه البلاد والمذكور مثلها من بلاد السودان أن يخير صاحب السرقة في بيع السارق أو قتله وحكمهم في الزاني أن يسلخ من جلده ومن ترنقة تصل العمارة بالسودان الى بلد زافقوا وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذي عرض وذنب رأسه كرأس البختي ، وهو في مغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم متعبدين معظمين لتلك الحية ويعلقون نفيس الثياب وحر المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب وهم اذا أرادوا اخراجه الى العريش تكلموا كلاما وصفروا صفيرا معلومـا فيبرز اليهم واذا هلك احـد من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للمملكة وقربوهم اليها وتكلموا بكلام يعلمونه فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمهم رجلا رجلا حتى تنكز أحدهم بأنفها فاذا نكزته ولت الى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأجـد ما يقـدر عليه من السير ليجذب من ذنبها أو عرفها بأشد ما يقدر عليه شعرات فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكل شعرة سنة لا يخطيهم ذلك بزعمهم وتليهم بلاد الفرويين وهي مملكة للفرويين على خدتها ومن غريب ما فيهـا بركة يجتمع فيها الماء ينبت فيها نبات أصوله أبلغ شيء من تقوية الباه والعون عليها والملك يمنع منها ولا يصل منها شيء الى غيره وله من النساء عدد عظيم فاذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن قبل ذلك بيوم ثم استعمل ذلك الدواء فيطوف عليهن ولا يكاد ينكسر وقد اهدى اليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدية نفيسة واستهداه شيئا من هذا النبات فعاوضه على هديته وكتب إليه يقول

إن المسلمين لا يحل لهم من النساءالا قليل، وقد خفت عليك إن بعثت اليك الدواء أن لا تقدر على امساك نفسك فتاتي بها لا يحل لك في دينك ولكن قد بعثت اليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له، وبلاد الفرويين يبدل الملح فيها بالذهب.

ذكر غانة وسير أهلها

وغانة سمة لملوكهم واسم البلد أوكار واسم ملكهم اليوم وهي سنة ستين وأربعمائة تنكامين وولى سنة خمس وخمسين وكان اسم ملكهم قبله بسى ووليهم وهو ابن خمس وثمانين سنة وكان محمود السيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين وعمي في آخر عمره فكان يكتم ذلك عن أهل مملكته ويريهم انه يبصر وتوضع بين يديه اشياء فيقول هذا حسن وهذا قبيح وكان وزراؤه يلبسون ذلك على الناس ويلغزون للملك بما يقول فلا تفهمه العامة وبسى هذا خال تنكامين وتلك سيرتهم ومذهبهم أن الملك لا يكون الا في ابن اخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن اخته وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به وتنكامين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه ولها الائمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم ولتلك الغابات حرس ولا يمكن لأحد دخولها ولا معرفة ما فيها وهناك سجون الملك فاذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه.

ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده وهو ابن اخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر احوالهم وهم أجمع

يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رؤوسهن وملكهم يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة وهو يجلس للناس، والمظالم من قبسه ويكون حوالي القبسة عشر افراس بثياب مذهبة ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الجحف والسيوف المحلاة بالذهب وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ضفروا رؤوسهم على الذهب وعليهم الثياب الرفيعة ووالي المدينة بين يدي الملك جالس في الارض وحواليه الوزراء جلوسا على الارض وعلى باب القبة كلاب منسوبة لاتكاد تفارق موضع الملك تحرسه في اعناقها سواجير الذهب والفضة يكون في الساجور (عدد) رمانات ذهب وفضة وهم ينذرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا وهو خشبة طويلة منقورة فيجتمع الناس فاذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحتهم وأما المسلمون فانما سلامهم عليه تصفيقا باليدين، وديانتهم المجوسية وعبادة الدكاكير واذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطا فأدخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجلا ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهما باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والامتعة ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتي كالجبل الضخم ثم يخندقون حولها حتى لا يصل الى ذلك الكوم الا من موضع واحد وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور. وللملكهم على حمال الملح دينار ذهب في ادخاله البلد وديناران في اخراجه وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل وافضل الذهب في بلاده ما كان بمدينة غياروا وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوما من بلاد معمورة بقبائل السودان مساكن متصلة، واذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك وانما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق ولولا ذلك لكثر الذهب بايدي الناس حتى يهون والندرة تكون من اوقية الى رطل. ويذكر ان عنده منه ندرة كالحجر الضخم، وبين مدينة غياروا والنيل اثنا عشر ميلا وفيها من المسلمين كثير وغانة بلدة غير مستوية (1) غير آهلة لايكاد يسلم الداخل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم ويقع الموتان في غربائها عند استحصاد الزرع، فأما الطريق من غانا الى غياروا فالى مدينة سامقندي اربعة ايام واهل سامقندي ارمى السودان بالنشاب ومنها الى

---

(1) كذا في الاصل.

بلد يسمى طاقة يومان واكثر شجر طاقة شجر يسمونه «تادموت» وهو شجر أراك الا ان له ثمـرا كالبـطيخ داخله شيء يشبـه القنـد تشوب حلاوته حمضة نافعة للمحمومين، ومن هناك الى خليج من النيل يقال له زاغو مسيرة يوم تخوضه الجمال ولا يعبره الناس الا في القوارب ومنه الى بلد يقال له (غرنتل) وهو بلد كبير ومملكة جليلة لا يسكنه مسلمون ولكنهم يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق اذا دخلوا بلادهم وتلد عندهم الفيلة والزرافات ومن غرنتل الى (غياروا)، وملك غانا اذا احتفل ينتهي جيشه مائتي الف منهم رماة أزيد من أربعين الفا، وخيل غانة قصار جدا وعندهم الابنوس الجيد المجزّع وهم يزرعون مرتين في العام مرة على ثرى النيل اذا خرج عندهم واخرى على ثرى، وبغربي غياروا على النيل مدينة يرسنى يسكنها المسلمون وما حولها مشركون وفي يرسنى معز قصار فاذا وضعت الماعزة ذبحوا الذكور وابقوا الانثى وعندهم شجر تحتك بها هذه المعزى فتحمل من ذلك العـود وتلد من غير ذكـر وهـذا معلوم عنـدهم غير منكر وحدث به جماعة من المسلمين الثقاة، ومن يرسنى يجلب السودان العجم المعروفين بنو نغمارته وهم تجار التبر الى البلاد وما وازاها من ضفة النيل الثانية مملكة كبيرة أزيد من مسيرة ثمانية ايام سمة ملكهم دو وهم يقاتلون بالنشاب، ووراءه بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالمسلماني وانّما سمي بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولا يزدادون الا قحطا وشقاء وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة فشكا اليه الملك ماداهمهم من ذلك فقال له: «ايها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الاسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك وان تعم الرحمة أهل بلدك وان يحسدك على ذلك من عاداك وناواك فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ثم استأنى به الى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده، وبرزوا الى ربوة من الارض فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتم به فصيا من الليل ما شاء الله والمسلم يدعو والملك يؤمن، فما انفجـر الصبح الا والله قد اعمهم بالسقي فأمر الملك بكسر الدكاكير واخراج السحرة من بلاده، وصح اسلامه واسلام عقبه وخاصته و اهل مملكته مشركون فوسموا ملوكهم منذ ذاك بالمسلماني، ومن اعمال غانة المنضافة اليها بلد يسمى سامه ويعرف اهله بالبكم بينه وبين غانة مسيرة أربعة ايام وهم يمشون عراة، الا ان المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها وهن يوفرن شعر العانة ويحلقن شعر

الـرأس، وحدث ابو عبد الله المسكي أنه رأى منهم امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية فتكلمت بكلام لم يفهمه فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر أنها تمنت ان يكون شعر لحيته في عانتها فامتلأ (العربي) غضبا وأوسعها سبا، والبكم لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة ويورثون الابن الاكبر مال الاب كله، وبغربي مدينة غانا مدينة انبارة وملكها اسمه (نارم) وهو معاند لملك غانة وعلى تسع مراحل من مدينة انبارة مدينة كوغة وبينها وبين غانة مسيرة خمس عشرة مرحلة وأهلهـا مسلمـون وحواليها المشركون واكثر ما يتجهز اليها بالملح والودع والنحاس والفربيون انفق شيء عندهم وحواليها من معادن التبر كثير وهي اكثر بلاد السودان ذهبا وهناك مدينة الركن وملكها يسمى قنمر بن بسي ويقال انه مسلم يخفي اسلامه، وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أميّة انفذوه الى غانة من صدر الاسلام وهم على دين أهل غانة الا انهم لاينكحون من السودان ولا ينكحونهم فهم بيض الالوان حسان الوجوه، وبسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان وببلاد غانة حكم الماء وذلك أنه من ادعى عليه بمال أودم او غير ذلك عمد امينهم الى عود فيه حرافة ومرارة ورقة وصبّ عليه من الماء قدرا ما وسقاه المدعي عليه فان رماه من جوفه علم انه بريء وهنّيء بذلك وان لم يرمه وبقي في جوفه صحت الدعوى عليه، ومن الغرائب ببلاد السودان شجـرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزي تنبت في الرمال ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض تصنع منه الثياب والاكسية ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الصـوف من الثياب لو أوقـدت عليه الدهر، وأخبر الفقيه عبد الملك ان اهل اللامس بلد هناك ليس لهم لبس الا من هذا الصنف ومن هذا الجنس حجارة بوادي درعـة تسمى بالـبربرية تامطغست تحك باليد فتلين الى ان تاتي في قوام الكتان فيصنع منها الامرة والقيود للدواب فلا تؤثر النار في شيء من ذلك وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناتة بسجلماسة وأخبرني الثقة أنه شهد تاجرا قد جلب منه منديلا الى فرد لند صاحب الجلالقة وذكر انه منديل لبعض الحواريين وأن النار لا تؤثر فيه واراه ذلك عيانا فعظم موقعه من فردلند وبذل له فيه عناء وبعث به فردلند إلى صاحب [الـ]قسـطنطينية ليوضع في كنيستهم العظمى فعند ذلك بعث إليه صاحب قسطنطينية التاج وامر بالتتويج، وقد حدث جماعة انهم رأوا منه هداب منديل عند ابي الفضل البغدادي تحمى عليه النار فيزداد بياضا ويكون له النار غسلا وهو كثوب الكتان.

واذا سرت من غانة تريد طلوع الشمس تسير في طريق معمورة بالسودان الى موضع يقال له أوغام يحرثون الذرة وهو عيشهم ثم تسير من هناك اربعة ايام الى موضع يقال له رأس الماء وهناك تلقى الفيل خارجا من بلاد السودان وعليه قبائل من البربر مسلمون يسمون مداسة وبإزائهم من الشط الثاني مشركو السودان ثم تسير من هناك ست مراحل على النيل الى مدينة تيرقي ويجتمع في سوق هذه المدينة أهل غانة وأهل تادمكة وتعظم السلاحف (بتيرقي) وتتخذ في الارض أسرابا يمشي فيها الانسان ولا يطيقون استخراج واحدة منها الا بعد شد الحبال فيها واجتماع العدد الكثير عليها، وأخبرني الفقيه أبو محمد عبد الملك بن نخاس الغرفة أن قوما عرسوا في طريق تيرقي والارضة هناك تاتي على ما تجده وتفسد ما وصلت اليه وتخرج من التراب أكواما كالروابي ومن الغرائب ان ذلك التراب ثرّند والماء هناك غير موجود على ابعد حفر فلا توضع الامتعة الا على الحجارة المجموعة أو الخشب الموضوعة فارتاد كل واحد من القوم لمتاعه حرزا من الارضة وبدر أحدهم فيما ظن الى صخرة كبيرة فانزل عليها وقر بعيرين كانا معه فلما هبّ من نومه سحرا لم يجد الصخرة ولا ما كان عليها فارتاع ونادى بالويل والخراب فاجتمعوا اليه يسألونه عن خطبه فاخبرهم فقالوا لو طرقك لصوص لاخذوا المتاع وبقيت الصخرة فنظروا فاذا اثر سلحفاة ذاهبة من الموضع فاقتفوه اميالا حتى ادركوها وحملا المتاع على ظهرها وهي التي حسبها صخرة ومن تيرقي يرجع النيل نحو الجنوب في بلاد السودان فتسير عليه نحو الثلاث مراحل فتدخل بلاد سغماره وهم قبيل من البربر في عمل تادمكة ويحاذيهم من الشط الثاني مدينة كوكوا للسودان وسيأتي ذكرها وما والاها ان شاء الله.

فاما الجادة من غانا الى تادمكة وبينهما مسيرة خمسين يوما فمن غانة الى سفنقو ثلاث مراحل وهي على النيل وهي آخر عمل غانة ثم تصحب النيل الى بوغرات فيه قبيل من صنهاجة يعرفون بمداسة وأخبر الفقيه أبو محمد عبد الملك أنه رأى في بوغرات طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته كل سامع امنها ما لا يشوبه ليس قتل الحسين قتل الحسين يكرر مرارا ثم يقول بكر بلا مرة واحدة قال عبد الملك سمعته انا ومن حضر من المسلمين معي، ومن بوغرات الى تيرقي ثم تسير منها من الصحراء الى تادمكة وتادمكة اشبه بلاد الدنيا بمكة ومعنى تادمكة هية مكة وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكوا وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء وعيشهم

من اللحم واللبن ومن حب تنبته الارض من غير اعتمال ويجلب اليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولى وغير ذلك وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصا اصفر وسراويل زرقاء ودنانيرهم تسمى الصلع لانها ذهب محض غير مختومة ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسنا والزنا عندهم مباح وهن يبادرن التجار ايتهن تحمله الى منزلها. فان أردت من تادمكة الى القيروان فانك تسير في الصحراء خمسين يوما الى وارجلان وهي سبعة حصون للبرابر أكبرها يسمى اغرم ان يكامّن اي حصن العهود ومنها الى مدينـة قسـطيلية اربع عشر يوما ومن قسطيلية الى القيروان سبعة ايام على ماتقـدم وبين وارجلان وقلعة ابي طويل مسيرة ثلاثة عشر يوما ومن تادمكة الى غدامس أربعون مرحلة في الصحراء والماء فيها على مسيرة اليومين والثلاثة أحساء، وغدامس مدينة لطيفة كثيرة النخل والمياه وأهلها بربر مسلمون وبغدامس دواميس كانت سجنا للكاهنة التي كانت بافريقيا واكثر طعام أهل غدامس التمر والكماة تعظم عندهم حتى تتخذ فيها الارانب حجرة وبين غدامس وجبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء وبين نفوسة ومدينة طرابلس ثلاثة ايام على ما تقدم.

وطريق آخر من تادمكة الى غدامس، تسير من تادمكة ستة ايام في عمارة سغمارة ثم في مجابة الثانية معدن لحجارة تسمى تاسى النسمت وهي حجارة تشبه العقيق وربما كان في الحجر الواحد ألوان من الحمرة والصفرة والبياض وربما وجد فيها من النادر الحجر الجليل الكبير فاذا وصل به الى جهل غانة غالوا فيه وبذلوا فيه الرغائب وهو اجل عندهم من كل علق يقتنى وهو حجر يجلى ويثقب بحجر آخر يسمى تنتواس كما يحلى الياقوت ويثقب بالسنباذج لا يعمل فيه الحديد شيئا الا بالتنتواس ولا يوصل اليه ولا يعلم موضعه حتى ينحر الابل على معدنه وينضخ دمه فحينئذ يظهر ويلقط وفي بونو معدن النحاس للتاس اسمت ايضا ومعدن هذه المجابة افضل، وتسير من هذه المجابة الى مجابة ثالثة وفي هذه المجابة معدن الشب ومنها يحمل الى البلاد وتسير من هذه المجابة الى مجابة رابعة احد عشر يوما في رمال جرد لا ماء فيها ولا نبت يتزود الرفاق الماء والحطب فيها كما تتزود الطعام والعلف وعلى يسار السائر في هذه المجابة جبل الرمل الاحمر الذي يتصل بسجلماسة وهو الذي يكون فيه الفتك والثعلب الدهي وهو آخر حد افريقية واذا سار السائر من بلاد كوكوا على شاطىء البحر غربا انتهى الى مملكة يقال لها الدمدم يأكلون من وقع اليهم ولهم ملك كبير وملوك تحت يده وفي بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم في

---

(1) قسنطينة

صورة امراة يتألهون له ويحجونه وبين تادمكة ومدينة كوكوا تسع مراحل والعرب تسمى أهلهـا البـزركانيين وهي مدينتان مدينة الملك ومدينة المسلمين وملكهم يمسى قندا وزيهم كزي السودان من الملاحف وثياب الجلود وغير ذلك بقدر جدة الانسان منهم وهم يعبدون الدكاكير كما تفعل السودان ويضرب بجلوس الملك الطبل وترقص النساء السودانيات بالشعور الجثلة المسترسلة ولا يتصرف أحد منهم في مدينتـه حتى يفـرغ من طعـامـه ويقذف باقيه في النيل فيجلبون عند ذلك ويصيحون فيعلم الناس أنه قد فرغ من طعامه واذا ولي منهم ملك دفع اليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون ان امير المؤمنين بعث بذلك اليهم وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين ويزعمون أنّهم إنما سموا كوكوا لان الذي يفهم من نغمة طبلهم ذاك وكذلك ازوروهير وزويلة يفهم من نغمة طبلهم زويلة زويلة وتجارة أهل بلد كوكوا بالملح وهو نقدهم والملح يحمل من بلاد البربر يقال لها توتك من معدن تحت الارض الى تادمكة ومن تادمكة الى كوكوا ، وبين توتك وتادمكة ست مراحل .

◈

ملحق رقم: 3

مما ورد نصه عن غرب افريقيا
في كتاب رحلة ابن بطوطة
طبعة 1960 م (دار بيروت للطباعة والنشر)

1 ـ **النص الاول** ص 674 تصارف اهل السودان بالملح.

وبالملح تتصارف أهل السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به، وفزية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطر المقنطرة من التبر، واقمنا فيها عشرة ايام في جهد لان ماءها زعاق وهي اكثر المواقع ذبابا، ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها.

2 ـ **النص الثاني** ص 685 تذلل أهل السودان لملكهم:

والسودان اعظم الناس (تذللا) تواضعا واشهدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون منسى سليمان كي فاذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها، نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة، ودخل رافعا ثيابه وسراويله الى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بمرفقه ضربا شديدا ووقف كالراكع يسمع كلامه.

واذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل، وكنت أعجب منهم كيف لاتعمى اعينهم ؟

3 ـ النص الثالث ص 690 الحسنة بعشر امثالها:

ان رجلا من اهل تلمسان يعرف بابن الشيخ اللبن كان قد احسن الى السلطان منسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث. وهو يومئذ صبي غير معتبر ثم اتفق أن جاء اليه في خصومة وهو سلطان فعرفه وأدناه منه حتى جلس معه على المنبر ثم قرره على فعله معه وقال للامراء ما جزاء من فعل ما فعله من الخير فقالوا له الحسنة بعشر امثالها فاعطاه سبعين مثقالا فاعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكوة وعبيدا وخدما وأمره ان لا ينقطع عنه.

4 ـ النص الرابع ص 690

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها فمن افعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، ومنها شمول الامن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطر المقنطرة انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذ مستحقه، ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها، واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد اين يصلي لكثرة الزحام.

ومن عاداتهم ان يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيربطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد، وسجادتهم من سعف النخل ولا تمر فيها، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لاحدهم الا قميص خرق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لاولادهم القيود اذا ظهر التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه.

ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له: ألا تسرحهم؟

فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجليه قيد ثقيل فقلت لمن كان معي: انما قيد حتى يحفظ القرآن.

ومن مساوىء افعالهم كون الحرم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات، ولقد كنت ارى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة. . . ومنها جعلهم التراب على فوق رؤوسهم تأدبا ومنها ما ذكرته من الاضحوكة في انشاد الشعراء، ومنها ان كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير:

5 ـ **النص الخامس** ص 694 السفر الى تمبكتو:

ثم سافرنا منها الى تمبكتو وبينها وبين النيل اربعة اميال واكثر سكانها مسوفة أهل اللثام وحاكمها يسمى فربا مسوس حضرت عنده يوما وقد قدم أحر مسوفة أميرا على جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا، كلها مصبوغة، واجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم، وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي اسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن ومنها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من اهل الاسكندرية.



ملحق رقم: 4

اليفرني (مؤرخ الدّولة السّعدية) وغزو المنصور السّعدي لمملكة سنغاي الاسلامية (1591 للميلاد)

1 ـ المنصــور يقنــع أعضــاء المجلس الملكي بالفوائد المادية للغزو.

2 ـ اسلحة غير متكافئة بين الجيشين.

1 ـ رأي أصحاب المنصور في عزمه على غزو امير كاغو، وأسباب ذلك لدى المنصور (صفحات 76 ـ 77)

. . . شاور المنصور أصحابه وجميع أعيان دولته وانتقى أهل الرأي والمشورة، فاجتمعوا. . فقال لهم المنصور: اني عزمت على منازلة أمير كاغو وصاحب السودان وبعث الجيوش اليهم. . . لان بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال. . . مع ان صاحب امرهم والمتولي عليهم اليوم ملكهم معزول عن الامارة شرعا اذ ليس بقرشي ولا اجتمعت فيه شرائط السلطنة العظمى، فلما نثر المنصور ما في كنانته. . . سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء، فقال: اسكنتم انصاتا للرأي، ام ظهر لكم خلاف ما ظهر لي؟ فأجابوا كلهم بلسان واحد ورأي متّفق: ان ذ ك رأي عن الصواب بعيد وإنه بمنأى عن الآراء السديدة ولا يخطر ببال

السوقة فكيف بالملوك؟ فقال: وما بيان ذلك؟ فقالوا: ان بيننا وبين السودان مهامه فيج يقصر عنها الخطا وتحار فيها القطا وليس بها ماء ولا كلأ، فلا يتأتى السفر فيها لاعتياق طرقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعرا، وأيضا فان دولة المرابطين على ضخامتها ودولة الموحدين على عظمتها ودولة المرينيين على قوتها، لم تطمح همة أحد منهم لشيء من ذلك، ولا تعرضوا لما هناك... وحسبنا ان نقتفي أثر تلك الدول، فان المتأخر لايكون اعقل من الاول.

فلما فضّ أولئك الاقوام كلامهم وأبدوا اليه رأيهم وأفهامهم، قال لهم المنصور: ان كان هذا غاية ما استضعفتم به أمري وقا بلتم به رأيي فليس فيه حجة ولا يخدش فيما عندي. اما قولكم: بيننا وبينها صحاري مخوفة ومفاوز مهلكة من جدبها وعطشها، فنحن نرى التجار على حالة ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق في كل وقت ويخوضون في أحشائها مشاة وركبانا ومثنى وفرادى، وقط لم تنقطع ركاب التجار عنها. وانا اقوى اهبة منهم، وللجيش همة وهيبة ليست للقوافل. واما قولكم: ان من قبلنا من الدول الطنّانة لم تطمح ابصارهم لذلك فاعلموا أنّ المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الاندلس ومقاتلة الافرنج ومن بذلك الساحل من امم اروام، والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الوادي بتلمسان، ونحن اليوم قد انسدت عنا ابواب الاندلس باستيلاء العدو الكافر عليها جملة، وانفضت عنا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها، ثم ان اهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم ادراكه لان جيوشهم فرسان رامحة ورماتهم ناشبة، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة بالصواعق.

وأهل السودان لم يكن عندهم الآن الا الرماح والسّيوف وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة، فمقاتلتهم سهلة وحربهم اسهل من كلّ شيء، وأيضا فان بلاد السودان انفع من افريقيا فالاشغال بها أولى من منازلة الاتراك، لأنه تعب كبير في نفع قليل...

فلما فرغ المنصور من خطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا إثارته واستجادوا رأيه، وقالوا له: طبقت المفصل وألهمت الصواب. (كذا).

2)ـ الاسلحة غير المتكافئة (ص 79) :

فلما التقت الفئتان نكص اسحاق على عقبه وانتشرت جموعه وفلّ غربه والتحمت الحرب من لدن الضّحى الى قرب العصر، فطحنتهم رحى الحرب وصيّرتهم كاعجاز نخل خاوية، ونجا اسحاق بنفسه في قليل من حاشيته.

وكان جيش اسحاق انما سلاحهم الحرشان الصّغار والرّماح والسّيوف، ولم تكن عندهم هذه المدافع، فلم تفد حرشانهم ورماحهم مع البارود شيئا... وحكمت في رقابهم سيوف جؤذر وجيوشه حتى كان السودان ينادون : نحن اخوانكم في الدين، والسّيوف عاملة فيهم، وكان ذلك كله في السادس عشر من جمادي الأول عام تسعة وتسعين وتسعمائة.

◈

ملحق رقم: 5

نفي آل أقيت الى مرّاكش ومآثر أحمد بابا بها

. . . وفي مقامه هناك (1) قبض على الامام العلامة الهمام علم الاعلام أبي العباس سيدي أحمد بابا وعلى أهل بيته فحملوا مصفّدين في الحديد لمرّاكش ومعهم حريمهم، ونهبت امـوالهم وذخائرهم وكتبهم، قال في بذل المناصحة سمعته يقول انا اقل عشيرتي كتبا نهبت لي ستة عشر مائةمجلد.

وكان القبض عليهم أواخر المحرم عام اثنين وألف، ووصلوا لمراكش في رمضان من العام بعده، واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف (2) الى وقت انصراف المحنة عنهم فسرحوا يوم الاحد الحادي والعشرين من رمضان عام اربعة وألف، ففرحت بذلك قلوب المؤمنين، ولّما ادخل ابو العباس بعد التسريح من السجن على المنصور وجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم شملة مسدولة، فقال له : ان الله تبارك وتعالى يقول : (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب) وانت قد تشبهت برب الارباب، فان كانت لك حاجة في الكلام فانزل الينا وارفع عنّا الحجاب، فنزل المنصور ورفع الاستار، فقال له ابو العباس : اي حاجة لك في نهب متاعي وضياع كتبي وتصفيدي من تنبكت الى هنا حتى سقطت من فوق ظهر الجمل واندقّ ساقي ؟ فقال له المنصور : « أردنا كي تجتمع الكلمة وانتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم» قال له ابـو العباس: « هلا جمعت الكلمة بترك تلمسان وما يليها من البلدان فانهم اقرب اليك منا» فقال له المنصور: « قال النبي(ص) : اتركوا الترك ما تركوكم»، فامتثلنا الحديث فقال ابو العباس : ذلك زمان وبعده قال ابن عباس : لا تتركوا

---

(1) الباشا محمود خليفة جدار على جيش المنصور السعدي في تمبكتو،

(2) الاسر والسجن.

الترك ولو تركوكم، فسكت المنصور ولم يجد جوابا وانفضّ المجلس ولما سرح ابو العباس تصدى لنشر العلم وهرع الناس للاخذ عنه، ولم يزل بمراكش الى ان مات المنصور لأنه ما سرحهم من السجن حتى شرط عليهم سكنى مراكش، ولما مات المنصور اذن له ولده زيدان في الرجوع الى بلاده، فرجع اليها وكان يتشوق لرؤيتها ويسكب العبرات عند ذكرها ولم ييأس من روح الله في العودة اليها. (3)



(3) اليفرني، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، فاس (دون تاريخ) ص 81 ـ 82

قائمة مختارة بالمراجع الهامة فقط

أ)- المصادر العربية

1)- البكري، ابو عبد الله - المسالك والممالك (تحقيق دي سلان) بغداد 1857
2)- ابن حوقل، صورة الارض
3)- ابن خلدون - التاريخ (مجلد 6 و 7) بيروت 1959
4)- ابن بطوطة، الرّحلة، بيروت 1960
5)- الادريسي، الجغرافيا
6)- عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الجزائر 1972
7)- المغيلي، عبد الكريم، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق وتقديم عبد القادر زبادية الجزائر 1974
8)- أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج، فاس 1891
9)- أحمد بابا التمبكتي، معراج الصعود، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5295
10)- السّعدي عبد الرحمان، تاريخ السودان، تحقيق هوداس باريس 1964
11)- كعت، محمود، تاريخ الفتاش، باريس 1965
12)- اليفرني، نزهة الحادي . . . باريس 1889
13)- السلاوى، الاستقصاء، الدار البيضاء 1955، ج 5
14)- القلقشندي، صبح الاعشى، ج 3 القاهرة 1962
15)- عبد الرحمان زكي (الاسلام في السودان الغربي)، المجلة يناير 1961
16)- الاصطخري، المسالك والممالك، القاهرة 1961
17)- تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، تحقيق كولان، ج . ، الرّباط 1934

18)ـ ابن مريم، البستان، الجزائر 1908
19)ـ المقريزي، الخبر عن أجناس السودان، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1744.
20)ـ ابراهيم حسن، انتشار الاسلام في القارة الافريقية، القاهرة 1964، ط 2
21)ـ السيوطي، بدائع الزهور ووقائع الدهور، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1552
22)ـ الألوري، آدم موجز تاريخ نيجيريا، بيروت 1965

◈

2 ـ المصادر الاجنبية



– R. Mauny-Tableau géographique de l'Ouest Africain. DAKAR 1961
– E.W.Bovill. The golden trade of the Moors. 2d edition. Oxoford U.P.. 1970
– J.S. Trimingham. A History of Islam in West Africa. London 1962
– M. Delafosse. Haut Sénégal-Niger. Paris 1912 (3 Vols)
– Y. Urvoy - Histoire de l'Empire de Bornou. DAKAR 1949
– C. de la Roncière. La découverte de l'Afrique au Moyen-âges. Cairo 1924 - 7 (3 Vols)
– J.W. Blake. European Beginnings in West Africa 1454 - 1578. London 1937
– A.A. Boahen. Britain. the Sahara and the western Sudan. 1788 - 1861. Oxford 1964.
– M. Lewis (ed). Islam in Tropical Africa. London 1966
– C.W. Newbury. "North African and Western Sudan trade in the nineteenth century: a revaluation", journal of African History. VII. 1. 1966
– Marilyn R. Waldman."The Fulani jihad : a reassessment". Journal of African History VII. 3 (1965).
– DARYLL Florde and P.M. KABERRY. (éd). West African Kingdoms in the nineteenth century Oxford U.P., 1967.
– Cheikh Anta Diop, L'Afrique Noire PréColoniale, Paris 1960
– Barth, Travels and discoveries in Northern and Central Africa, London 1855 (5 vol)
– Gouverneur H. Deshamps; Les religions africaines, P.U.F.! 1950
– J. Léon l'Africain, Description de l'Afrique, Trad. Temporal, Paris 1896 - 8 (3 vols)
– J. Fage - Introduction to the history of West Africa, London 1967
– Umar Al-NAQAR, The pilgrimage traditions in West Africa, Khartoum, 1972
– J. Abun-Nasr, the tijaniyye .., Oxford 1965
– R. Caillie. Voyage à Tombouctou
– F. Dubois, Tombouctou la Mystérieuse Paris 1896
– GADEN, H, Mohammad bou Aliou Tyam, La vie d'Al Haj Omar, qacide en poular, Paris 1935
– HODAS, O, Tedzkiret En-Nisien fi Akhbar Molouk Es-Soudan, Paris 1899
– Smith, H.F.C., "Anegleded theme of West African History; the islamic Revolution of the nineteenth century", journal of the historical, Society of Nigeria, II, 1, 1961
– H. Deshamps-L'Afrique précoloniale, Paris 1962
– Westermann, Les peuples et civilisations de l'Afrique, Paris 1948
– E. Blyden, christianity, Islam and the Negro race; London 1888
Hardy, georges, une conquête Morale, L'enseignement en A.O.F., Paris 1917
– MATIP, B, Heurts et malheurs des rapports Europe et Afrique XVe au XVIIIe, Paris 1960.

القسم الثاني

محمّد بن عبد الكريم المغيلي

أسئلة الأسقيا
وأجوبة المغيلي
(القرن السّادس عشر الميلادي)

مقدمة

1 ـ هذا المخطوط

ذكر كل من أحمد بابا (1) وابن مريم المديوني (2) أن من بين مؤلفات المغيـلي تأليفا، كان قد كتبه للأسقيا محمد الاول، (3) وقد سعيت جهدي في البحث عن مؤلف المغيـلي هذا ثم عثـرت صدفـة على مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر وسط رزمة من كتب الفقه مكتوب عليه (أسئلة الأسقيا وإجابة المغيلي عليهـا)، ولّمـا قرأتـه، وجـدت فيـه الكثـير من العنـاصر المفيدة عن الاحوال الاجتـماعيـة والاقتصـادية ببلاد سنغاي على أيام الاسيقيين، وقد عجبت لان المؤلفـين المحـدثـين الـذين اشتهروا بمؤلفاتهم عن السوادن الغربي مثل موني ودولافوس ودي كاسترى وريشي وغيرهم، لم تكن تلك الاسئلة على ما يظهر، ممّا وقع تحت أنظارهم، وكانهم لم يهتموا بها، أو لم يصادفهم وجودها.

(1)نيل الابتهاج طبعة فاس 1889. ص 325.

(2) طبعة الجزائر (تحقيق ابن ابي شنب)، 1908ص 181.

(3) عباراتها في هذا الموضوع: (.. ثم ارتحل الى بلاد التكرور فوصل الى بلاد كاغو واجتمع بسلطانها محمد وجرى على طريقته من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والف له تاليفا أجابه فيه عن مسائل..)

ثم كان قد وفد على الجزائر سنة 1959 أحد الباحثين في نيجيريا، وقد كان عائدا لتوه من أوروبا حيث كان يبحث عن مصادر التاريخ السوداني بمكتباتها، ولّما اتصلت به أخبرني بأن هناك نسخة من هذه الاسئلة في المكتبة الوطنية بباريس، فطلبت نسخة مصورة عنها، فلم أوفق، ثم ذهبت لباريس، فقارنتها بمخطوط الجزائر، ونسخة باريس هي الاخرى موضوعة وسط مجموعة من الوثائق المختلفة وقد رقمت صفحاتها وسط تلك الوثائق، بشكل قد يخيّل لمن لا يتصفح ورقات تلك المجموعة صفحة صفحة، أن أسئلة الاسقيا جزء لا ينفصل في موضوعه عن الصفحات السّابقة واللاحقة لها في تلك المجموعة.

2 ـ تاريخ الأسئلة

وصل المغيلي إلى كاغو واتصل بالحاج محمد الاول سنة 1502 وكانت له قبل ذلك علاقات طيبة معه (4) غير أن صاحب البستان يثبت أن المغيلي انما كتب مؤلفه للأسقيا بعد وصوله إلى كاغو(5) وبما أن المغيلي، لم يمكث بكاغو أكثر من سنة، حيث قتل اليهود ابنه عبد الجبّار في توات، فعاد إليها، فاننا نرجح أن تاريخ التأليف كان في سنة 1502/1503.

3 ـ النسختان المحقق عنهما

حققت هذه الاسئلة وأجوبتها عن نسخة الجزائر ورقمها حاليا (6) ح 37 (ج)، وقد قورنت بنسخة المكتبة الوطنية بباريس، ورقمها 5259 ورقات (47 ـ 65) (7).

---

(4) هوداس وبونوا: تحقيق تاريخ الفتّاش لكعت ط. باريس 1964 ص 301.

(5) ابن مريم البستان، ص 182.

(6) نقول حاليا، لان الترقيم الحالي للمخطوطات مؤقت كما علمت من السيد مدير المكتبة.

(7) تناهي الينا أخيرا وجود نسخ من هذا المخطوط في اسبانيا والمغرب الاقصى، ولا نشك في وجود نسخ أخرى في عدد من مكتبات وجهات السودان الغربي. ولا نعتقد بوجود اختلاف بين تلك النسخ ونسختي الجزائر وباريس، لقرب عهد التاليف نسبيا، مما جعل الدقة والوضوح متوفرتين فيهما.

ونسخة الجزائر أوراقها 10 ومسطرتها 26 والخط مغربي سوداني أمّا نسخة باريس فان اوراقها 18 وخطها مغربي سوداني كذلك أمّا مسطرتها فـ 5 , 28 .

وفي حين كتبت نسخة باريس بخط موسّع، فان نسخة الجزائر كتبت بخط دقيق، ولا يوجد تاريخ للنسخ في كلتا النسختين، واختصّت نسخة الجزائر بان كاتبها قد ذكر اسمه، ثم ذكر انه نسخها لعمه الفقيه باب بن الفع، وهذه العائلة هي التي ينتسب اليها القاضي محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش وقد كانت في القرنين السادس عشر والسابع عشر قد خلفت عائلة أغيغ بتمبكتو في مناصب الامامة والقضاء، مما يثبت انها كتبت في تاريخ قريب من زمن تأليف تاريخ الفتّاش، ونرجح ان يكون تاريخ نسخها خلال القرن السابع عشر.

أمّا نسخة باريس فبالنظر الى حبرها وورقها، فإنه يغلب على الظن انها كتبت في وقت متأخر، ربما يكون بداية القرن التاسع عشر.

ومهما يكن فان النسختين تامّتان وخطّهما واضح، ولا يوجد بينهما خلاف سوى بعض الشكليات الطفيفة للكتابة.

4 ـ المغيلي صاحب الاجوبة

محمد بن عبد الكريم المغيلي، ينتسب إلى قبيلة مغيلة التي تقطن نواحي تلمسان، ولا نعلم تاريخ ولادته بالضبط، غير ان وفاته كانت في سنة 909 للهجرة، وقد كان من المثقفين وأولي الفكر في عصره، وقد انتقل بعد اتمام دراسته بالشمال، إلى الصحراء فسكن توات وبها توفي. ولا يعرف سبب انتقاله الى الصحراء، غير ان حملته على اليهود القاطنين بها في زمانه ورسائله العديدة في موضوعهم تحمل على الظن بأنه وجد ضيقا في العيش بالشمال، حيث يسيطر اليهود في أهم المدن على مصادر التجارة والمال، وتوغلوا في شراء ذمم بعض المسؤولين فأصبحوا صنائع لهم، ولمّا انتقل الى الجنوب الجزائري وجد اليهود يشاركون بنشاط في حركة القوافل التجارية مع السودان ويتصرفون تصرفات أكثر حريّة مما في الشمال فدعا لمحاربتهم واجتمع حوله انصار، فطاردوا اليهود وهدّموا

عددا من بيعهم بتوات ونواحيها. ثم انتقل المغيلي بعد ذلك الى كانوا حيث اتصل بأميرها وكتب له رسالة ارشده فيها الى التزام الجادّة الاسلامية في حكمه، (8) وبعد ان درّس بمساجد كانوا مدّة انتقل إلى (غاو) حيث اتصل بالسلطان أسقيا محمد الكبير، فأكرمه هذا الاخير، وكتب له أسئلة ترجاه الاجابة عنها وفق الوجهة الشرعية في الاسلام.

ويظهر من مقارنة الاجابتين اللتين كتبهما المغيلي لكل من أمير (كانوا) وامير (غاو) أن مملكة الاساقي كانت اكثر انتظاما من مملكة كانوا، كما ان السكان في سنغاي كانوا أكثر فهما للاسلام من سكان مملكة كانوا في ذلك الوقت.

وحين وفاة المغيلي كان قد ترك أكثر من أربعة عشر مؤلفا معظمها في الفقه وبعضها في اللغة، وهذا باستثناء الرّسائل التي كتبها في مواضيع الدّعوة إلى الاصلاح، (9) ومن هذا القبيل يمكن أن نعتبر اجوبته هذه عن أسئلة الاسقيا محمد.

ولقد كان المغيلي من مثقفي عصره النشيطين، وله شخصية قويّة استطاع بواسطتها التأثير على الناس في السودان، فاصبح اسمه مقرونا لديهم بكلمة الامام، أما بالنسبة للوضع في المغرب العربي فقد كان المغيلي من أولئك القلائل الذين شهروا صراحة بانحراف المسؤولين في المغرب وتوانيهم عن القيام بواجباتهم، فنبّه مسبّقا إلى الخطر الذي ربّما ستؤول اليه اوضاع بلدان المغرب، في حالة استمرار الحكام فيها على سيرتهم، وفعلا فقد هاجم الاسبان والبرتغاليون بلدان المغرب بعد ذلك بقليل، كما هو معروف.

5 ـ الأسقيا محمد، صاحب الأسئلة، ومملكة سنغاي

الأسقيا محمد الأول سراكولي الأصل، وكان أجداده، قد هجروا من

(8) انظر كتاب الالوري ـ تاريخ نيجيريا ـ دار الحياة ـ بيروت 1963 ص 125.
(9) ينظر بونار رابح ـ مصباح الارواح في أصول الفلاح ـ الجزائر 1968 ـ ص 22.

الجنوب الموريطاني الحالي، حينما اضطربت الأمور في مملكة غانا عند نهاية القرن الحادي عشر، وقد سكنت عائلته حول النيجر الاوسط وامتزجت في قبيلة سنغاي، وقد بدأ عهد التوسع لتلك الامارة منذ حوالي سنة 1336 للميلاد، وأصبح الأسقيا محمد أحد الضباط البارزين في جيش الامير سني علي الذي انما بدأ عهد التوسع الكبير تحت قيادته (10) منذ سنة 1465.

وفي سنة 1493 قام الأسقيا محمد بثورة ضدّ سني علي واستولى على عرش سنغاي، فبدأ منذ ذلك الوقت عهد الأسيقين في سنغاي الذي استمرّ حتى سنة 1591.

وقد جاء الأسقيا محمد الأول إلى الحكم بثورة، فكان عليه أن يقوم بأعمال هامّة في جميع الميادين، لكي يوطد وجوده على عرش المملكة، ولذا نراه يسلك سياسة المحاباة تجاه الفقهاء ورجال الدين في البلاد، أمّا أصله السوداني، فقد كان من العوامل التي ساعدته في قبول الناس لحكمه (11) ذلك ان عائلة (ضياء) التي أنهى الأسقيا محمّد حكمها لتلك البلاد بثورته، كانت امازيغية، تعود في أصولها إلى منطقة طرابلس الغرب، ومنها انتقلت إلى فزان، قبل رحيلها إلى السودان (12) وقد قام محمد الأول بإصلاحات إدارية واسعة قبل ذهابه الى الحج سنة 1496 وكان هدفه من تلك الإصلاحات هو الخروج بالمملكة من الشكل القبلي، إلى المرحلة الوطنية التي تبيح لجميع القبائل المنضوية تحت لوائها، المشاركة في الشؤون العامة بالبلاد(13)

---

(10) امارة سنغاي ربما يعود تاريخ قيامها الاول الى سنوات الميلاد الاولى. ومهما يكن فانه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كانت سنغاي لا تزال امارة صغيرة تابعة لمملكة مالي، التي ربما بسطت عليها نفوذها في القرن الثاني عشر. وفي القرن الرابع عشر بدأت عوامل الضعف، تحيط بمملكة مالي، فكانت امارة سنغاي من اولى الامارات التي انفصلت عنها، في ايام الامير سني علي بارو (1465 ـ 1492). وقد بدأ حكم آل سني لسنغاي في سنة 1336 وهي فرع من عائلة (ضياء) التي حكمت سنغاي منذ وقت مبكر قبل ذلك.

(11) الثورة التي قام بها محمد الاول، كانت ضد آل سني، وهم فرع من عائلة ضياء التي حكمت البلاد منذ وقت مبكر، وآل سني هم فرع من آل ضياء، وقد بدأ حكمهم لسنغاي في سنة 1336م.

(13) حتى ذلك التاريخ، كانت سنغاي تباشر على القبائل الخاضعة لنفوذها، التسلط المطلق، ويظهر ان ذلك يشكل استمرار للعرف الذي جرت عليه وقائع الامور لدى جميع الممالك السابقة لسنغاي في السودان الغربي. وقد اضطر محمد الاول الى خوض عدة معارك ضد رؤساء سنغاي، الذين انكروا عليه مسلكه في هذه الناحية. (ينظر محمود كعت، تاريخ الفتاش ص 36)

ثم أدخل محمد الأول عدّة إصلاحات، فجعل الخدمة العسكرية تنفصل عن العمل المدني، وأصبح الجيش يتوفر على نظام مستقر وبذلك لم تعد طريقة الاستنفار سارية المفعول، كما كان الشأن في العهد القبلي السابق.

وبعد هذا، رحل الى الحج في موكب حافل، وفي مكة قلده شريفها في حفل كبير اشارات السلطنة على السودان كله، وكان الهدف الذي يسعى إليه محمد الأول من ذلك، هو اكتساب المكانة السياسية على أساس شرعي في أعين رعاياه، وقد أنفق في تلك الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية (14) أمّا بعد رجوعه من الحج، فإنه انهمك في الفتوحات، فوسع نفوذ مملكته على معظم اقاليم السّودان الغربي وبذلك بلغت سنغاي من التوسّع في عهده، ما لم تبلغه مملكة قبلها في تاريخ السودان على الاطلاق. وفي آخر أيامه نزع عن العرش بتآمر شارك فيه بعض ضبّاط الجيش من أصدقاء أكبر أبنائه المدعو (موسى)، وأجلسوا هذا الاخير على كرسي السلطنة في سنة 1428 م.

وقد عرف عن محمد الأول أثناء حكمه لسنغاي حرصه على العدالة في مملكته، وحدبه الدائب على تقويتها، بكل ما أوتي من حسن تدبير وسعة أفق. ولذلك، فانه بالرغم من أن أبناءه بعده لم يكونوا في المستوى الذي تتطلبه ادارة مملكة كبيرة كسنغاي، إلا أن تلك المملكة ظلت تحكم معظم جهات السودان الغربي حتى سنة 1591 ويرجع المؤرخون بقاء تلك المملكة على حكم معظم السودان الغربي بعد محمد الأول، إلى التنظيمات الإدارية والإجتماعية التي قام بها في سني حكمه.

وقد ارتبطت مملكة سنغاي منذ أيام محمد الأول بعلاقات تجارية وثقافية واسعة مع بلدان المغرب العربي ومصر، وفي سنة 1591 قضى جيش المنصور الذهبي على حكم آل أسقيا، بانتصاره على جيش إسحاق الثاني آخر السلاطين

(14) انفق كانكان موسى، امير مالي، قبله ثلاثين الف فقط، ومع ذلك ذكر العمري ان قيمة الذهب قد انخفضت في الامكنة التي زارها، وخاصة القاهرة بمقدار 6٪، وذلك لكثرة نفقات الملك المالي من الذهب. اما أسقيا الكبير، فانه اشترى في مكة ارضا ودارا ليأوي اليها الحجيج السودانيون، وقد ظلت تعرف بـ (رواق التكرور)، ولكثرة نفقاته، قوبل باحترام كبير، وقلده شرفاء مكة بكل ما يستطيعون، وخلعوا عليه لقب (امير السودان الغربي كله).

الأسيقيين، وذلك في معركة (تونديني) إلى الشمال الغربي من (غاو) العاصمة (15)

وقد بقيت مملكة سنغاي تحت الحكم المغربي بين 1591 ـ 1780 وقد اصبحت عاصمة الحكم المغربي هي تمبكتو من أول يوم.

وفي الفترة بين 1591 ـ 1612 كان الباشوات يعيّنون من طرف السلاطين مباشرة.

وقد قضى الباشوات الأوائل أيامهم في القضاء على الثورات التي كانت لا تكاد تنقطع ضد الحكم المغربي في مختلف جهات المملكة.

أما المتأخرون منهم فقد أصبحوا يلاقون المؤامرات بشكل مستمر تقريبا من طوائف الجند الذين كانت قيادتهم بتلك البلاد تعود شكليا اليهم بالنظر.

وهذا ما جعل الفترة المغربية بسنغاي فترة فوضى كلها تقريبا فلم يستفد منها البلاط المغربي لقلة الواردات التي كان يبعث بها الباشوات إليه، (16) ولم يستفد منها سنغاي لقلة الأمن وعدم انتظام ورود القوافل التجارية على البلاد (17).

ويظهر أن هذا كان من أهم الاسباب التي جعلت السلاطين المغاربة لا يهتّمون بأمور السودان بعد انتهاء فتحه بمدّة قصيرة، وخاصة منذ أيام مولاي زيدان (1607 ـ 1627)، حيث توقف نهائيا تعيين الحكام على السودان من طرف السلاطين المغاربة.

---

(15) لزيادة التفاصيل عن تطور سنغاي بين 1493 ـ 1591 ينظر كتابنا (مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين) من نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1971.

(16) يذكر على سبيل المثال هنا انه حينما نهب الباشا محمود بن زرقون، الذي خلف جودار مباشرة على حكم تلك البلاد، كل خرائن تنبكت وبيوتها كعقاب لها على الثورة التي قامت فيها ضد حكم المغاربة لم يبعث لمولاي أحمد المنصور سوى بمائة ألف قطعة ذهب، مما جعل هذا الاخير يحنق عليه اشد الحنق.

(17) احتوى كتاب عبد الرحمان السعدي (تاريخ السودان) تفصيلا كثيرا عن هذه الفترة في بلاد السودان.

وهكذا اصبح الباشوات بين 1612 ـ 1660 يعيّنون من طرف طوائف الجند في السودان.

وقد امتازت هذه الفترة بتضخم مظاهر الفوضى وكثرة المؤامرات عن ذي قبل، حتى أن حكم أطول الباشوات عهدا بتلك البلاد لم يستمر أكثر من ثماني سنوات، أما الباقون فأكثرهم قد تراوحت مدّة حكمهم بين شهرين الى سنتين فقط. (18). وكانت وضعية البلاد في هذه الفترة تسير من سيىء الى أسوء.

أما في الفترة التالية 1660 ـ 1780 فقد ضعف خلالها حكم الباشوات في السودان وأصبحت سلطتهم لا تكاد تتجاوز حدود تمبكتو وضواحيها القريبة.

ويلاحظ أنه في هذه الفترة ذهب الخوف على ما بقي من مملكة الاساقي التي كانوا قد حافظوا عليها مع أنصارهم في أقصى جنوب بلاد سنغاي، في منطقة صغيرة منعزلة كانوا قد التجأوا إليها واعتصموا بها منذ انتصار الحملة المغربية على جيش سنغاي (19).

وفي هذا الوقت كان حكم الأسرة السعدية قد انتهى في المغرب الأقصى، وخلفتها الأسرة الفيلالية (العلوية) على البلاد، (20) فحاول ملوكها الأوائل إرجاع الحكم المغربي إلى السودان، ولكن محاولاتهم في هذا الشأن لم تأت بنتيجة، ربما لأنهم لم يكونوا جادين في ذلك، ولأنهم انشغلوا بأمور كانت تبدو لهم أكثر أهمية من السودان وخاصة الاوضاع داخل المغرب وعلاقات مملكتهم بالخارج.

أمّا ما بقي من مملكة سنغاي تحت حكم المغاربة، فانه ما لبث أن دخل فعلا تحت نفوذ دولة (بامانا) في سيغو منذ عام 1670.

---

(18) ذكر صاحب تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ص 118، أن الباشوات الذين كانوا قد توالوا على الحكم في البلاد ما بين 1591 و 1750 كان عددهم 155.
وقد توالى منهم على الحكم بين 1591، 1660 سبعة وعشرون. وبين 1660و 1750 مائة وثمانية وعشرون.
ومن هنا يظهر انه في حقبة 90 سنة حكم 128، فيكون معدل حكم كل منهم اجماليا أقل من سنة واحدة.

(19) الى الجنوب من كوكيا، وهي الموطن الاول لقبيلة سنغاي قبل توسعها على ضفاف النيجر باتجاه الشمال، فيما بعد.

(20) قامت دولة العلويين بالمغرب الاقصى في حدود سنة 1666م.

وفي هذا الوقت كان الباشوات الأوائل قد انقرضوا، ونشأ من تناسلهم مع السودانيات جيل هجين دعي بـ (أرما)، وهو الاسم الذي كان جودار وحلفاؤه الأوائـل من المـرتـزقة (21) يسمّون به الجيش المغربي الذي كان تحت قيادتهم فالتصق بالباشوات ومن انحدر عنهم ذلك الاسم بالتدريج.

وهكـذا أصبحت امـبراطورية الأساقي في سنغاي، كما أصبحت أخبار الحملة المغربية التي قضت على حكمهم في السودان، مجرّد ذكريات وآثار لحوادث غابرة في بطون كتب التاريخ (22)

6 ـ الأهمية التاريخية لمحتوى هذا المخطوط

تعتـبر أسئلة الأسقيا محمـد التي كان قد وجههـا للمغيلي الوثيقة المباشرة الوحيدة التي انحدرت إلينا من سلاطين سنغاي حتى الآن.

و تتمثـل أهميتهـا في أنّها تلقي بعض الاضـواء على الـوضع الاجتماعي والسياسي بدولة سنغاي أثناء عهد الأسيقيين، وتكمن تلك الأهمية خاصة في ان الأسقيا الكبـير تبـدو عليه الصراحـة في بسط عدد من المـواضيع الاجتماعية والسياسية التي كانت تشغل باله، ليعرفها المغيلي ويحاول الاجابة عليها حسب مفاهيم الإسلام. أما المغيلي فقد بدا عليه في الاجوبة أنه كان على اطلاع بأوضاع السودانيين كما هي، ولذا فقد تضمنت إجاباته أشياء جديدة أحيانا لم يتطرق إليها السلطان في أسئلته. ومن هنا فان كلا من الاسئلة وأجوبتها هام، ولكن الاسئلة أكثـر أهمية بالنسبـة للمؤرخ، لانها انصبّت على تبيان الأحـوال الاجتماعية والسياسية التي تشغل بال السلطان في تلك البلاد وكما هي، في حين أن الأجوبة كان قسم كبير منها ينصرف إلى شرح المعاني الدينية أكثر من الأوضاع الاجتماعية. ولاتقتصر المواضيع التي احتوتها الأسئلة على أحوال البلاد الداخلية فقط، وانما يتعلق قسم منها بعلاقات سنغاي بالإمارات والقبائل المجاورة لها، ونظرة تلك القبـائـل والإمـارات لسنغاي في ذلك الوقت. ثم أن طرح الاسئلة من طرف

(21) كانوا في اغلبهم اسبانا وبرتغاليين، اعتنقوا الاسلام.

(22) في 1893 حينما أحاط الفرنسيون بتمبكتو، أخذ الناس على غرة، فأرسل السكان وفدا الى سلطان المغرب يطلبون النجدة، فلم يستطع السلطان عمل شيء وصرفهم وزيره بلباقة، وانتهى الامر.

السلطان على عالم مثل المغيلي بهذا الشكل يعطينا أيضا صورة عن نظرة الأسقيا الكبير للعلماء في وقته، (23) ومنحاه السياسي بشكل عام، كما يبين لنا وجها لجانب من تقاليد البلاد أثناء عهد الأسيقيين بسنغاي. وغني عن الذكر أن هذا المخطوط ينشر لاول مرة، وهو يجسّم صورة لجانب التبادل الفكري والثقافي الوسيعين بين المغاربة وجيرانهم السودانيين، وقد بدأ ذلك مع وصول الإسلام الى غرب افريقيا (24) وظل يزداد اتساعا وتعمقا بتلك المنطقة، حتى أصبح السّودان الغربي، جزءا هاما من البلاد الاسلامية الفسيحة، ولا شك أنه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، بلغ ازدهار الثقافة الاسلامية بالسّودان الغربي مرحلة الاوج، وفي هذه الفترة نفسها نجد محتوى هذا المخطوط الذي تبودل بين المغيلي كعالم وفقيه، ذائع الصيت ومطلع على أحوال السودان الغربي في ذلك الوقت، وبين الأسقيا محمد الأول كرئيس لدولة اسلامية كبيرة، يهتم كل الاهتمام بإصلاح حال رعيته، وتقويم السّلوك فيها لما يتلاءم والعقيدة التي اختارتها تلك البلاد، ويؤمن هو شخصيا بفائدتها وجدواها، لمّا يلقي الأضواء أمام الباحثين على الأوضاع الاجتماعية التي لا تكاد تتطرق مصادر تلك الفترة إليها، إلا اقتضابا وصدفة مما دعانا إلى الاهتمام بتحقيق هذا المخطوط ونشره.

7 ـ النص الكامل للمخطوط

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على النبي الكريم سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، هذه أجوبة الشيخ الامام محي الدين أبي عبد الله سيدي محمد ابن عبد الكريم المغيلي ثم التلمساني للامير أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الملقب بأسكيا (25).

(23) اذا اخذنا بنظر الاعتبار كل ما كتبه محمود كعت وعبد الرحمان السعدي، فان الاسقيا الكبير كان شديد الحرص على الاسترشاد بهدى الدين، في كل خطوة يخطوها، ولا شك ان الاسقيا كان قد بذل جهده في ارضاء الفقهاء لكونهم اكثر اتصالا بالجماهير، ومما يلاحظ انه لم يغز وفق الشريعة الاسلامية الا مرة واحدة، في حملته التي وجهها لبلاد (الموسي) بعد رجوعه من الحج مباشرة

(24) اول خطوة في سبيل ايصال الاسلام الى غرب افريقيا، قام بها عقبة بن نافع الفهري بارسال فرقة صغيرة من جيشه باتجاه، فزان، وقد وصلت الى حدود تشاد، كما ذكر ذلك ابن عبد الحكم. ومنذ ذلك الحين بدأ الاسلام ينتشر بالتدريج بواسطة القوافل التجارية، وقد بدأ يستقر في تلك المنطقة منذ نهاية القرن التاسع للميلاد.

(25) هذه المقدمة التعريفية، يظهر انها من انشاء الناسخين، وقد اتفقت الفاظها في كل من النسختين وقد ضبط الناسخ كلمة أسكيا بوضع سكون وكسر على السين ثم تسكين الكاف وفتح الالف والياء.

الحمد لله رب العالمين والغاقبة للمتقين والصلاة والسلام الأتّمان على النور المبين محمد رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين وسلّم تسليما.

من عبد الله تعالى محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، إلى الامير (26) الحاج ابي عبد الله محمّد بن ابي بكر الملقب باسكيا، (27) وفقه الله تعالى ونصره نصرا عزيزا وفتح له فتحا مبينا بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني عن مسائل، أولها أنّك قلت مذ من الله علينا بالاسلام أصابتنا مصيبة في هذا البلد، لعدم الامانة فيمن ينسب إليه العلم من قراء بلادنا، ومن صفتهم أنّهم عجم لايفقهون من كلام العربية الا قليلا من كلام عرب بلادهم على تصحيف وتحـريف وعجمـة عظيمة، (28) بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء، ولاموضع التصحيف والتحريف و مع ذلك لهم كتب يدّرسونها وحكايات وأخبار، ومنهم قضاة ومفسرون يتكلمون في دين الله، ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم من ورثة الانبياء، وانه يجب علينا الاقتداء بهم (29)، وأنا أطلب من الله تعالى أن يعينني على حمل هذا الثقل، الذي ابت السماوات والارض عن حمله، (30) ثم أطلب من الله ثم منك أن يفتى لي بما

---

(26) لم تتخذ الملوك الاسقيين لقب (الخليفة)، وذلك بالرغم من أن شريف مكة مولاي العباس، كان قد قلد في حدود سنة 1497 م محمد الأول إشارات الخلافة، ولقبه «خليفة السودان كله». وأثناء الخلاف بين المنصور الذهبي و اسكيا اسحاق الثاني سنة [illegible] ادعى المنصور بانه هو الخليفة وحده، لنسبه الشريف، ولذا وجب على اسحاق ان يعترف له بالخلافة على بلاد السودان، حسب نظرية المنصور.

(27) لقب (آسقيا) أو (أسكيا)، قبل أن بنات (علي بير) لما قام محمد الأول بالثورة على حكومة أبيهن: تساءلن: (أسكيا)، أي (أهو بالذات ؟)، وذلك حين تناهت اليهن أبناء الثورة، ولم يعرفن، من الذي قام بها من ضباط أبيهم، فالتصقت عبارة التساؤل بمحمد الأول من ذلك الوقت. وهو تعليل نستبعده.

(28) اثبتت تحريات العلماء على أن هناك هجرات عديدة منذ القديم قامت بها جماعات عربية، وخاصة من جنوب الجزيرة الى افريقيا، ولكن الاكثرية كانت تستقر في شرق افريقيا، ولا يصل الى السودان الغربي الا القليل، الا أن العلاقات بين المغرب والسودان الغربي كانت واسعة، وقد حصلت هجرات عديدة الى السودان من بلدان المغرب، كما من السودان، وأقامت جماعات منهم في مدنه الكبيرة وخاصة تمبكتو، جني، وغاو. وذلك ما أثبتته أبحاث الأستاذ (برونشويك)، أما في القرن السادس عشر، فقد تنقل التجار بكثرة وفي تلك الفترة هاجر أعراب البرابيش ولحقهم بنو حسان، وقد سكنوا مشارف الصحراء (داخل حدود سنغاي)، مما جعل الطوراق، يشعرون بالخطر، ويميلون إلى السلم مع مملكة سنغاي، وهذا لأول مرة منذ قيام تلك المملكة.

(29) نهاية الوجه الأول من الورقة الأولى في (أ). وهي نسخة الجزائر.

(30) سعى محمد الأول بنفسه، للقيام بأعباء الحكم، ومع ذلك يظهر للمغيلي، وكان الأمر لا يد له فيه.

علمك الله في هؤلاء القراء، هل يجوز لي أن نعمل (31)على قولهم في دين الله ويخلصني تقليدهم عند الله أو لا يحل لي ذلك، ويجب علي البحث عن (من) (32) نوليه الحكم ونقلده في أمور الدين، وبيّن لنا صفة من يصلح لذلك شرعا، ثم أطلب منك أيضا أن تشفي غليلي بترتيب الاجوبة عن هذه الاسئلة بزيادة وما تيسّر لكم من النصيحة أيضا.

فاعلم اعاننا الله واياك أن الملك كله لله وما النصر الا من الله لله، فكن لله عبدا بطاعته، يكن لك ربّا بحفظه وإعانته (33)، إنما أنت مملوك لا تملك شيئا وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيّدهم ومولاهم، وأنت في جميع مملكتك راع لا مالك، (34) وكل راع مسؤول عن رعيته، فانظر لنفسك قبل الفوت، فانه لابد لك من الموت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (35) اللهم من ولي شيئا من أمر أمتي، فشق عليهم فاشقق عليه (36) ومن ولّي أمر أمتي شيئا فارفق به، (37) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه، إن شئتم انبئكم عن الإمارة وما هي، فقام عوف بن مالك، فنادى بأعلى صوته ثلاثا : (38) وما هي يا رسول الله ؟ قال أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة، إلا من

---

(31) كذا في النسختين.

(32) غير موجودة في (أ).

(33) يسير المغيلي هنا، على الطريقة التقليدية عند علماء المسلمين في وعظ الملوك، فهم يبدأون بالتذكير بوجوب خوف الامير من الاله، اذا كان لا يخاف العباد، ثم ينطلقون من هذه التوطئة، الى تبيان وجهة نظرهم الشخصية في السلوك الذي يحسن بالملوك والامراء أن يسلكوه، واخيرا يسندون آراءهم بأحاديث وأمثلة من السيرة.. الخ.

(34)رأي المغيلي في الامير، انه موجه لا حاكم، ومرشد قبل أن يكون رادعا، وهذه النظرية تختلف عن فكرة (العقد الاجتماعي) كما نادى بها فلاسفة القرن الثامن عشر، وتنسجم مع السلوك الذي سار عليه الخلفاء الراشدون، وانعكست آثاره على أعمالهم وسيرتهم مع المسلمين.

(35) نهاية الوجه الاول من الورقة الثانية في (ب).

(36) كان عمر بن الخطاب يعتبر نفسه مسؤولا أمام الله عن كل أذى يلحق آخر فرد في الرعية، أثناء سني حكمه، وأمر ان لا يعهد بالخلافة بعده لابنه قائلا: (كفى آل الخطاب ان يحاسب منهم عمر). ولما اقترح عليه عمروبن العاص انشاء اسطول في مصر لمواجهة الروم به، طلب منه ان يصف له البحر، فوصفه له عمرو بن العاص باسلوب جذاب فيه بعض المبالغة، فأشفق عمر على المسلمين، ولم يسمح لابن العاص بانشاء أسطول وكان ذلك كله تطبيقا عمليا لهذه النظرية في (الاشفاق).

(37) لعل تفصيل العبارة: (ومن ولي من أمر أمتي شيئا ورفق بهم، فارفق به، وحذفت جملة (ورفق بهم) لوجود مايدل عليها، ومثل هذا الاستعمال كثير لدى العرب.

(38) نهاية الوجه الثاني من الورقة في (أ)

عدل، وكيف يعمل مع اقاربه ؟قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من وال إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه إلا خبالا فمن وقي شرّهما (39) فقد وقي وهو من التي تغلب عليه منهما، (40) فإذا علمت ذلك ايها الأمير فعليك بأمرين : الأول أن تبعد عنك أهل الشر، وأن تقرب منك أهل الخير، لان من الغالب على الانسان التأنس بقرينه والميل إلى طبعه وتزيينه، فمن قرّبته من نفسك فقد مكنته من أذنك، ومن مكنته من اذنك فقد مكنته من قلبك، لان الاذن زمام القلب، ولذلك قال مالك بن أنس : لاتمكن زائغ القلب من أذنك، وقال بعض الحكماء

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي ذلك قلت :

اذا قرب السلطان اشرار قومه   وأعرض عن أخيارهم فهو طالح
وان قرب السلطان اخيار قومه   وأعرض عن أشرارهم فهو صالح
وكل امرء ينبئك عن قرينه   وذلك امر في البرية واضح (41)

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كله بقوله صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكّره، وإن ذكر

---

(39) كذا في النسختين، ولعل الصواب (شرها) باعتبار الضمير يعود على الفئة الاخيرة التي (لا تألوه الا خبالا).

(40) لعل معنى العبارة (ويكون من الذين يتغلبون عليها) أي على بطانة السوء.

(41) يبدو واضحا من رأي المغيلي الذي تحتويه هذه الابيات ان الرجل كان مهتما كل الاهتمام باصلاح الاوضاع السياسية للمسلمين على أيامه، ولذا فهو ليس من طبقة الفقهاء التي اكتفت بالاهتمام بمسائل الشريعة والتعمق فيها، بالرغم مما كان له من تمكن في علوم الشرع، ولكنه كان من بين القلائل في زمانه، الذين حاولوا الاصلاح ما أمكنهم، ولما عجز عن اصلاح الحكام في الشمال إرتحل الى الصحراء وغادر تلمسان وفي نفسه غيظ وحنق على الإنحراف في سيرة الحاكمين. ولما انتهى إلى توات يبدو أنه وجد في هيئته المشرفين على أمور تلك المدينة استجابة لآرائه وقد اضطره الى الدخول في نقاش سياسي كبير، اصطبغ بصبغة دينية على عادة ذلك العصر، وكان رأي المغيلي له المكانة القوية بين علماء زمانه، وقد دافع عنه بحجج قوية أيضا، ولما انتقل الى كانو باشر الاصلاح على طريقته، فاكتسب مكانة كبيرة في السودان وذاع صيته، كأحد المفكرين اللامعين في دنيا الاسلام.

أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره وان ذكر لم يعنه.

الثاني : أن تسأل أهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله في كل ما حملك منها، (42) قال الله تعالى : **(ومن لم يحكم بما انزل الله، (43) فأولئك هم الكافرون، ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)**، ثم قال تعالى : **(فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)**، والذكر هو القرآن، وأهله من اجتمع فيه وصفان : العلم والتقوى، لان بالعلم يعرف الرشد من الغي، (44) وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغي، فلا تقيد في دينك إلّا من ثبت أنه عالم تقيّ، لان من لم يثبت أنه عالم يخاف أن يضل ويضل بعماه، ومن لم يثبت أنه تقي يخاف منه أن يضل بهواه، ألم تر إلى قول الله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله)**، وفي صحيح مسلم عن ابي سعيد الخذري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم)، قلنا : يا رسول الله! اليهود والنصارى ؟ قال : (فمن فتن بذلك).

ان كثيرا من علماء هذه الامة وعبادها يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد في جميع البلاد، فالجهاد فيهم وفي انصارهم افضل من كل جهاد، (45) قال رسول الله

---

(42) كان علماء السودان على أيام علي بير لا يراعي جانبهم، لان علي بير كان اميل في سلوكه الى اللائكية كحاكم، ولذا اشتد غضبهم عليه، فلما تولى محمد الأول، نراه يقرب الفقهاء والعلماء ويجزل عليهم الصدقات والهدايا، مما جعلهم يحبونه حبا شديدا ويثنون على (سيرته الحميدة)، ويظهر أن الاسقيا كان قد لاحظ دور أولئك الفقهاء في وسط الناس العاديين، ولذا اتخذ منهم ذلك الموقف، والا فكيف نوفق بين رأيه في علماء السودان على ايامه، كما شرحه للمغيلي، ثم تقربه منهم واحترامه لهم، باعتبارهم علماء (أجلاء) يستحقون المودة والاكرام من الملك والدولة.

(43) نهاية الوجه الاول من الورقة الثانية في (ب).

(44) يلاحظ هنا جمع المغيلي بين العلم والتقوى في الاعتبار، ثم تقديمه جانب العلم على جانب التقوى، وهذه فكرة اسلامية قديمة، ولكنها تبين أسلوب الرجل في التفكير.

(45) دخل السودانيون ميدان الحضارة الاسلامية في الوقت الذي كانت تسير فيه الى ضعف في مواطنها الاصلية الاولى، واذا أضيف الى هذا أن الاسلام استقر في السودان بواسطة أفراد كانوا قد أثروا على الرؤساء، وهؤلاء تبعهم رعاياهم بشكل عام، فاننا نستطيع تفسير ما تحتويه كتب المؤرخين السودانيين من تلك الفترة أمثال

صلى الله عليه وسلم : انه من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال، فقيل من يارسول الله ؟ قال من علماء السوء. وعن أبي حذيفة اليماني رضي الله عنه (46) انه اخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه، ثم قال : ان الدين قد استضاء اضاءة هذه الحصاة، (47) ثم أخذ كفا من تراب فجعل يدور على الحصاة حتى واراها، ثم قال : والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا، كما دفنت هذه الحصاة، ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدّة بالقدّة والنعال بالنعال.

فمن أعظم الواجبات على أمراء المسلمين حفظ الدين بأن لا يتركوا أحدا يتكلم في دين الله بتعليم ولا حكم ولا فتوى، حتى يكون من اهل العلم والتقوى، ولذلك لما قدم علي بن ابي طالب رضي الله عنه البصرة، دخل جامعها فوجد القصاص يقصون، فاقامهم، حتى جاء الى الحسن البصري رضي الله عنه، فقال : يا فتى اني سائلك عن شيء، فان انت اجبتني عنه ابقيتك، والا أقمتك كما اقمت اصحابك، وكان قد رأى عليه سمتا وهديا، قال الحسن : سل عما شئت، فقال علي : ما ملاك الدّين ؟ قال : الورع. فقال : وما فساد الدين ؟ قال الطمع. قال اجلس، مثلك يتكلم على الناس.

أليس من أعظم الواجبات على كل أمير أن يطرد عن طرق الدنيا جميع المفسدين ؟ فكيف لا يجب عليه أن يطردهم عن طرق الدين ؟

وقد تبين بالكتاب والسنة وإجماع علماء الامة أن كثيرا من قراء هذه الامة انما هم من علماء السوء، الذين يأكلون اموال الناس بالباطل، ويصدون عن

السعدي وكعت وأحمد بابا، فهي تتوفر على ذكر العديد من الصفات التي تحلى بها علماء السودان في تلك الفترة، وهي ليست من الاسلام. اما العامة فقد دخلت الاسلام، ولم تجد العدد الكافي من العلماء الذين يختلطون بها ويقومون سلوكها وفق مفاهيم الاسلام، ولذا بقيت تحتفظ بالعديد من عاداتها القديمة المخالفة للاسلام، بالرغم من شدة اخلاصها له، أما علماء البلاد، فقد باشر الكثيرون منهم ضروبا من الاستغلال في أوساط العامة، وكان المغيلي على معرفة بما يوجد بتلك البلاد، ولذا تشدد في جوابه، وألح على وجوب الضرب على ايدي كل المشعوذين.

(46) نهاية الوجه الثاني من الورقة الثانية في (ب).

(47) جاءت التاء مفتوحة في النسختين ويظهر ان ذلك من سهو الناسخين، لانه في الكلمتين السابقة واللاحقة جاءت مربوطة، وكذلك فيما تلاهما.

سبيل الله فهم لصوص الدين وأضر على المسلمين من جميع المفسدين، (48) ولذلك قال ابن المبارك رضي الله عنه وعنا به :

وهل افسد الدين الا الملوك، وأحبار سوء ورهبانها

وقال بعض الأدباء :

قضاة زماننا أضحوا لصوصا (49) عموما في البرية لا خصوصا
فلو عند التحية صافحونا لسلوا من خواتمنا الفصوصا (50)

فان قلت قد بينت وأوضحت أن كثيرا من علماء هذه الامة ليسوا من أهل الذكر انما هم من علماء السوء الضالين، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، ولكن كلا منهم يقرأ القرآن والحديث ويسرد كثيرا من نصوص الكتاب، ويزعم انه من أهل الذكر وينكر انه من علماء السوء فبأي شيء نفرق بين أهل الذكر وعلماء السوء، وكيف يفعل من ولي شيئا من هذا الامر، ولم يجد في بلده أحدا من أهل الذكر ؟ فالجواب والله الموفق للصواب، انه ليلتبس

---

(48) منذ بداية النزاع والخلاف على (الخلافة)، تفرق الناس الى شيع وأحزاب، وفي غمرة ذلك الصراع، أباح الكثيرون لانفسهم اختلاق الاحاديث وانتحال القصص من السنة،

كما بلغوا الى درجة تفسير الآيات أيضا بما يوافق اراءهم، وفي هذا كله، ما يبين الضرر الذي يلحقه بالمسلمين بعض (المفسدين) كما يعبر عنهم المغيلي، ولم يحصل هذا في السودان، لان القوم أخذوا الاسلام على المذهب المالكي، كما هو الحال بالمغرب، ويظهر ان المغيلي استند على ما وقع للمسلمين من ضرر نتيجة لمساعي أصحاب الاغراض، ليبين للاسقيا، الاثر السيء الناتج عن اعمال المشعوذين، وليحثه على عدم التساهل معهم.

(49) نهاية الوجه الاول من الورقة الثالثة في (ب).

(50) اشتهر عن العلماء المسلمين، تهربهم من تولى مناصب القضاء، لانهم يكونون معرضين فيها للحكم على الناس، ولذلك، فهم يزهدون فيها ورعا وتقوى، ومن ذلك ما فعله ابو حنيفة النعمان وآنس بن مالك، فقد رفضا منصب القضاء ولقيا في سبيل ذلك الضرب والضغط. ويظهر أنه في الأخير أصبح القضاء، يسعى اليه الناس كبقية المناصب الاخرى، ولم يعودوا يتورعون عن السلوك الانحرافي في كثير من الحالات.

وفي السودان لم يتناه الينا تهرب الفقهاء من تولي منصب القضاء، ولكن تناهت الينا بعض أخبار التنافس على تولي القضاء في تمبكتو، اما الدوافع فكانت تلك المكانة السياسية والاجتماعية الهامة للقضاء في تلك البلاد، ولم يتناه الينا شيء عن انحراف القضاة بالسودان، مما يجعلنا نميل الى اعتبار تعميم المغيلي هنا، لا يعني ما كان يوجد بتلك البلاد، بقدر ما يعني تبصير الملك باضرار الانحراف عامة في هذا الميدان.

حال أهل الذكر بحال علماء السوء أصلا لا قولا ولا فعلا بل لابد (51) أن يجعل الله لكل هاد من أهل الذكر أنوارا في كل عصر من الاعصار هداية لهم الجنة وحجة على سهم النار، وبيان ذلك أن من حكمة الله تعالى أن لا يعذب قوما حتى يبين لهم ما يتقون، وتلك سنة الله في الأولين والآخرين لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ومن حكمته جل وعلا أن جعل ذلك البيان على لسان البشر من الانبياء في الآخرين، وأهل الذكر في الآخرين وجعل لكل هاد منهم عدوّا من المجرمين، وهم شياطين الجن والانس يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا، فلا بد اذن من نور واضح يعلم به صدق الهادين (52) وكذب الشياطين، فجعل الله ذلك للانبياء بخوارق العادات، وأهل الذكر بالأعمال الصالحات، فما من نبي أرسله لعباده، الا وجعل له نورا واضحا بين الناس كلهم، انه الحق المبين، ومن خالفه وشاققه انما هو من الضالين المضللين، وكذلك أهل الذكر من هذه الأمة إلى يوم القيامة، لأن الله جعلهم للهداية واقامة الحجة في هذه الامة كالانبياء في الامم الماضية، ولذلك روي أن في رأس كل قرن يرسل الله للناس عالما يجدد لهم دينهم، فلا بد لهذا العالم في كل قرن أن يكون أحواله في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح أمور الناس والعدل بينهم ونصر الحق على الباطل والمظلوم على الظالم بخلاف علماء عصره، فيكون بذلك غريبا بينهم لا نفراده بصفاء أحواله وقلة امثاله، (53)

وحينئذ يتبين أنه من الصالحين وأن من خالفه وشاققه ليصرف الناس عنه انما هو من المفسدين لقول النبي صلى الله عليه وسلم، بدىء الاسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء وقيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : الذين يصلحون عند فساد الزمان، وذلك من ابين علامات أهل الذكر الذين يجدد الله للناس بهم دينهم.

---

(51) نهاية الوجه الثاني من الورقة الثانية في (أ).

(52)نهاية الوجه الثاني من الورقة الثالثة في (ب).

(53) يبين هذا الإلحاح والاستطراد من طرف المغيلي، عن الطريقة التي سلكها محمد الاول في تقريب الفقهاء جميعهم منه، وقد كان يرمي من وراء ذلك، الى كسب الانصار الكثيرين، لما لاولئك الفقهاء من تأثير على الناس، أما المغيلي، فقد أراد منه ان يفرق بين الغث والسمين، وشرح له الوجهة الاسلامية في هذا الشأن، كما بين له رأيه الخاص ايضا، ولكن محمد الاول، لم يفعل شيئا في هذا الموضوع كما أراد منه المغيلي، وذلك للاعتبار السياسي الذي كان يسير بمقتضاه. وهذا كله، مما يبين بجلاء اطلاع المغيلي على الاوضاع كما هي بالسودان في تلك الفترة، لان الرجل كان في توات يطلع على أخبار تلك البلاد أولا بأول، ثم زار بنفسه المنطقة مرتين وأقام فيها فترة للتدريس.

ومن أبين علامات علماء السوء أنهم لايصلحون ولايتركون من يصلح، فمثلهم كمثل الصخرة في باب النهر، لا تشرب ولا تترك من يشرب، كل واحد منهم أضر من ألف شيطان، وليس الخبر كالعيان (54) وان لم تفهم ما قررناه وأشكل عليك شيئا مما ذكرناه فاعلم ان القراء كلهم ثلاثة أنواع، الاول من تبين لك بلا شك أنه عالم تقي. الثاني من تبيّن لك أنه ليس بعالم وانه ليس بتقي الثالث من شككت فيه، فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا؟ فمن تبيّن لك أنه عالم تقيّ، فهو من اهل الذكر، فاسأله عن دينك وقلده بنجيّك ويكفيك، كمن انه خبير، وتبين بلا شك أنه عارف امين. ومن تبين لك انه ليس بعالم، وانه ليس بتقي فليس هو من اهل الذكر فلا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله عنه، كمن زعم أنه خبير وتبيّن لك أنه ليس بعارف، وأنه ليس بأمين، ومن لم يتبين لك حاله، فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا فقف عنه أيضا، ولا تقلده في شيء من دينك، ولا تسأله ولو كان فصيحا عربيا يحفظ ما في جميع الكتب، حتى يتبيّن لك بلا شك انه عالم تقي، فمن زعم أنه خبير عارف أمين ولم يتبيّن لك هل هو صادق أو كاذب واذا علمت ذلك لم يلتبس عليك أمر القراء في هذا الزمان، ووجب عليك أن تطلب عالما من أهل الذكر، فالعلماء في هذه الامة، كالانبياء في الامم الماضية يجب الاعتماد عليهم والسعي وإن بعدوا، ثم اعلم أن تأخيرك (55) النظر في الأمور حتى تستفتي من بعد عنك من أهل الذكر تضييع لكثير من الأمور التي تعين عليك إصلاحها عاجلا، فبادر للنظر في جميع الأمور التي تعيّن عليك إصلاحها عاجلا (56) فعليك بهذه القاعدة، وهي أن تعلم أن الأمور كلها ثلاثة أنواع، الاول أمر تعلم أمر شككت في حكمه، وخفت من إثمه، وإذا علمت

---

(54) يبدو من كلام المغيلي هنا ما يثبت الوضعية التي احتواها السؤال عن تلك الفترة في السودان الغربي، وهي تتلخص في وجود كثير ممن يدعون العلم، وليس لهم باع منه، ولاشك ان هؤلاء كانوا قد افسدوا على العلماء الحقيقيين ميادين عملهم. هذا، وإن الشعوذة كانت تقوى مظاهرها في مختلف البلدان الاسلامية كلما تناءت المدن الكبيرة، أما في المدن، فان اثر العلماء كان اقوى، ولكن المشعوذين كانوا اكثر التصاقا بالعامة من غيرهم، وهذا ما جعل المفكرين آنذاك يلحّون على وجوب الضرب بشدة على كل المدعين لقطع دابر الفساد الذي يحدثونه في اواسط العامة ويظهر أن السودان الغربي لم يسلم من الشعوذة، لان ظروفه كبلد يقع على اطراف العالم الاسلامي، وقد دخل اليه الاسلام في وقت متأخر نسبيا، مما يجعل ميدان الشعوذة أكثر اتساعا امام أصحابها، وهذا ما جعل الاسقيا الكبير يحتار في الوسيلة التي ينبغي اعتمادها، لتخليص المجتمع من مثل تلك الآفة، اما المغيلي، فكان رأيه، وجوب العمل بكل الطرق، لسد الطريق على المشعوذين.

(55) نهاية الوجه الاول من الورقة الرابعة في (أ).

(56) يرى المغيلي ان على الامير ان يتوفر على قاعدة معينة يسير عليها، لمجابهة الامور التي تستجد في محيطه، وفي هذه الحالة، فله أن لا ينتظر الفتوى من أناس قد يبعدون عنه في المكان، لان في ذلك تمكينا لعوامل الفساد وافساحا لها في الانتشار، وهو ينطلق في هذا القول من اعتبارين:

الاعتبار الاول: أن على الانسان ان يجتهد.

ذلكَ، فكل أمر علمت أنه مما أمر الله به فافعله، فانه خير ولا يأتي (57) عنه إلا الخير، وكل أمر علمت انه مما نهى الله عنه، (58) فاتركه. فإنه شر ولا يأتي عنه الا الشر، وهذان النوعان كثيرا ما تعلم منهما، فإذا شغلت بإصلاحهما ونصحت فيهما كثر خيرك قولا وفعلا، وملأت بلادك قسطا وعدلا، وكل أمر شككت في حكمه وخفت من إثمه، فعليك فيه بالاحتياط الصارف عن الشبهات فان الجنة حفت بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، فاقطع الشك باليقين واحتط لدينك اكثر مما تحتاط لدنياك في كل حين، مثال ذلك، إن شككت في أمر هل يجب عليك أم لا ؟ فاتركه، وان شككت في أمر هل هو حرام أو واجب، فاتركه أيضا، لأن لحرام من باب المفاسد والواجب من باب المصالح، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وان تعارض أمران مستويان في نظرك، فاعرضهما على نفسك، ثم افعل اثقلهما عليها فان الغالب على النفس في حال الحياة والصحة أن لا تكره الا الحق، وإن اعرضتهما (59) على نفسك فاستويا عندها، فانظر أيهما أحبّ إليها أن تموت عليه ثم افعله، لأن الغالب على النفس في حال الانتقال من الدنيا إلى الآخرة أن لا تقبل الا الحق، فعليك بهذه القاعدة في كل ما يعرض لك من الأمور، فانها نافعة (60) لكل من ليس بعالم، ولم يجد عالما تقيا حاضرا.

← الاعتبار الثاني: ان على الانسان ان لا يتردد في اتخاذ ما يراه مناسبا، في الحالات التي يكون التأني معه، قد يمكن عوامل الفساد من الانتشار.

وهكذا يبدو المغيلي هنا، شديد الحرص على عدم قبول الشعوذة، وحريصا على وجوب العمل السريع، لمنع المشعوذين من الحركة، وهدفه من ذلك، هو وقاية المجتمع من أخطار التموية والاحتيال والدجل، بإسم الدين او العلم.

(57) في (أ) ولايات، ولعل ذلك من سهو الناسخ.

(58) نهاية الوجه الثاني من الورقة 4 في (أ).

(59) كذا في النسختين.

(60) - يظهر المغيلي هنا ناصحا ومرشدا للامير، وقد اتخذ جانب الصراحة سبيلا لشرح وجهة نظره، وهذا على خلاف ما عرف لدى مرشدي الامراء، وخاصة في دولة بني العباس، من سلوك الطرق الملتوية لتبيين وجهات نظرهم للخلفاء والامراء.

ومن المهتحسن أن نلاحظ الفرق هنا، في أن الامير اسقيا الاول، كان شديد التواضع مع العلماء، كما أن المغيلي، كانت له طريقته الخاصة في العمل الاصلاحي أيضا، ثم ان الاسقيا طلب من المغيلي أن يرشده الى أقوم السبل التي تبرر سلوكه في جانب الدين، وقد اتفقت كل هذه العوامل لتجعل المغيلي ينتهز الفرصة التي أتاحها له الاسقيا، كي يشرح رأيه بصراحة وتعمق واستطراد، حول عدد من المسائل الاجتماعية في السودان الغربي على أيام الاسقيا، ويبرهن على صحة ما يذهب اليه، بحقائق من الدين والشريعة.

المسألة الثانية :

قولكم، جوابكم سددكم الله في هذه البلاد وأهلها، فانهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون ومدنيتهم بالجامع والجامعة والجمعة والاذان للصلوات الخمس، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر، وأهلها عبدة أصنام، فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم المذكور (61) منهم عنوة وسكنوها بالاسلام أكثر من ثلاثين سلطانا قبل سني (62) علي، وكان أبو سني علي سلطان أهلها، وكانت أمه من بلاد فار، (63) وهم قوم كفار يعبدون الأصنام من الاشجار والاحجار، ويتصدقون لها، ويسألون حوائجهم عندها فان أصابوا خيرا زعموا أن تلك الاصنام هي التي أعطتهم، وان لم يصيبوا، رأوا أنها منعتهم، فلا يغزون حتى يشاوروها، وان قدموا من سفر قصدوها ونزلوا عندها، ولتلك الاصنام سدنة يخدمونها ويترجمون لها عنهم، وفيهم كهان وسحرة يقصدونهم كذلك (64) وكان سني علي من صغره إلى كبره كثير الاقامة عندهم حتى نشأ بينهم وتطبع بطباعهم، وقاتلهم حتى غلبهم في شركهم وعوائدهم، ثم بعد موت أبيه طلب السلطنة فقام علي سنغي (65) وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم، كما كان أبوه ومن قبله من ملوك سنغي، الا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين أخواله وتطبع بطباعهم، كان من صفته أن ينطق بالشهادتين ونحوها من ألفاظ المسلمين، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة، انما يقول ذلك بلسانه، وربما سمع اسم (66) النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: صلى الله عليه وسلم، ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا من الذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها، ومع ذلك يعبد الاصنام ويصدق الكهان ويستعين

(61) ـ كذا في النسختين، ولعله من خطأ النساخ.

(62) ـ في النسختين بدون ياء.

(63) ـ منطقة في الجنوب الغربي من سنغاي.

(64) ـ في سنة 1497 بعد عودة الاسقيا محمد من الحج، أراد أن يغزو بلاد الموسي علي حدود الغابات المدارية ـ الاستوائية في الجنوب، فأرسل اليهم رسولا يعرض عليهم الدخول في الاسلام، فأجابه كبيرهم بأنه لا يستطيع الجواب، قبل استشارة كاهن المعابد، فنودي على هذا، وذهب الى كبير الاصنام يستطلع رأيه بحضور رسول الاسقيا وملك الموسي، وقد كان الجواب الذي استطلعه الكاهن من كبير الالهة، أن على ملك الموسي أن لا يفرط في عبادة الاجداد «ولهذا رفض طلب الاسقيا بالدخول في الاسلام، ويظهر أن السودانيين قبل اعتناق الاسلام، كانوا يستطلعون رأي الكهنة في كل ما يقدمون عليه من أعمال، وهذه الحقيقة، هي التي يذكرها الاسقيا محمد في سؤاله، ويؤكد شيوع أتباعها من طرف الوثنيين على أيامه.

(65) ـ هكذا ضبطت في (أ).

(66) ـ نهاية الوجه الثاني من الورقة الخامسة في (ب).

بالسحرة ونحوهم فيعظمون بعض الاشجار والاحجار بالذبح عندها والصدقة والتضرع والنذر لها وطلب قضاء حوائجه، ويستعين بها وبالسحرة والكهان في الامور كلها، أو جلها. (67)

ومن صفته أيضا أنه ما رؤي في جامع ولا مسجد (68) هو ولا أحد من دائرته في يوم جمعة ولا غيره، وفي دائرته ودياره ألوف من الرجال والنساء لا يستطيع أحد منهم أن يصلي صلاة، ولا أن يصوم يوما من رمضان خوفا منه أن يعاقبه على ذلك، فلا يصلي أحد منهم، حرا كان أو عبدا، ولا يصوم الا خفية خائفا منه، وأما هو في نفسه فلا يحفظ الفاتحة ولا غيرها، ولا يصلي صلاة مكتوبة في وقتها ولا يقوم و يركع ويسجد فيها، انما يترك الصلوات الخمس إلى آخر الليل أو غد وقت الضحى، ثم يجلس كهيئة جلوس ويومىء الى السجود من جلوسه، وهو صحيح قوي لا علة به، ولا يقرأ في صلاته تلك بشيء، انما يذكر في خفضه ورفعه اسم صلاته، فيقول في ركوع المغرب، المغرب، وسجودها المغرب المغرب، وفي العشاء العشاء، وكذلك في سائر الصلوات.

ومن صفته أيضا أنه لا يتوقف في النساء على نكاح ولا غيره من الشروط الاسلامية، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها في بيته وفراشه، لا يبالي بزوجها ولا أحد، ويجمعها مع أمها، فيتلذذ من المرأة وابنتها حرة أو أمة.

ومن صفته أيضا أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم، فيقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان الرضع وغيرهم، وأفسد منهم مثل الذكر والانثيين، وقطف الانف واليدين، ونهب من الاموال وسبى من الحريم وباع من الاحرار ما لا يحصى، وفساده في الارض بذلك ونحوه مشهور، ولم يسمع قط بمثله في

---

(67) ـ هكذا يظهر الاسقيا شديد الاستنكار لما كان عليه علي سني من التناقض في سيرته الدينية، والحقيقة أن سني علي قامت ضده نقمة العلماء في أيامه لأنه لم يكن ليقربهم منه، ولا يأبه لهم، وهذا ما جعل الاسقيا محمد يلقى منهم كل تأييد بعد ثورته على سني علي، أما الكتابات التي كتبها العلماء السودانيون حول سني علي، فلا شك أنها احتوت شيئا غير يسير من المبالغة، لانهم كانوا متأثرين فيها بالموقف الخاص الذي وقفه حيالهم سني علي. وهذا لا ينفي أن الرجل كان اهتمامه الاول منصبا على الفتوحات والتوسع، ولذا كان يتخذ بطانته وعترته من الفرسان والجنود، ولم يكن يأبه لغيرهم الا نادرا، أما الاعمال الحربية والولع بالانتصارات، فهي التي كانت تأخذ النصيب الاكبر من أوقاته وجهده، ولذا لم يكن للعبادة من يومه الا الجانب الثانوي.

(68) ـ نهاية الوجه الثاني من الصفحة الخامسة في (أ).

الاسلام، ولم يزل على ذلك مدة عمره حتى مات. (69)

ثم ولي بعده الامير أسكيا، فملك البلاد ورد العباد عن الشرك والفساد، فما الحكم في سني علي وجميع أعوانه من الظلمة الذين كانوا يعملون بعمله في ذلك كله، ولا مال لهم الا من ماله، وهل هم كفار أم لا؟ وهل تسترق أولادهم من بعدهم وتباع أمهات أولادهم أم لا؟ وهل يرد ما وجد الان من تلك الاموال التي نهبوها من المسلمين (70) والتي نهبها المسلمون منهم، أو هي كالاموال التي نهبت بين المسلمين والكفار، وهل البيّنة علينا أو على من وجدناه بأيديهم مستعبدا فادعى أنه حرّ، وأنهم استعبدوه ظلما؟ وهل البينة على من ادعى من خدامهم وأتباعهم فيما بيده من المال أنه ليس لسني علي وانما هو ماله اكتسبه من جهة أخرى، أو البينة في ذلك علينا من كونهم تحت يده أو يد أعوانه وهم من خدّامهم، ومعروف أن أعوانه وخدامه ما يملكون شيئا مما في أيديهم؟ (71) وهل تلك الارض التي كانت للكفار ثم فتحها أجدادنا عنوة وحازوها واقتسموها، وكانوا يرعون فيها خلفا عن سلفهم من ذلك الزمان الى الآن؟ وهل يجب على المسلمين الكائنين ببلاد هذا الأمير أن يعينوه بقدر طاقتهم على ما يراه باجتهاده اذا أراد جهاد الكفار أو غيرهم من أهل الفساد وارسال الرسل في أمر المسلمين (72) أو ليس عليهم شيء من ذلك؟ (73) الجواب والله الموفق للصواب أن سني علي

---

(69) ـ يثبت هذا حقيقة تؤكدها مجريات الامور في السودان الغربي، وهي أن الناس دخلوا الاسلام ومع ذلك بقيت بعض العادات من القديم حية في سلوكهم، كما ان اسلامهم كان في البداية ظاهريا فقط، ثم تعمقوا فيه بالتدريج، ويبين ذلك عن قلة الرجال الذين كانوا يتصدون لتفهيم الناس دينهم وقواعده في البداية. ولا شك أن سني علي كان من بين أولئك الذين ينطبق عليهم هذا الواقع، حيث قضى صباه في جهات نائية، ولما تولى الحكم كان مسلما، ولكن اسلامه تشوبه مسحة من السطحية الناتجة عن عدم تمكنه من الاطلاع الكافي على قواعد الديانة التي كان يعتنقها.

(70) ـ هذه الواو ليست موجودة في (أ).

(71) ـ يبدو الاسقيا محمد هنا شديد الحنق على اتباع سني علي مثل ما هو شديد الحنق على سني علي نفسه. والمعروف أنه كان ضابطا كبيرا من ضباط سني علي قبل أن يقوم بثورته، ولا يعرف فيما اذا كان سني علي قد ألحق أي أذى أو اهانة بشخص الاسقيا محمد في حياته، وكان من عادة سني علي أن يغضب بسرعة ويعود من غضبه بسرعة وقد أثر عنه كثير من الوقائع التي ألحق فيها ببعض الافراد من بطانته الاذى في حالات غضبه تلك.
كما أنه لا يعرف هل صادر ممتلكات المتنفذين في أيام سني علي وأذهم أم لا؟ وكانت جميع الظروف مؤاتية له للقيام بمثل ذلك العمل، لان الفقهاء والعلماء كانوا قد هيأوا عقول العامة للتحمس لكل ما قد تقوم به الحكومة في هذا الصدد، ومن ناحية أخرى، فان طبيعة نظام الحكم في تلك الاثناء كانت تمكن الملك بعمل ما يريد، وذلك بالنظر لكونه حاكما مطلقا على البلاد.

(72) ـ نهاية الورقة السادسة في (ب).

(73) ـ ربما يتبين من هذه العبارة أن الاسئلة لم يكتبها الاسقيا محمد بنفسه، وانما حبرها كتابه بناء على أمره وتوجيهاته، وهو ما نميل الى القول به.

وجميع أعـوانه وأتباعه وأنصاره لا شك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، فجهاد الأمير أسكيا فيهم وأخذه السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه، وأما قولك هل هم كفار أم لا؟ فلا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة، انما يكون التكفير بأحد أمور ثلاثة، الأول أن يكون نفس اعتقاده كفرا: كإنكار الصانع أو صفة من صفاته التي لا يكون صانعا الا بها، أو جحد النبوّة، الثاني صدور ما لا يقع الا من كافر، وان لم يكن كفـرا في نفسـه، مثل: استحلال شرب الخمر، وغصب الاموال وترك فرائض الدين والقتل والزنى وعبادة الاوثان والاستخفاف بالرسل وجحد شيء من القرآن، فهذان الآن الاجماع على ما ثبت عليه واحد منهما حكمنا بكفره. الثالث أن يقول قولا يعلم أنه لا يصدق الا ممن لا يعلم الله تعالى، وان كان قائله يزعم أنه يعرف الله، وهذا مختلف فيه بين العلماء، هل يكفر به أولا. وعليه اختلفوا في تكفـير المعتـزلة ونحوهم من أهل البدع، واذا علمتم ذلك تبيّن لكم أن الذي ذكرتموه من حال سني علي علم على الكفر بلا شك، فان كان الامر كما ذكرتم، فهو كافر، وكذلك كل من عمل بمثل عمله بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك، وأمـا اسـترقاق أولادهم فلا أراه وان ثبت عليهم موجب الحكم بالتكفير، لان الكفـار ثلاثة أصناف، الأول من هو كافر صريح بالاصالة كالنصارى واليهود والمجوس ونحوهم ممن ورث الكفر الصريح عن ابائه، الثاني من كان مسلما ثم ارتدّ ارتدادا ظاهرا، فصرح أنه خرج عن دين الاسلام ودخل في غيره من أديان الكفر، الثالث من يزعم أنه مسلم وحكمنا بكفره، لانه صدر منه ما لا يقع في الظاهر الا من كافر كما ذكرتم في سني علي، (74) فالكفار بأصالة الكفر تسبى ذراريهم (75) ونسـاؤهم وتقسم أموالهم، لا خلاف في ذلك بين العلماء، وفي الكفار بالارتداد خلاف، قال ابن القاسم في أهل حصن من المسلمين ارتدّوا عن دين الاسـلام الى الكفـر، لا تسبى ذراريهم ونساؤهم وأما أموالهم فهي في فيء للمسلمـين، قال ابن رشد، وهذا هو الصحيح من جهة النظر، لان المرتدين أحرار من أصلهم، قال: والى مذهب ابن القاسم في المرتدّين، ذهب عامة العلماء وأئمـة السلف. واذا علمتم ذلك فكل من فعل شيئا من تلك الافعال الموجبة

(74) ـ يظهر المغيلي مرتبطا في تفكيره وارائه ارتباطا كبيرا بالاسلام، ولا شك أن مثل هذه الآراء التي يشرحها للاسقيا، لم يكن هذا الاخير ينتظر مثلها، لانه كما رأينا قد أفاض الحديث ما أمكنه في ذكر العديد من الشنائع التي ينسبها لسني علي واتباعه.

ويظهر من كل ذلك أن الامير كان حريصا على استرقاق جموع أخرى من الناس، كما كان يسعى الى زيادة ممتلكات السلطنة مما يأخذه من ممتلكات أتباع سني علي الواسعة، ورغم ما كان المغيلي قد أدركه دون شك من رغبة الامير، فانه لا يستلهم في جوابه سوى رأي الدين، لا غير.

(75) ـ بصيغة الجمع في النسختين (أ) و (ب) وبدون ياء في (أ).

للتكفير يستتاب، فان تاب ترك، وان لم يتب قتل بالسيف كفرا، ولا تسترق أولادهم إنما يجبرون على الاسلام. وأما بيع أمهات أولادهم التي استولدوا (76) من أموال بيت المال، فلا أرى به بأسا، وان كان أولادهم (77) لا يسترقون، وأما ما وجد الان من تلك الاموال التي نهبوها من المسلمين فلربّه أخذه حيثما وجده بغير شيء، لان الذين نهبوه منه يزعمون أنهم مسلمون، فليس ما نهبوه كما نهبه الكافر الاصلي، وأما ما نهبه المسلمون منهم فليس لهم أخذه، فهم يردون ولا يردّون لهم لان ما بقي عليهم أكثر مما أخذ منهم مع كونه ليس لهم، والظالم أحق أن يحمل عليه في ذلك ونحوه، وأما ما (78) وجدتموه (79) بأيديهم مستعبدا وزعم أنه حر فالقول قوله، (80) وان كان يقرّ لهم بالعبودية ثم زعم أنه كان خائفا منهم بخلاف من ادّعى من خدامهم وأتباعهم، أن المال الذي بيده له، فان البيّنة عليه فيما زعم، إذا كان الامر فيه كما ذكرتم، وأما تلك الارض فان ثبت ما ذكرتم من أن أجدادكم فتحوها عنوة وحازوها، واقتسموها فسكنوها، وكانوا يرعون في مراعي بحرها (81) دون غيرهم من المسلمين، وإن رعي غيرهم معكم فيما يضركم، فلا أرى عليكم في منعهم ولا في بيع مراعيها لبعضهم وإن لم يثبت ذلك، أو ثبت أن المسلمين كانوا يرعون فيها قبلكم، فليس لكم أنتم أن تمنعوهم مما تركه لكم ولهم من قبلكم وان كانت ارض عنوة فتحها أجدادكم لان الارض العنوة وإن كانت لمن فتحها، فليس للامام ولا غيره أن يحجّر على المسلمين مياهها ولا طرقها ولا مراعيها ونحوها من مصالح المسلمين، وروى اصبغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: المسلمون شركاء في ثلاثة في الكلإ والماء والنار، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم من أمر أمتي شيئا فشق عليهم، فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به. وأما إعانة المسلمين بإمامهم فواجبة عليهم في أنفسهم وفي أموالهم بحسب طاقتهم بشرطين: الاول أن يكون

---

(76) ـ كذا في النسختين.

(77) ـ نهاية الورقة السادسة في (أ).

(78) ـ كذا في النسختين.

(79) ـ نهاية الورقة السابعة في (ب).

(80) ـ ينطلق المغيلي في هذا من القاعدة القويمة في الاسلام، والقائلة بأنه يجب افساح المجال أمام التحرر الانساني ما أمكن ذلك، إن في الاسلام كان منذ البداية لم يأت بأمر يجعل بموجبه الرق ممنوعا منعا باتا، ولكنه استن عددا من الطرق الكفيلة بانهاء وجود الرق في المجتمع الاسلامي في ظروف معقولة، ومن تلك الموجبات التي تستدعي التحرر الآتي، الحنث لهم من الامكانيات. وعلى هذا المبدأ يعتمد المغيلي، في جوابه هذا. ولا شك أنه كان من أعرف الناس بالاوضاع في السودان الغربي، حيث كانت نسبة العبيد مرتفعة الى حد كبير في ذلك الوقت، ولذا نراه يأخذ بجانب المساعدة على التخفيف من تلك الآفة الاجتماعية، في جوابه للامير.

(81) ـ أي المراعي الواقعة على أطراف الشعر في تلك الجهات.

الامر الذي طلب منهم الاعانة فيه من الامور المهمة التي اضطر الناس إليه في مصالحهم بحيث لو تركها كان تركها مفسدة عليه وعليهم والثاني أن يكون اضطر لاعانتهم بحيث لو لم يعينوه لم يجد في جيشه، ولا في ما بيده من بيت المال ونحوه ما يصالح به ذلك لهم، فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان لان المقصد من ذلك ونحوه درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الإمكان في كل زمان ومكان، (82) فلكل شيء وجه، وليس الخبر كالعيان.

المسألة الثالثة:

قولكم إني دخلت هذه البلاد بعد سني علي وقد كان جمع (83) أموالا وخدّاما من وجوه شتى واستوليت على ذلك كله، ثم تركت كل مال من ادعى أنه حرّ مسلم فخرج منهم شيء كثير، ثم بعد ذلك سألت عن أحوال بعضهم وعن بلادهم، فإذا هم يشهدون ويقولون لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتقدون مع ذلك أن هناك من ينفعهم ويضرهم غير الله جل وعلا، ولهم أصنام ويقولون الثعلب قال كذا، وسيكون كذا، وان كان كذا فسيكون كذا، ويعـظمـون بعض الأشجـار ويذبحون لها ولهم بيوت معظمة عليهم لا يولون سلطانا ولا يقطعون أمرا صغيرا ولا كبيرا الا بأمر سدنة بيوتهم المعظمة عندهم، فزجرتهم عن ذلك كله فأبوا الا بالسيف، فهل هذا يكفرهم ويحل قتلهم وأخذ أموالهم إن أصرّوا عليه، مع أنهم يقولون بألسنتهم، لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسني علي قط ما طلب منهم اسلاما ولا غيره، وإنما يأخذهم كما يأخذ المسلمون، (84) وأنا اليوم بينت لهم أن يتركوا ما هم عليه، فان لم يتركوا فما الذي أفعل بهم؟

---

(82) - هكذا يظهر المغيلي ضد أي عمل من أعمال السحرة، التي كانت كثيرا ما تسكلها بعض الحكومات مع رعاياها من باب التعسف، ويلح على أن ذلك جائز فقط في الحالات التي لا يكون فيها قيام الناس بمساعدة الحكومة، يكتسي أي طابع من الاستغلال. ويلح على الامير، بأن أي عمل يدعو الناس لمساعدته عليه، يجب أن يستهدف منه المصلحة العامة فقط، والمغيلي في هذا يسير على اعتبار الحاكم مرشدا وموجها للناس، وليس سيدهم الطاغي عليهم، وقد سارت الامور بهذا الشكل في أيام الخلفاء الراشدين، ثم اختفت من واقع المسلمين بعـد ذلك، ولم يعد لها من وجود حسب هذا الاعتبار الا في أحوال محدودة، وهذا ما يتفق الباحثون في تاريخ المسلمين على أنه من أبرز العوامل التي ساهمت في اضعافهم. أما في السودان الغربي، فقد كانت الامور تسير على غرار ما كان في بقية العالم الاسلامي، خلال القرن السادس عشر، ومن هنا نستنتج أن المغيلي ربما كان من بين أولئك العلماء الناقمين على أوضاع الحكام في البلاد الاسلامية على أيامه.

(83) - نهاية الوجه الاول من الورقة الثامنة في (أ).

(84) من هذا يتبين القاريء جانبا من الكيفية التي كان عليها اسلام الكثيرين على ايام الأسقيا محمد، وليس هناك من شك، في ان اسباب التباعد عن الاسلام في بعض التصرفات انما تعود الى بقاء العادات ←

الجواب والله الموفق للصواب أن الملك كله للّه والحكم للّه من قبل ومن بعد، فاشكر نعمة الله عليك، واتقه فيما ولاك وقلدك من أمور، وأعلم أن سني علي حمّل عليه حمله (85) على عنقه واكتسب في حمله حتى انقضى أجله فترك ذلك الحمل بينكم فحملته أنت، فاكتسب لنفسك في حمله ما ترجى لك بركته، وتحمد لك عاقبته في الدنيا والآخرة، ولا تقل في باطل قدرت اليوم على إزالته هذا لا يلزمني لاني ما فعلته، انما فعله غيري، فكل ما فعله غيرك ثم صار اليك، ان كان خيرا فأثبته، وان كان شرا فأزله، ولو طال زمانه، لأن الملك للّه والحكم للّه، وأنت عبد الله، واجب عليك أن تصلح كل ما وصل إليك، ولأجل هذا كان فعلك في إطلاق من ادّعى انه حرّ مسلم صوابا وكذلك كل ما تعيّن لمسلم معيّن واجب عليك ردّه، وأما أموال اختلطت وجهل أربابها فهي فيء لبيت المال فاصرفها فيما أراك الله من المصالح ومن ادّعى أن سني علي أخذ له مائة مثقال مثلا، وأثبت ذلك ببيّنة عادلة فليس عليك أن تعطيه ذلك من الاموال التي ترك سني علي لأن مال هذا المدّعي لم يعرف بعينه، وقد غرق فيما على غريمه من الاموال التي لا تحصى فتعذرت المحاصصة التي يعلم بها ما (86) يستحقه بين الغرماء فصار الكل لبيت المال، وأما القوم الذين وصفت أحوالهم فهم مشركون بلا شك، لان التكفير في ظاهر الحكم يكون بأقل من ذلك، كما بيّناه في السؤال الذي قبل هذا، فلا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضل من الكفار الذين لا يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، (87) لان هؤلاء الذين وصفت لبّسوا الحق الباطل، بحيث يضل بهم كثير من جهلة المسلمين حتى يكفر وهو لا يشعر، فهم أولى

القديمة التي ظل السكان يحافظون عليها لا بسبب تفريطهم في قضية الانسجام مع الاسلام ولكن لقلة توفرهم على ما يمكنهم من التعمق في فهمه. ومن العجيب هنا عدم ادراك الملك لهذا الفارق، وكانت الوضعية لدى المغاربة في البداية على هذه الشاكلة، ثم لما كان عهد عمر بن عبد العزيز ارسل جمعا من الفقهاء ليعيشوا وسط المغاربة ويعلموهم الدين وقد حسن اسلام المغاربة بفضل توفر المدرسين والفقهاء بينهم بالتدريج وبقيت الاطراف في حاجة الى ذلك، ومن المعروف ان يحي بن ابراهيم امير (لمتة)، قد جلب معه عبد الله بن ياسين لتعليم الناس أمور دينهم، وقد كان في القرن الحادي عشر للميلاد، هذا بالرغم من أن الناس كانوا قد أسلموا قبل ذلك بأكثر من قرنين. والمرابطون كانوا على حدود المغرب الجنوبية الغربية، أما السودانيون فهم ابعد من ذلك، ولذا ظل في اسلامهم حتى القرن السادس عشر كثير من أوجه السذاجة واختلاط العادات القديمة بالديانة الجديدة.

(85) نهاية الورقة الثامنة في (ب).

(86) نهاية الورقة الثامنة في (أ). الوجه الثاني.

(87) مسألة الضرب على ايدي المنحرفين، اقرتها الشريعة الاسلامية، وجرى بها العمل وقد قال الامام مالك، بجواز قتل الثلث لاصلاح الثلثين، والمغيلي يستند الى هذه الحقيقة في الشريعة الاسلامية ليحث الامير اسقيا محمد، على وجوب محاربة البدع والخرافات والاباطيل في المجتمع على ايامه. ورغم ان الامير لم يذكر في سؤاله انه حاول العمل على اصلاح الناس بغير السيف، الا ان المغيلي، يقره على ذلك. والمسألة كما تبدو كانت تحتاج الى عمل ودرس وشرح، أكثر مما كانت في حاجة الى القوة، ما دام الناس ←

بالجهاد من الكفار الذين لا يقتدي بهم مسلم، فجاهدهم بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم ونهب أموالهم على ما قدمناه في جواب السؤال الذي قبل هذا، فان صمّموا على شركهم فحرق سدنة بيوتهم لكفرهم (88) وآلهتهم بالنار، كما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه ببعض أهل الرّدة عن اعطاء الزكاة، فحرقهم بعد أن أمره بحرقهم أمير المؤمنين أبو بكر رضي الله عنه، (89) وكل من تركته منهم لزعمه أنه حر مسلم ثم تبين لك أنه كافر فارده للرق وخذ ماله الا اذا تاب وحسن اسلامه، فاتركه كما فعلت أول مرة، ومن ترك شيئا للّه عوضه الله خيرا منه ولله خزائن السموات، والارض، ولكن المنافقين لا يفقهون.

المسألة الرابعة:

قولكم اذا كان فيه المسلمون وسلطانهم ظالم أو كبيرهم يأخذ أموالهم ظلما وعدوانا، فهل لي أن أرد عنه ذلك الظلم، ولو أدى ذلك الى قتل (90) الظالم، أم لا؟ وكذلك ان كان السلطان يأخذ المكس ولا يردع المفسدين، هل لي أن أمنعه

المعنيون، كانوا يقرون بالاسلام، وينطقون بالشهادتين. ومن الثابت ان الاسلام كان قد وصل الى السودان الغربي واستقر به بواسطة الدعاة من التجار، وكان هؤلاء من القلة سواء في العدد او في الاشتغال بتعليم الناس، بحيث لم تسفر جهودهم على تمكين السودانيين حتى ذلك الوقت من التعمق في فهم الاسلام. وهذه الوضعية هي التي وجد الاسقيا الناس عليها، ولكنه عرضها على المغيلي وكأنها قد استعصت على الحل دون استعمال القوة، وهذا ما جعل المغيلي يفهم المسألة في الحدود التي شرحها له الملك، لان هذا الاخير لم يتعرض لذكر الاسباب التي كانت تلك الوضعية نتيجة حتمية لها.

(88) في نسخة (أ) يكفرهم.

(89) لا ندري بالضبط وقوع مثل هذا من ابي بكر، ولكننا نعرف ان ابا بكر كان قد رفض بشدة التساهل مع المرتدين لما فاتحه في ذلك بعض الصحابة، كما نعرف ان خالد بن الوليد، اجبر المرتدين على التراجع عن موقفهم بالقوة. وقد كان من اسباب الردة لدى معظم القبائل، عدم تمكن افرادها من فهم الاسلام ونظامه، وكان بعضهم يعتبر ان خضوعه للدولة الاسلامية ونظامها مرتبط بشخص الرسول، صلى الله عليه وسلم وسينتهي ذلك بوفاته، وقد كان من بين افراد هذا الفريق الشاعر الحطيئة، وقد عبر عن وجهة نظرهم، بقوله

اطعنا رسول الله اذا كان بيننا ... فيا لعباد الله ما بال ابي بكر؟!
ايورثها بكرا اذا مات بعده ... وتلك لعمر الله، قاصمة الظهر!

ولعل ما ذهب اليه المغيلي، في هذا الشأن مبعثه بالدرجة الاولى، ما عرف عنه من تحمس واندفاع، في الاصلاح، لان المغيلي كان في زمانه معروفا بين العلماء والمفكرين بحرصه الشديد واندفاعه، وسعيه الحثيث في سبيل اصلاح حال المسلمين بمختلف الوسائل.

(90) في (أ) ولو ادعى الى دالي قتل الظالم... الخ.

بالقتال والقتل أم لا؟ وهل ان كان في بلاد المسلمين سلاطين أو كبراء، كلهم أو جلهم يظلمون ويفسدون ولا يصلحون ولا يردعون المحاربين ونحوهم، فيطلب مني بعضهم أن نعينه على الاصلاح وقطع الفساد عن المسلمين، فهل يجوز لي أن نعينه أم لا؟ وهل الجهاد في هؤلاء الكفار الذين هم بقربنا ولكن لا يغزون بلدا من بلاد المسلمين، ولا مضرة منهم عليهم أم الجهاد في هؤلاء الكفار أفضل، وهم جهال لا يعرفون خالقهم جل وعلا؟ (91) وأيضا بعض المسلمين في شرقنا وغربنا سمعوا بي وطلبوا أن يدخلوا تحت طاعتي، فهل لي أن أجيبهم الى ذلك أو نقف على حكم بلادنا التي أورثنا الله عن سني علي؟ (92) وأيضا السلطان الظالم الذي يظلم الناس، وأينما لقي بضائع المسلمين يأخذها وإذا مات رجل غريب أو غير غريب في بلاده يأخذ ماله ويتاماه حاضرون (93) أو غائبون، ويتعرّض للقوافل الواردة عن بلده وينزلهم ويفتش حمولهم، (94) ويُقوّم ما فيها ويأخذ الذي زعم أنه زكاة، (95) ثم لا يعطي لمستحق الزكاة شيئا، فإذا قيل له هذا الذي تعمل حرام قال: حاشاني من الحرام مأكل، (96) ما نعمل (97)، حلال، أنا أعلم منكم، ومن دأبه أن يلبس الحق بالباطل، وله فقهاء اتخذهم لذلك فكلما أراد أن يعمل شيئا من غرضه أحضرهم وقال لهم: أليس هذا حلالا؟ (98) فيقولون: بلى، لك ذلك، فيوافقونه على غرضه في تلك الامور ويستتر بهم من الطعن عليه بالظلم والجور، فهل مثل هذا السلطان ظالم أو كافر لاجل تحليله ما حرّم الله،

---

(91) نهاية الورقة التاسعة في (ب)

(92) احدث صعود محمد الاول عرش سنغاي، صدى طيبا في جميع الاوساط بالسودان الغربي آنذاك، ويذهب بعض الباحثين الحديثين ان ذلك، ربما جاء من كونه سودانيا بالاصالة في حين ان عائلة سني، ترجع الى اصول امازيغية، لانها كانت قدمت من منطقة طرابلس في ازمنة سابقة، ولكن هذا التعليل، لا يبدو عليه الوجاهة، لان آل سني يتفرعون عن آل ضياء، وكانت عائلتهم قد امتزجت في السكان منذ القديم، ولم تعد لها أية ميزة أجنبية.

ومهما يكن، فانه مما لاشك فيه ان الناس انسوا خيرا في الاسقيا محمد، وكان هذا قد اشتهر بينهم بالورع، واستطاع ان يجلب الى جانبه طبقة العلماء، وهم اكثر اتصال بالعامة، ولهم تأثير عليها، كما بذل جهدا كبيرا في سبيل الخروج بالمملكة من طور القبيلة الى الطور الوطني، الذي يشعر فيه الجميع بانتسابهم، على قدم المساواة، الى وطن واحد، وهذا مما جعل القلوب تهفو الى حكمه.

(93) نهاية الوجه الاول من الورقة العاشرة في (أ).

(94) بصيغة جمع الذكور في كلا النسختين.

(95) منذ ايام مملكة غانا ذكر البكري سير الأمراء على تنظيم الجباية على القوافل الواردة والآيبة وقد استمر الوضع كذلك خلال عهد مالي، ثم ورثت جميع الممالك في السودان الغربي تلك الطريقة، وظلت تعتمد عليها في تمويل الخزينة.

(96) في النسختين هكذا ولعلها بالفتح.

(97) الاصواب ان تكون ما نعلمه.

(98) وردت هكذا في النسختين أ وب.

وكذلك أولئك الفقهاء؟ وهل يجب تأديبهم بالضرب الوجيع والسجن الطويل أو يقتلون وتنهب أمـوالهم؟ وما الحكم في عمّاله الذين يقوّمون له سلع المسلمين، ويأخذون منها؟ وما الحكم في رجل يشتري منه ما يأخذ بالغصب ونحوه من أموال اليتامى وغيره، حتى كثر ذلك منه بحيث لا نعلم ماله الأصلي (99) بما اشتراه من أموال الناس، فهل يصير جميع ما بيده لبيت المال؟ فان قلتم يصير فان أثبت عليه رجل أنه اشترى من ماله المغصوب شيئا معلوما قدره ولم يوجد بعينه، فهل يعطي قيمته من ذلك المال أم لا؟

فالجواب والله الموفق للصواب أن الأرض كلها لله يورثها من يشاءمن عباده والعاقبة للمتقين والتقوى مخالفة الهوى، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ثم اعلم أن البلاد ثلاثة: الاول بلاد سائبة ليس لهم أمير، بل مهملون (100) فهؤلاء أجبهم الى مبايعتك والدخول تحت طاعتك، فان أبوا ذلـك فاجبرهم عليه ما استطعت، لانه لا يحل لطائفة من المسلمين أن يكونوا هملا، قال الله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا)، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيام ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية)(101) فجاهرهم بالسيف، حتى يدخلوا كلهم تحت طاعتك، على طاعـة الله ورسـولـه، وذلك من أفضل الجهاد وأهمه، الثاني بلاد لهم أمير يرعاهم في مصالح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان في هذا الزمان، وهؤلاء، لا يحل لاحد منهم أن ينزع يدا من طاعته، ولا يحل لاحد أن ينازعه في رعيته، (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)، وفي صحيح مسلم عن ابن سعيد (102) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا بويع الخليفتان (103) فاقتلوا الاخير

---

(99) لعل الاصوب أن يكون (مما اشتراه).

(100) اي ان اهلها مهملون، بحيث لا امير لهم.

(101) من هنـا يثبت ان الاسـلام يعتبر البلاد التي لا حكومة لها، بلادا لا تزال دون درجة التحضر المطلوبة، ولاشك ان تطرق المغيلي لهذه القضية بالرغم من عدم تعرض الامير اسقيا في اسئلته لها، يدل على الاطلاع الذي كان عليه المغيلي بأمور افريقيا جنوب الصحراء، وكان بتلك البلاد كثير من القبائل التي تعيش في وضعية فردية، ولم يصل افرادها الى درجة الوضعيات الجماعية بعد. ومن هنا تعرض المغيلي لهذه القضية والفت انتبـاه الاسقيا، الى محاولة القضاء عليها، ليدخل الناس في مرحلة العيش الجماعي، الذي يضعهم على عتبة التحضر ويركز في صفوفهم اعمدة الانتظام والنظام.

(102) نهاية الوجه الثاني من الورقة العاشرة في (أ).

(103) في (أ) الخليفتان.

منهما، لا خير فيه)، (104) الثالث بلاد لهم أمير من هؤلاء الامراء الذين وصفت، يأخذ المكس بالظلم وبالفساد وعدم الاصلاح فان استطعت أن تزيل ظلمه عن المسلمين من غير مضرة عليهم (105) حتى تقيم أميرا عادلا فافعل، وان أدّى ذلك الى القتل وقتل كثير من أعوانك، لان من قتل منهم شر قتيل، ومن قتل منكم خير شهيد، قال الله تعالى: (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويقتلون)، ومن سبيل الله دفع الظلم عن المسلمين وتغيير المنكر، والدفع عن المسلمين من أفضل الجهاد بل جهاد هؤلاء آكد من الجهاد في أولئك الكفار الذين وصفت، وان لم تستطع أن تزيل ظلمه عن المسلمين الا بمضرّة عليهم، فقد تعارض هنا ضرران، فاحذر تغيير منكر بمنكر مثله، أو أعظم منه، فتثبّت ههنا وارتكب أخف الضررين، لان ارتكاب أخف الضررين قاعدة مشهورة وسنة مأثورة، وليس من المنكر قتل الظلمة والمفسدين وأعوانهم، ولو كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجّون، فقاتلوهم ولو قتلوا منكم كثيرا وقتلتم منهم كثيرا، واذا كان قتالكم لنصر الحقّ على الباطل ونصر المظلوم على الظالم، فافهم ذلك فان علماءالسوء يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله بالجهل والهوى، فان كان بلد من بلاد المسلمين فيه سلاطين كثيرة أو كبراء كما وصفت، وزعم بعضهم أنه يقيم العدل أو يزيل الظلم إن أعنته عليهم، فانظر في حقيقة قوله وبرهانه وزعمه، فان لكل قول حقيقة ولكل حقيقة برهانا (106)، ولسان الحال أنطق أي أصدق من لسان المقال فلا يغتر بحسن الاقوال مع سوء الاحوال الا الاغبياء من الرجال والاطفال فانظر في حال هذا الذي يطلب منك الاعانة فان وثقت بزعمه وأنه إذا قويته وفّى بوعده وعهده فقوّه على ما فيه منفعة للمسلمين حسبما بيّنت لك، وان لم تثق به فيما زعم، فلا تعنه واعمل لنفسك ما ينبغي لك، ودع الظالمين كلهم، فقد ينتقم

---

(104) عندما قتل الخليفة عثمان بن عفان، بايع الناس في المدينة على بن ابي طالب (ض)، ثم مالبث ان نازعه معاوية بن أبي سفيان على الخلافة، ولكن معاوية تجنبا لذهاب الناس هذا المذهب، لم يعلن نفسه خليفة اول الامر، رغم ان هدفه الاخير كان منصب الخلافة، لكنه تشبث بقضية المطالبة بدم عثمان، واتهم هو واتباعه علي بن ابي طالب بالتحريض على قتله.

ويظهر أن المغيلي لم يكن يشير الى هذا، بقدر ما كان يشرح للأمير أسقيا محمد حقيقة مقاتلة الامراء الظالمين، من قبل الامراء الذين يريدون ان يوقفوا ظلمهم على الناس، وهو في سبيل الوصول الى مثل هذا الهدف، يجيز تقاتل المسلمين، حتى يصفو الجو ويرجع الظالمون عن غيهم، ومن هنا يمكن معرفة مقومات شخصية المغيلي، وطريقته التي تتلخص في النشاط الدائب والعمل الدائم لقطع دابر المفسدين، وذلك شأن كل المصلحين في التاريخ الاسلامي العام.

(105) نهاية الورقة العاشرة في (ب).

(106) في النسختين (برهان).

الله من الظالم بالظالم، ثم ينتقم من كليهما، (107) وأما ما سألتني عنه من التكفير فقد تقدم بيان ما يكون به التكفير، فمن ثبت عليه بأنه حلل المكس ونحوه من أكل أموال الناس بالباطل، وجب الحكم بكفره وكذلك من أنكر الحق المبين ولبسه بالباطل، وأما علماء (108) السوء وصفتهم باعانة ذلك الظالم، فهم أشر منه جريمة، وعليهم من العقوبة ما يردع أمثالهم، بحسب اجتهاد الحاكم، وكذلك يعاقب كل من كان من عمّاله في تقويم السّلع وغيره، وأما من اشترى من الغاصب عالما بغصبه، فهو كالغاصب، فان كثر ذلك منه حتى استغرق ماله، كانت لبيت المال، ولا يعطي المدعى عليه قيمة شيئه الذي غرق في ذلك المال الا إذا عرف ما يستحقه منه بين أرباب الحقوق.

المسألة الخامسة:

قولكم، وقد جعل الله هذه البلاد تحت يدي برها وبحرها ولم يعرفوا قبلي الا الظلم والاهمال ولم يسمعوا قط من يناديهم لله ورسوله فأجاب من أجاب بخوف السيف ولله الحمد، وله مزارع كثيرة وبحر واسع خيره، فهل لي أن أعمل خراجا (109) على أرضهم أم لا؟ وقد كان سني علي عمل عليهم ظلما كثيرا من خراج وغيره، وأيضا هل يجوز لي أن أنصب عالما أمينا يجمع زكاة النعم والحرث ويفرقها لمستحقها (110) من الاصناف الثمانية باجتهاده أم لا؟ وإن جاز لي نصبه، فهل لي أن أعاقب من أبى أن يؤديها؟ وان جازت عقوبته، فما هي؟ وهل تجوز شهادة السّلطان الذي لا يمكس ولا حفظ عليه ظلم في هذا الزمان أم لا

(107) رغم هذا كله، فانه لم يتناه الينا من اخبار الاسقيا محمد في حروبه الكثيرة، أنه كان يغزو لرد الأذى على الناس، بل ان ما نعرفه عنه انه حارب مرة واحدة حسب تقاليد الاسلام، وذلك بعد رجوعه من الحج مباشرة، اما في غير ذلك، فقد كانت حروبه كلها جريا وراء التوسع، واخضاع العديد من القبائل الى نفوذه، ولما حارب ملك الكبي مثلا (في شمال نيجيريا الحالية)، كان ذلك بدافع من التوسع، ولما تغلب على فرسان ملك الكبي، تزوج احدى بناته. وترك بالبلاد جماعة من موظفيه ليحصوا له الضرائب المفروضة على مملكة الكبي ويطلعوا في عين المكان على مداخيلها نوعا وكمية.

(108) نهاية الصفحة الاولى من الورقة الثانية عشرة في (أ).

(109) ـ نهاية الورقة الحادية عشرة في (ب).

(110) ـ كذا وردت بالافراد في النسختين (أ) و (ب)، ولعل الاحسن أن تكون (لمستحقيها).

تجوز شهادته ولا شهادة أحد من دائرته وأعوانه وان عرفوا بالخير والصدق وعدم الظلم وحمية الجاهلية (111)

الجواب والله الموفق للصواب أن للامام العادل أن ينصب عاملا أو عمّالا لجمع زكاة الحرث والماشية وصرفها في مصارفها التي ذكر الله تعالى من الاصناف الثمانية باجتهاده على ما يراه الاصلح بعد استشارة أهل المعرفة والامانة، ، وليس له أن ينقل زكاة بلد الى غيره الا على وجه النظر بالاصلح فيفرق في أهل بلدها ما اصطرّوا إليه، وينقل لغيرهم ما اضطروا إليه، وأهل البلاد الذين (112) وجبت الزكاة فيه أحق من غيرهم الا لموجب بيّن، فان استقرّ أمرك وثبت ملكك على العدل، فافعل ذلك، فان من ترك الحرام واستغنى بالحلال أغناه الله تعالى، وان كان أمرك الى الان ما يستقر، ولا ثبت على العدل، فاصبر عن ذلك لأنك في هذا الذي استقبلته وشرعت فيه غريب في هذا الزمان، (113) والله يوفقك ويعينك، وواجب على الناس دفع زكاتهم للامام العادل وعمّاله عليها ان عدل في صرفها بأن يصرفها بالتقوى لا بالهوى في المصارف (114) التي ذكرها الله أو بعضها، ومن أبى أن يدفعها طوعا أخذها الامام منه كرها وان نصب القتال دونها قوتل عليها، وان مات أو قتل أخذت من ماله، وذلك لا خلاف فيه بين العلماء، وعقوبة من أبى أو صمّم على منعهـا بما يراه الامام ردعا لمثله من ضرب أو حبس أو غيره (115)، وإذا كان الامام ينظر للمسلمين بالتقوى لا بالهوى واضطرّ لدرء مفسدة أو جلب مصلحة بأمر لا يخالف الشريعة فليفعله، لان المطلوب من الامام ونحوه

---

(111) ـ المراد بالسلطان هنا (كبير القوم)، والوضعية التي كانت عليها جهات السودان في تلك الفترة، ان كل منطقة وكل قبيلة، كان لها كبيرهم في هيئة (سلطان)، ونفوذه على الناس قد يأتي منذ البداية، إما من كثرة المال لديه أكثـر من غيره، واما من كثرة الانصار، وقد يأتي ذلك أيضا من توفره على رجاحة العقل والرزانة، وحينما يتحـدث مؤرخـو السودان من تلك الفترة، أمثال السعدي وكعت، على الغزوات والحملات التي كان يجردها الاسيقيون لمختلف الجهات، يتحدثون عن أولئك (الكبار) وكأنهم سلاطين، في حين أنهم في الحقيقة، لم يكونوا غير رؤساء قبائل، وحينما يتغلب عليهم جيش سنغاي، فان للامير أن يتصرف في أفراد القبيلة وفي ممتلكاتهم، كما يشاء وفي غالب الأحيان، كان يسترق منهم، حسب حاجته، ويعطي منهم لضباط جيشه، كما يتبرع بقسم منهم على القضاة والفقهاء، أما أموالهم فتنهب، وما يبقى بأيديهم منها، لا يبقى لهم فيه الا حق الخدمة والرعاية، لصالح الامير الغالب.

(112) ـ كذا في النسختين، ولعل الصواب (الذي).

(113) ـ كان المغيلي، قد نقم على الحكام في تلمسان حكمهم بغير العدل وتخاذلهم في تقويم الرعية والعدل بين أفرادها، واتخاذهم من اليهود أصدقاء، ولهذا غادر المنطقة الى توات، وكان يرى في كثير من البلدان الاسلامية فساد حكامها وانحرافهم عن الصواب، ومن هنا اعتبر الاسقيا محمد الاول غريبا في زمانه لانه كان يحاول السير وفق تعاليم الاسلام.

(114) ـ نهاية الورقة الثانية عشرة في (أ).

(115) ـ يقر المغيلي للحاكم حق ردع المخالفين، غير أنه يقيد ذلك بمراعاة المصلحة العامة، بحيث يراعي

درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الامكان في كل زمان ومكان فلكل شيء وجه وليس الخبر كالعيان ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه : (تحدث للناس أقضيّة بقدر ما أحدثوا من الفجور)، واذا علمت ذلك ينبغي لك أن تجعل للخـراج على تلك البلاد بما فيه مصلحة المسلمين وعمارة تلك الأرض من غير تضييق، ولا يحل لك أن تجعل ذلك على المناصد العامة التي فيها الارتفاق العام كالمياه والمراعي والطرقات والمنازل المباحة، فان الله لم يجعل ذلك للسلطان ولا غيره ولو كانت البلاد فتحت عنوة، فاترك ذلك كله ومن ترك شيئا للّه عوّضه خيرا منه، وما عند الله خير وأبقى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللّهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم، فارفق به)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المسلمون شركاء في ثلاثة في الكلا والماء والنّار)، فاحذر أيها الأمير أن (116) يضلك بعض علماء السّوء بتزيين الطمع حتى تنسى الورع، (117) فان ملاك الدّين الورع، وفساد الدّين والدنيا الطّمع، والورع أن تترك مالا بأس به، خوفا من الوقوع فيما به بأس، فعليك به في جميع الأمور، وللّه خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون. وأما السلطان الذي لا يمكس، ولا حفظ عليه ظلم في هذا الزمان، فشهادته مقبولة في منـافعه الدنيوية وكذا الاكل (118) من عرف الخير والصدق وعدم الظلم والحمية من أعوانه ودائرته.

الامير في العقاب الذي ينزله بشخص ما، أن يكون عبرة لغيره ويؤدي بغيره الى الارتداع والابتعاد عن المخالفة والانحراف. وهذا خلافا لما كان ميكيافيلي قد نصح الامير، اذ أن رأيه هو أن الامير يجب أن يسلك طريقة لا يبالي فيهـا بغـير النتـائج، وبذلك يعطي له الحق في الزجر المطلق أو الخداع والرياء، وما اليها من أنواع الغطرسة والسياسات الملتوية.

ولا شك أن الخلاف بين وجهة نظر الرجلين، يعود الى أن المغيلي يتقيد في آرائه بالاسلام في حين أن ميكيافيلي، لا يتقيد في آرائه بأي داع أخلاقي أو ديني.

(116) ـ نهاية الورقة الثانية عشرة في (ب).

(117) ـ ينطلق المغيلي هنا من القاعدة العامة في الإسلام، وهي أن الحاكم مرشد وموجه، قبل أن يكون جابيا. ويري في الجباية أن تفرض وتحصل من الممتلكات الخاصة التي وجب عليها الدفع حسب قواعد الضرائب في الاسلام، أما المرافق العامة التي لا تعود ملكيتها لاحد، في حين يستفيد منها الجميع، فانه لاغرامة عليها. ويستفاد من أقواله ضمنيا، أن الامراء في البلدان الاسلامية على أيامه كانوا كثيرا ما يجبون الضرائب بصورة تخالف الواقع المنصوص عليه في الشريعة الاسلامية، وهذا ما كان يلحق بالعامة المشقة وأنواع الصعاب، كما يذكر أن أولئك الامراء يجدون في كثير من الاحيان علماء سوء يزينون لهم أعمالهم وقد يفتون بشرعيتها رغم مخالفتها للاسلام وللمصلحة العامة للمسلمين.

ولا شك أن هذا هام تاريخيا، لانه يفسر بعض وجوه الفساد في الحكومات الاسلامية آنذاك، وهي التي ترتب عليها كثير من النتائج السيئة، التي ساهمت في دفع المسلمين نحو التقهقر مع بداية العصور الحديثة، حيث عاش المغيلي وشاهد بالعيان حيثيات ذلك الواقع المرير.

(118) ـ كذا في النسختين ولعل صواب العبارة (وكذا كل من عرف بالخير والصدق.. (الخ).

المسألة السادسة :

في أناس لا يتوارثون على الكتاب والسنة، وانما يأخذ مال الميت ابن أخته مثلا، وكانوا على هذه الحالة من قديم (119) حتى وجدنا بأيديهم أموالا كثيرة، فهل هذه الاموال لبيت المال أو تترك بأيديهم ويجبرون على التوارث فيه وفي غيره على شريعة الاسلام، ولا يتعرض لهم على ذلك أصلا، وبعض الناس يقرون أن الميراث (120) كما فرض الله تعالى، ولكن اذا كان في الورثة كبير استولى على جميع التركة وقال هذا مال اخواني وأنا بمنزلة أبيهم اليوم فيعطي الزوجة ونحوها نصيبها ويستولي على الباقي، يتصرف فيه كيف شاء من غير ايماء ولا تقديم ولا رضى أحد منهم ولا يتعرض له أحد في ذلك مدة حياته حتى اذا مات استولى على تركته الاقوى أيضا وبعضهم لا يورث الزوجة ولا غيرها من النساء، وبعضهم فيهم عبيد لا يباعون ولا يوهبون، انما يقولون عبيد السلطنة لمن يرثها عن الميّت كابن الاخت مثلا، وأما غير هؤلاء العبيد ونحوهم من تركة ميتهم فهو على حالهم في تركاتهم يأخذها من بعده ملكا بطريق الشريعة أو طريق عوائد الجاهلية فهل أموالهم كلها لبيت المال أم لا؟

وأيضا جوابكم في أناس مسلمين طردهم العدوّ عن بلادهم ودخلوا بلاد قوم آخرين، وسكنوا عندهم فرجع العدو الذين (121) طردهم وبقيت تلك البلاد خالية، ثم لم يرجع لها أهلها، فأخذ بعض الناس يزرعون في مزارعها وأهلها يقولون لا تزرعوا، ولا تزرعوا (122) في أرضنا الا بالكراء، فقالوا لهم الارض لله وقد خرجتم منها وتركتموها معطلة، فلا نعطيهم شيئا فيها، وكلهم الان تحت يد سلطان واحد لا يظلم أحدا منهم، فهل لهم أن يمنعوا منها أحدا أم لا؟ وأيضا جوابكم في المحاربين من فلان (123) وغيرهم معهم أناس من مسوفة

(119) ـ يقرر الباحثون أن البشرية كانت في أطوار سابقة تعتبر قضايا الارث والاستخلاف مرتبطة بالام، لان الام هي ربة المنزل، وهي التي يعود اليها جميع الافراد في العائلة، وقد كان ذلك أكثر وضوحا لما كانت البشرية تمر بأطوار لم ينتظم فيها الزواج، فقد يكون للام عدد من الازواج في آن واحد، وفي مثل هذه الحالة، فان الام وحدها هي التي تمثل الاصالة في انحدار جميع أفراد العائلة من نسلها.
ومهما يكن، فان مجتمع غرب افريقيا، كان قبل الاسلام في طور ارتباط الارث بالام، وبعد الاسلام ظلت كثير من العادات السابقة متبعة لدى القبائل، وهو ما يشير اليه الاسقيا محمد هنا.

(120) ـ نهاية الصفحة الاولى من الورقة الرابعة عشر في (أ).

(121) ـ كذا في النسختين (أ) (ب).

(122) ـ في (أ) ولا نزعوا.

(123) ـ قبائل سودانية مواطنها الاصلية في السنغال الحالي وجنوب موريطانيا وقد بدأوا في الانتشار في كل بلدان السودان الغربي ـ منذ القرن الحادي عشر وتوجد منهم اليوم جماعات في كل تلك المناطق.

(124) وغيرهم يزعمون أنهم مسلمون، وهم ساكنون معهم ملازمون لهم في الرحيل والنزول ويخالطونهم في كل شيء من أحوالهم وأموالهم وأمورهم وخيلهم، مع خيلهم يغزون معهم ويحاربون معهم، هذا هو غالب أحوالهم ومنهم من كان معهم ولا يحارب معهم ، وجيء بهم إلينا فقالوا : ما نقدر على الخروج عنهم مخافة (125) أن يأخذونا، وان خرجنا، يأخذنا غيرهم، لأنا مساكين لا نقدر الدفع عن أنفسنا (126)، فرددنا إليهم أموالهم، وقلنا لهم افترقوا منهم، فهل نترك غزو المحاربين لئلا نضرّ أولائك المسلمين الذين هم معهم، وأبوا أن يفارقوهم، أو لا بد من غزوهم وان كانت المضرة تلحق من معهم من المسلمين المذكورين فقد شوشني في ذلك بعض فقهاء بلدنا حتى توقفت عنهم.(127) الجواب والله الموفق للصواب (128) أما القوم الذين من شأنهم لا يتوارثون على الكتاب والسّنة انما يرث منهم الخال وابن الاخت وابن الخال فان رأوا أن ذلك حلالا وجحدوا شرائع ميراث الاسلام، فهم كفار، وان لم يجحدوا الميراث وأقروا أنهم عصاة فليؤمروا بالتوبة والرجوع (129) الى فرائض الله في الميراث فيما يستقبل، فان أبوا فللسلطان أن يأخذ أموالهم كلها، وان تابوا فأرى أن يترك لهم منها ما ثبت أنهم اكتسبوه من الحلال، وأن يقسّم معهم ما سواه فيأخذ النصف ويترك النصف وأما الذين يستولى منهم الكبير على التركة ويقول هذا مال اخواني وأنا كأبيهم نحفظ لهم ونربيهم (130) فليؤمروا بالتوبة ويأخذ السلطان حقوق ضعفائهم (131) فيقوم كل بحقه، والسلطان ينصفه عن غريمه وأما الذين لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء فهم كالفريض الأول على ذلك التفصيل . وأما العبيد المذكورون

---

(124) ـ سكان المشارف الصحراوية الجنوبية بين توات وتمبكتو، وكانوا هم الذين يعملون في ممالح تغزة، ويسكن قسم منهم حولها، وقد اتخذوا من أحجار الملح مادة لبناء أكواخهم حول مكان العمل، كما ذكر ذلك ابن بطوطة في رحلته.

(125) ـ في (أ) فخاف.

(126) ـ من هذا يتبين الشكل الاقطاعي لمجتمع غرب افريقيا في القرن السادس عشر، والواقع ان الاقطاع كان يسود الانظمة كلها في العالم آنذاك، ولكن اختلفت تقاليده باختلاف المناطق، ففي حين كان في أوروبا مثلا يبدو في شكل سياسي واقتصادي، نجده في افريقيا قريبا من ذلك أيضا، ولكن التقاليد القبلية صبغته بطابع خاص، فلم يرتبط كل الارتباط بالارض، وانما ارتبط بالغلبة التي تمارس حقوقها قبيلة بجميع أفرادها، على قبيلة أخرى بجميع أفرادها أيضا.

(127) هكذا يبدو الأسقيا مدركا لان الفقهاء في بلده، لم يصل أغلبهم الى الدرجة الكافية من التمكن، ومع ذلك كان يقربهم اليه ويتظاهر في أغلب الاحيان بالانقياد لهم، وما ذلك الا لاغراض سياسية واضحة.

(128) ـ نهاية الورقة 13 في (ب).

(129) ـ نهاية الورقة 14 في (أ).

(130) ـ كذا في النسختين.

(131) ـ في (أ) صنعائهم ولعله سهو.

ونحوهم فهم كالحبس من عند الأولين أوقفوهم لاعانة السلطان منهم، فيكون كذلك ليس لامير (132) المسلمين أن يأخذهم ويجعلهم في بيت المال الا الذين ثبت أن أصلهم غصب أو نحوه وأما الذين لم يثبت ذاك فيهم، فهم حبس على من هم له في عوائدهم. وأما الذين طردهم العدو عن أرضهم فتركوا سكناها فليس لهم أن يعطوها ولا أن يأخذوا أجرة ممن يزرع في مزارعها ويرعى في مراعيها، انما لهم أن ينتفعوا بها أو يتركوها لمن ينتفع بها حتى يرجعوا إليها ان شاء الله. وأما المحاربون فلا بد من غزوهم ولا بأس عليكم فيمن أصيب بينهم من أولائك المسلمين لانهم ظلموا أنفسهم بالنزول معهم بما لم تعلموا به من أنفسهم وأموالهم حتى فسد فلا شيء عليكم فيه، وما علمتم به قبل أن يفسد فاجتنبوه وردّوه لاهله، وذلك اذا لم يسكنوا معهم اختيارا ولم يغيروا معهم ولم يعينوهم، وأما من سكن معهم اختيارا وكان يغير معهم ويعينهم على الفساد، فهذا منهم فاقتلوه وانهبوا أمواله ولا تقبلوا له توبة إذا مكنكم الله منه (133) ذكر أبو القاسم البرزلي في كتبه ما نصه: وقد ظفر السلطان بفرقة من بوادي افريقية وجلهم مستغرقو الذمة فأفتى شيخنا ابن عرفة بإباحة أموالهم بالأغلب حتى يتحقق أصل الحلال منهم، قال: لانهم عصاة بمكاثرة المحاربين وتكثير سوادهم، ولم يجعل لهم حرمة من بان بنفسه، ولم يخالطوهم وهذا إذا وجد مندوحة عنهم، والا فهو كالمكره في بلاد الحرب اذا لم يستطع الخروج من بلاده، وخاف على أهله ونفسه وماله وولده.

المسألة السابعة:

في أحوال هذه البلاد، وهي أن فيهم من يزعم أنه يعلم شيئا من الغيب بالخط الرمل ونحوه أو بأحوال النجوم أو بأخبار الجنّ أو بشيء من أصوات الطير أو حركاتها أو نحو ذلك، ومنهم من يزعم أنه يكتب لجلب (134) المصالح كسعة

---

(132) ـ في (أ) للامير.

(133) ـ كانت معظم القبائل في غرب السودان تعيش حياة متنقلة، وهذا كان يؤدي باستمرار الى اختلاطها ببعضها، ولكن تبقى متميزة على أساس أصولها والعلامات التي تميز كل قبيلة بها أفرادها، وتلك العلامات توضع على الوجه في الغالب. ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي يسجل المؤرخون كثيرا من التنقلات بين القبائل، وكان الباعث عليها الاضطرابات السياسية في السودان الغربي التي تعاظمت في تلك الفترة، ربما أكثر من ذي قبل. ومن هنا، حصل كنتيجة لكل ذلك، اختلاط في السكنى وتبادل في الممتلكات. . الخ. وهذه الظاهرة هي التي يشرح وضعيتها الاسقيا محمد للمغيلي ويجيبه هذا الاخير على الطريقة التي يرى أن يسلكها، أمام ذلك الوضع.

(134) نهاية الصفحة الاولى من الورقة 16 في (أ).

الرزق والمحبة لدرء المفاسد، كهزم الأعداء في الحرب ومنع الحديد من القطع والسّم من الضرّ ونحـو ذلـك من دعاوي السحرة وأفعالهم، ومنهم من يطفف المكيال والميزان بالزيادة، والنقصان، ومنهم من يغش الذهب والفضة بالنحاس (135) أو يأبى أن ينزق التبر من التراب (136) أو ينفخ في اللحم أو يخلط اللبن بالماء وغير ذلك من الغش، إذا اشترى السّلعة حازها وذهب بها قبل أن يدفع لربها ثمنهـا، فإذا ندم أو لم يبعهـا بربح وطلب منه (137) ربها الثمن قال له: خذ سلعتـك أو اصبر حتى نبيعها (138) ومنهم من يبيع أمة ويحوزها المشتري ولا يبـالـون بالاستـبراء، فإذا ظهر بها حمل تنازعا فيه، وذلك كثير، ومن مناكرهم اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والطرقات، وعدم احتجاب المرأة على أخي زوجها وابن عمه أو صاحبه ومن مناكرهم كشف عورات الحرائر والاماء حتى ان من عوائد أهل جني (139) أن البنت لا تستر شيئا من عورتها ما دامت بكرا ولو بلغت خمسين سنة وكانت شابة من أجمل النساء تخرج بين الناس عريانة بلا ستر أصلا، وهي بين أبيها واخوانها كذلك، حتى تتزوج، ولو كانت بنت السّلطان أو القـاضي، وتلك عادة مشهـورة مطردة بينهم (140)، فافتونا في هؤلاء القوم، آجركم الله تعالى

الجواب والله الموفق للصواب: ان كل ما ذكرتموه عن بعض أهل تلك البلاد ضلال عظيم، فواجب على أمير المسلمين، وكل من له قدرة من المؤمنين أن يغير تلك المناكر كلها، أما من يزعم أنه يعلم علم الغيب بشيء من تلك الأمور أو

---

(135) نهاية الورقة 14 في (ب).

(136) منذ ايام غانا (القرن الحادي عشر) توافرت كتابات الرحالة العرب، على ان الملوك في السودان الغربي، كانوا يصطفون لانفسهم السبائك الذهبية، ولا يتركون للناس الا تراب الذهب (التبر) للتعامل، وهم يفعلون ذلك لكي تبقى للذهب اهميته.

(137) في (أ) منها ولعله سهو.

(138) كل الرحالة العرب الذين زاروا بأنفسهم السودان الغربي مثل ابن بطوطة والحسن الوزاني (المعروف بليون الافريقي) وابن حوقل، يذكرون استقامة الناس في التعامل وبعدهم عن الغش ولذا فربما يكون ما يذكره الأسقيا محمد هنا، إما أن يكون قد جاء من تأثر السودانيين بالتجار الاجانب، أو ان ذلك كان يجري فيما بينهم، ولم يستطع الرحالة العرب معرفته عنهم، وهو ما نميل الى القول به.

(139) في النسختين (جـ ن).

(140) قضية العري، كانت تقليدا عاما في غرب السودان قبل مجيء الاسلام، اما بعد اعتناق الناس للاسلام، فقد بدأت تختفي تدريجيا، وأصبح العري علامة على الجهل وعدم الدخول في الاسلام، غير أن هذا انطبق على الاحرار قبل العبيد، ثم اختفت ظاهرة العري بين الاحرار الذكور وظلت حتى نهاية القرن الخامس عشر موجودة لدى الإماء ولا نعتقد ان ذلك مرده إلى عدم اعتقاد المجتمع بأن العري لدى الإماء مقبول، وانما ربما كان ذلك يعود الى تفريط أصحاب الجواري في العمل على ستر جواريهم، لاسباب اقتصادية بحتة.

غيرها فإنه كاذب ومن صدقه كفر، فواجب أن يوقفوا للتوبة تحت السيف، فمن تاب ترك، ومن أبى قتل بالسيف كفرا، فلا يغسل ولا يكفن ولا يدفن في مقابر المسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صدق كاهنا فقد كفر بما أنزل الله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك يوقف تحت السّيف كل ساحر وساحرة، وكل من يزعم أن عنده من الطلاسم والعزائم ونحوها ما يجلب الرزق أو يهزم العدوّ أو نحو ذلك فمن تاب منهم ترك، ومن أبى قتل، وكل من يزعم أنه انما يكتب لذلك من كتاب الله أو من الكلام الطيّب فلا تصدقوه، إنما هو كاذب، فالواجب زجزه، وان لم يرجع فلينكل على ذلك، سدّا للذريعة وحفظا للشريعة والاعتقاد (141) وأما التطفيف فهو حرام بالكتاب والسّنة واجماع علماء الامة، وواجب على أمير المؤمنين أن يجعل أميرا على الأسواق وحفظ الارزاق فليصلح موازين كل بلد على نسبة واحدة بتقويم الميزان والوزن وتسوية الصّنوج حتى لو فرقت مائة مثقال بالصّنوج كلها لا ينقص، ولو جمعتها بتلك الصّنوج لا تزيد الا ما لا بال به من الزيادة والنقص، وكذلك يجب إصلاح المكائل كبارها وصغارها حتى تكون كلها (142) على نسبة واحدة ولابد من عرض الموازين والمكاييل على التغيير في كل حين، فمن ظهرت عليه الخيانة في شيء من الوزن أو الكيل فعاقبوه وأخرجوه من أسواق المسلمين. وصفة الوزن أن يبسط الوازن جلدا صحيحا ليّنا أملس، ويوقف الميزان فوقه حتى يعتدل بالمسح والتصوير، فاذا اعتدل يضع فيه التبر برفق والصّنوج (143) ويرفع من غير تمييل ولا تسنيد ولا حيلة، ويبرم ويهز ثم يسكن يده ويزيد وينقص حتى يعتدل لسان الميزان في وسط القبّة ساكنا بلا حيلات، فيعطي الذي في الكفة لربّه، ويجمع ما تساقط على الجلد ويردّه في صرة أصله وصفة الكيل أن يعقد الكيال المكيال معتدلا، ثم يصبّ فيه المكيل برفق حتى يمتلىء امتلاء كاملا من غير تركين ولا تسنيد (144) ولا زلزلة ولا حيلة، انما يعدل المكيال في وضعه ويصبّ فيه حتى يمتلىء بطنه، وأما جميع أنواع الغش فحرام بالكتاب والسّنة وإجماع الامة وعلى أمير المؤمنين أن يزجر أهل

---

(141) ظل اصحاب التمائم في العالم الاسلامي يتعللون في اعمالهم المخالفة للاسلام، بأن هناك آيات تنص على ان في القرآن شفاء للمؤمنين، والواقع ان ذلك كما يتفق عليه معظم المفسرين ينصرف الى معاني الاستقامة والصفاء العقلي والروحي، وليس له اية علاقة بأمراض الجسم.

اما العلماء الحقيقيون فقد ظلوا يقاومون كل مظاهر الشعوذة وانكروا كل ما ادخله الصوفيون ايضا من شطحات فكرية، ليست من الاسلام في شيء. ويعتبر المغيلي من بين أولئك العلماء الحقيقيين بدون شك. لما له من آراء سديدة في هذا المقام.

(142) كذا في النسختين، ولعل الاحسن (حتى تكون كلها).

(143) (المعايير).

(144) نهاية الصفحة الاولى من الورقة 9 في (أ).

الغش والخديعة أعظم زجر، ومن له من ذلك مال، فهو في فيء يجعله الأمير في مصالح المسلمين، والبيع لازم بالقول ولازم بالمعاطاة، فواجب على المشتري أن يعطي ما عليه من الثمن، فإن أبى أخذ منه كرها، وان لم يوجد بيده غير سلعة غريمه أخذها الحاكم وباعها على ذمّته، ثم قضى لغريمه ثمن سلعته، فان فضل شيء فهو له، وان بقي عليه شيء أتبعه الغريم، وليس له ردّها على بائعها الا برضاه أو بعيب قديم، ومن باع أمة قبل أن يستبرأها من مائه وأسلمها للمشتري كذلك، فهو من الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض يجب على الأمير أن يزجره عن ذلك بالعقوبة الرادعة له ولغيره، ولا يصدق في قوله: لم أطأها، الا إذا كانت من (145) الوخش التي ليست للوطء غالبا ولم يقر بوطئها ولا شهدت عليه بينة فيصدق في أنه لم يطأها فواجب على المسلمين أن يلزم الناس المواضعة للاستبراء في كل أمة يتخذ مثلها للفراش وان أنكر سيدها أنه وطأها وفي كل أمة أقرّ السّيّد بوطئها أو ثبت عليه وان كانت وخشا أو دعى استبراءها والمواضعة أن توضع عند أمين حتى تحيض مثلا، وكل أمة بيعت في أول حيضتها فذاك استبراء لها يكفي البائع والمشتري (146) ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء وكشف العورات فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد في منع ذلك ما استطاع وأن يجعل أمناء، ويحتسبون على ذلك ليلا ونهارا سرّا وجهارا، وليس ذلك من باب التجسّس على المسلمين انما ذلك حسن الرّعي وردع المجرمين، لا سيما اذا شاع الفساد في البلاد كما في تمبكتو وجني (147) ونحوهما. ومن الصّواب الواجب أن تنقل كل امرأة عن مكان التهمة وأن يجعل

---

(145) نهاية الورقة 15 في (ب).

(146) هذه الاحتياطات التي يشرحها المغيلي للاسقيا محمد في قضية الاماء، هي ما يتفق عليه كل الفقهاء في هذا الموضوع، ولا شك ان السودانيين بقوا على الكثير من عاداتهم القديمة حتى بعد اعتناقهم الاسلام، وذلك للظروف التي لم تمكنهم من معرفة وتطبيق كل الجزئيات التي يتطلبها منهم الاسلام. وما يتفق عليه الباحثون في هذا الصدد، هو ان الاحتياطات الاسلامية في موضوع النساء عامة يهدف من ورائها الى شيئين هامين:

أ) ـ المحافظة على سلامة النسل وصفائه.

ب) ـ الوقاية من الامراض.

(147) كانت تمبكتو وجني في هذه الفترة (بداية القرن السادس عشر الميلادي) مركزين كبيرين للثقافة العربية ـ الاسلامية في السودان الغربي كله، ومع ذلك يذكر المغيلي أنهما من اكثر المدن فسادا، ولعل مرد ذلك الى ان المغيلي وغيره يعرفونهما اكثر مما يعرفون غيرهما، وذلك لكثرة توارد الفقهاء والعرب بصورة عامة، عليهما اكثر من غيرهما من بقية المدن السودانية في تلك الفترة.

اما بقاء بقية من عادات الوثنية القديمة مثل الاباحية وغيرها، فلا شك ان ذلك مما كان يلاحظه كل الناس في سلوك المجتمع حتى ذلك الوقت. وقبل ذلك تعجب ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) من ان بعض القضاة الفقهاء يعاشرون نساء لسن ممن يحل لهم معاشرتهن، ثم يذكر ان ذلك من عادة جميع السودانيين.

الأمير أمناء يطوفون بالليل والنهار والطرقات فكل من رأوه (148) يتكلم مع أجنبية أو يدخل اليها أو ينظر اليها ، فليأخذوه وليأتوا به الى المتولي خطة الحسبة ، فليعنفه ويزجره بما يليق بمثله على حسب سوء فعله ، وليس لذلك حدّ محدود ولا ضرب معدود، انما ذلك (149) موكول الى نظر الحاكم، فليتق الله ولينظر الى درء المفاسد وجلب المصالح بالتقوى لا بالهوى، فان قلتم : وأين الامين الذي يصلح لذلك ويؤمن عليه حتى يجعل الامير بيده ويفوّضه اليه ، فانه معدوم في هذا الزمان لا سيما في تلك الأوطان ، قلت: ارتكاب أخف الضررين واجب اجماعا ، وضرر الحسبة في ذلك أخف من ضرر تركها بلا شك ، وأيضا مفسدة تعدي الناظر يمكن درؤها بالبعد عن أماكن التهم ، كالمشي في الليل ونحوه من الخلوات ، ولا كبير ضرر على الناس اجتناب ذلك غالبا ، وأما مفسدة ترك الاحتساب على الفاسقين والفاسقات ، لا سيما في الخلوات الظاهرة التهمة ، فلا سبيل لدرئها ولا سيما في هذا العصر الكثير الشر ، في هذه البلاد السّودانية ونحوها ، بل من العوائد الجارية والسياسية السلطانية في كثير من البلاد الاسلامية ، أن بعد صلاة العشاء بقليل ، يطوف الحاكم في البلد بأعوانه ، الليل كله ، فكل من صادفوه في طريق رموه في السّجن حتى ينظر غدا في أمره ، سواء صادفوه في مكان التهمة أو غيرها ، الا رجل معروف بالخير حرا ، خرج لحاجة أكيدة ، وقد جعلوا ذلك درءا لمفاسد (150) الشر ، وان أضر بكثير من غيرهم ارتكابا لأخف الضررين . وأما ما ذكرتم من عادة جني في أن البكر لا تستر عورتها حتى تتزوج ، فذلك منكر من أكبر المناكر ، وأقبح القبائح ، لم يسمع قط بمثله في شيء من بلاد المسلمين ، بل لا يرضى به حتى اليهود والنصارى ، فكيف يزعمون أنهم مسلمون ، انا لله وإنّا إليه راجعون فحاشى المؤمنين المسلمين أن يفعلوا مثل ذلك ويواطأوا عليه خلفا عن سلف ، فواجبا عليهم أن يتوبوا الى الله تعالى عاجلا ، وأن يبادروا الى تغيير ذلك ، وغيره من المناكر ، عاجلا ، وواجبا على والي الأمر أن يجتهد في ردعهم وردّهم وردع (151) كل من في حكمه ، الى العمل بشرائع الاسلام ، فان ذلك من أفضل الجهاد وأهمه ، فليبادر لتغيير المنكرات كلها ، بحسب ما أراده الله لا بحسب هواه من الرّأي السّديد في تغيير المنكر (152) ، فان لكل شيء وجها ينظر اليه ، والظالم

(148) كذا في النسختين ولعل الاصواب ان يكون (رأوه) .

(149) نهاية الورقة 16 في (ب) .

(150) نهاية الورقة 9 في (أ) .

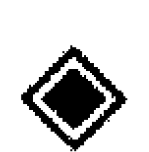
(151) كذا في النسختين ، ولعل الاحسن ان تكون (ورد) .

(152) لم يتناه الينا عن الأسيقيين بعد الأسقيا محمد حرصهم ولو ظاهريا على اصلاح حال الناس لينسجموا اكثر مع تعاليم الاسلام في هذا الخصوص ، ويذكر السعدي ومحمود كعت ، وهما مؤرخان سودانيان عاشا في تلك الفترة ، ان أواخر الاساقي كانوا يتعاطون من المنكرات ما يخالف الاسلام تماما ، ويرجعان

أحق أن يحمل عليه، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز: (ستحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور) فاتق الله تعالى، وانظر لنفسك قبل الفوت، فانه لا بد من الموت قال الله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا)، وقال تعالى: (كل نفس ذائقة الموت) الى قوله: (متاع الغرور)، صدق الله العظيم ونبيّه الكريم، ونحن على ذلك من الشاهدين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد وآله وصحبه (153) أجمعين، وسلام (154) على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوّة الا بالله العلي العظيم. (155)

ـ انتهى، الحمد لله تعالى وحسن عونه، والحمد لله رب العالمين على يد متممه عبيد ربه الغني به عمّن سواه (العربي بن محمد العربي الفيلالي)، لطف الله به بأسلافه وبجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، وغفر له ولوالديه ولمشايخه وجميع المؤمنين والمسلمات آمين يا رب العالمين.

وقد تمّمه لعمّه الفقيه باب بن ألفا أبي بكر، ألهمنا الله واياه علم ما فيه، والعمل بمقتضاه آمين.



اسباب سقوط دولتهم على ايدي المغاربة في سنة (1591)م الى سخط الاله عنهم، لمحشهم. وهذا بالرغم من ان افراد العائلة المالكة كانو يتوفرون أكثر من غيرهم على معرفة الاستقامة كما يقتضيها الاسلام، كما جاء في رسالة السيوطي الى أمراء كانوا ما يثبت أن الامراء كانوا يباشرون تجاوز حدود الاسلام، مع ادعائهم الحرص على اتباع الشريعة الاسلامية والالتزام بهديها.

(153) في (ب) وسلم أجمعين.

(154) في (أ) وسلم على المرسلين.

(155) الى هنا تنتهي نسخة (ب) دون ان يذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ. ويبدو أن هذا الحد هو نهاية ما كان قد كتبه المغيلي الى الاسقيا محمد الاول، اما الزيادة التى في (أ) وقد اثبتناها كما هي، فلا شك انها من اضافة الناسخ، ولم تحتو تاريخا هي الاخرى ايضا.

الفهرس

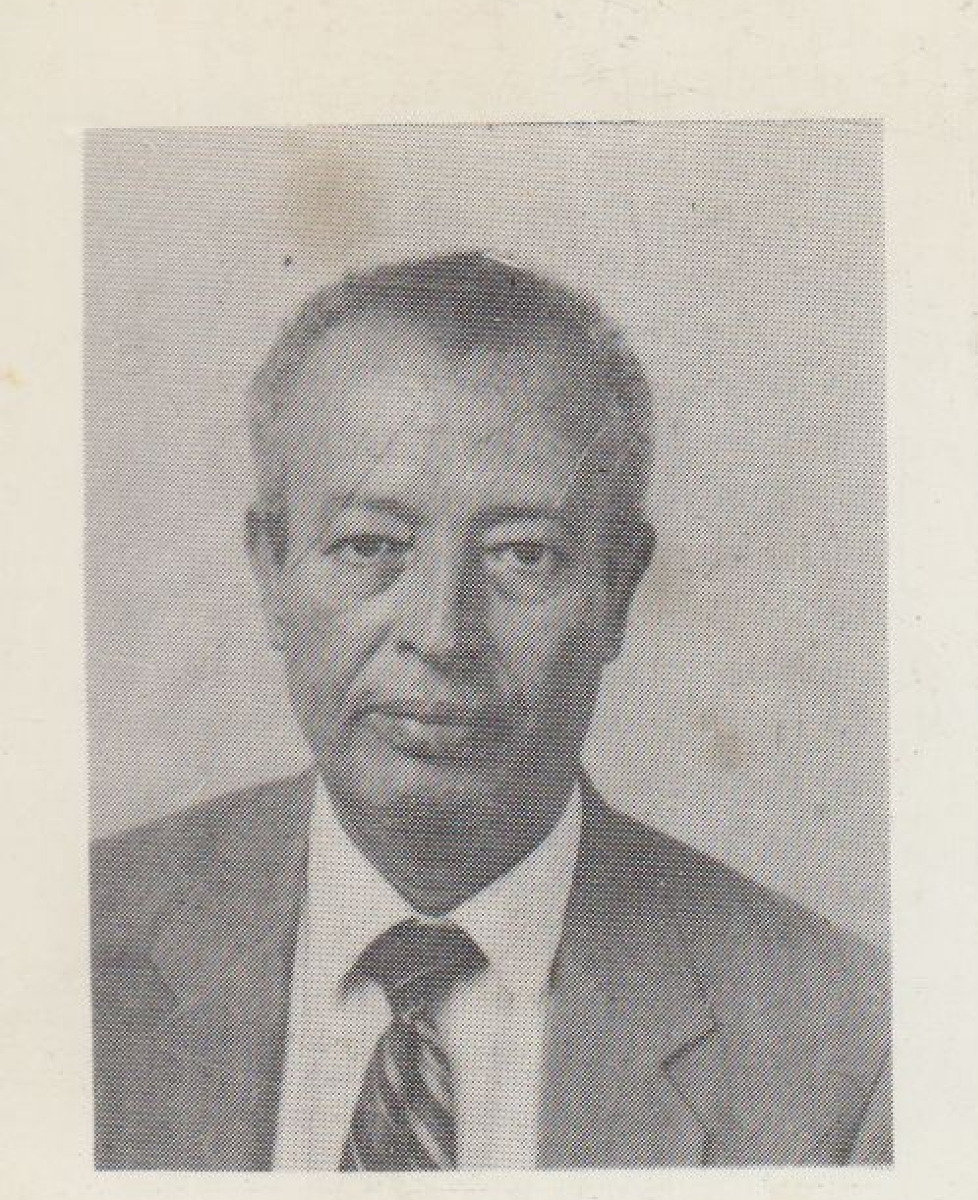
القسم الأول

- السودان الغربي ومالكه الاسلامية الكبرى (نظرة عامّة) 9
- تجارة القوافل مع العالم العربي. موادها وفوائدها 27
- السّودان الغربي في كتاب العلامة ابن خلدون (نظرة للمقارنة) 41
- حملة المنصور وظروفها 43
- أمثلة من المعالم لحضارة مشتركة بين السودانيين والعرب 51
- القرن 16 وحركة التعليم في تمبكتو. مركز التبادل الثقافي الأول 59
- حركة الفكر والفنون والعمارة حتى نهاية القرن السّادس عشر، 75
- التيجانية والقادرية في فترة الجهاد (القرنان 18 و 19) 91
- الزعامة في نطاق الامتزاج الاستعماري. أمثلة عن نشأتها وعملها في أفريقيا (الفرنكوفونية) 97
- الزعماء المتطورون والاستقلال 115
- العلامة توينبي وتراث الحقبة الاستعمارية في أفريقيا 121
- الملاحق 127
- المصادر والمراجع المختارة (العربية والأجنبية) 147

القسم الثاني

- المقدمة 151
- هذا المخطوط 151
- تاريخ الأسئلة 152
- النسختان المحقق عنهما 152
- المغيلي صاحب الاجوبة 153
- الاسقيا محمد، صاحب الاسئلة، ومملكة سنغاي 154
- الاهمية التاريخية، لمحتوى هذا المخطوط 159
- النص الكامل للمخطوط 160
- المسألة الثانية 170
- المسألة الثالثة 175
- المسألة الرابعة 177
- المسألة الخامسة 181
- المسألة السادسة 184
- المسألة السابعة 186

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ، الجزائر
1989



ـ عضو الاتحاد العالمي للمؤرخين ، عضو جمعية المؤلفين الأفارقة ، وعضو اتحاد المؤرخين العرب .

ـ تحصل على دكتوراه دولة (تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر) جامعة لندن 1974 .

ـ أستاذ كرسي الدراسات الافريقية وتاريخ العلاقات العربية الافريقية بجامعة الجزائر .

تزدهر ثقافات الشعوب على سطح هذه المعمورة وتتلاقى كما تنمو الأزهار الشيّقة الجميلة في البستان الواحد وتتلاقى ، وان تلاقي الثقافات والعلاقات التي تنتج عن تلاقيها وتلاقحها كانت ولا تزال تشكل أحد الميادين الواسعة وذات القيمة الكبرى لاهتمامات الباحثين والمختصين .

وفي منطقة الغرب الافريقي الشاسعة إلى الجنوب من الصحراء الافريقية الكبرى ، كان للثقافة العربية الاسلامية دورها المتميز منذ وقت مبكر ، فأخذ بها الناس وأحبوها وتكيفت حياتهم بها لقرون عديدة ، ثم جاءت الفترة الاستعمارية الأوروبية مع بداية هذا القرن العشرين الميلادي ، فأصبح أيضا للثقافة الأوروبية على ربوع هذا الاقليم الرحب حظ البقاء والاستمرار حتى بعد نهاية فترة الاحتلال الأوروبي المباشر عند منتصف القرن ، وتشكل مادة هذا الكتاب دراسة تاريخية متأنية للاحاطة بواقع وجذور التواجد الواقعي والتاريخي للثقافتين العربية والأوروبية على أديم اقليم السوادين الغربية ، تساهم في افادة الباحث وتضع القارىء أمام معطيات المستقبل انطلاقا من معطيات الماضي والحاضر في هذا الخصوص .



السعر : 62,00 د.ج